

# أسرار لورنس العرب

توماس إدوارد لورنس



- رسائل لورنس السرية
- السر الذي أخفته أسرة لورنس

ترجمة: سامي حجازي  
مراجعة وتدقيق: فؤاد فراج





أسرار  
لورنس العرب  
توماس إدوارد لورنس



الأهلية للنشر والتوزيع  
e-mail : alahlia@nets.jo

### الفرع الأول (التوزيع)

الملكة الأردنية الهاشمية ، عمان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب مطعم القدس - بناية رقم 12  
هاتف 00962 6 4638688 ، فاكس 00962 6 4657445

### الفرع الثاني (المكتبة)

عمان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب البنك المركزي ، مكتب المقاصة - بناية رقم 34

### مكتب بيروت

لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات  
هاتف: 00961 1 824203 ، مقسم 19



## أسرار لورنس العرب (توماس إدوارد لورنس)

الطبعة الأولى، 2009

حقوق الطبع محفوظة



الصف الضوئي : إيان زكرياء - 079/5349156

الغلاف: علي المسيني 00962 7 99782270 ، عمان ، الأردن

*مسن*

*All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب  
أو أي جزء منه ، بأي شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطى مسبق الناشر

# أسرار لورنس العرب

## توماس إدوارد لورنس

ترجمة: سامي حجازي  
مراجعة وتدقيق: فؤاد فراج





## مُقدمة

وُلد توماس إدوارد لورنس *Thomas Edward Lawrence* في 16 آب / أغسطس عام 1888، الابن الثاني لإدوارد روبرت لورنس *Edward Robert Lawrence* وسارة مايدن جينر *Sara Maiden Jenner*. وكان أخوه الأكبر، بوب *Bob* قد ولد قبله بثلاثة أعوام. ثم لحقها ويل *Will* في 1889، وفرانك *Frank* في 1900، وأنولد في 1903.

وكانت الأم، سارة من أصل اسكتلندي اسكندينافي، كالفنية المذهب، متزمرة الشخصية. فلم تكن تعرف المرح أو الابتسام. ولم تكن تشرب الشاي أو الكحول، رغم أن زوجها كان يُكثر منها. وكانت تأخذ أولادها بالشدة، وتعاقبهم عند الضرورة أقسى عقاب. وقد غطت شخصيتها على شخصية زوجها وسيطرت بقوتها وتزمتها على أولادها سيطرة كاملة.

ويقال إنه كان بأسرة الأم، سارة، جنون ورائي. وأن الأولاد الخمسة قد نبهوا، أو تنبهوا، إلى هذا في صباحهم، فتعاهدوا على لا يتزوجوا بعد ذلك! وجدير بالذكر أنهم قد وفوا بوعدهم. وأن الأخ الأكبر، بوب، عمل بعد ذلك ميسراً في الصين حتى عام 1935، ثم تفرغ لرعاية والدته التي عمرت حتى توفيت في عام 1959 عن 98 عاماً. وقد قُتل ويل وفرانك في فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى. وأصبح آرنولد أستاذاً لعلوم الآثار بجامعة كامبريدج وحارساً على تركة أخيه توماس الذي ترجم له بعد وفاته.

ويقال أيضاً إن الأم قد صارت أبنائها الخمسة ذات يوم من أيام عام 1899 (وكان توماً قد بلغ وقتها العاشرة من عمره) بخبر كان لهأساً وقع في نفوسهم. وقد أثر على حياتهم المستقبلية، وبالذات على حياة توماس، أعظم تأثير.

فإن الأب، إدوارد، كان باروناً، وسليل أسرة نبيلة أقطعها كرومويل قبل قرون أراضي واسعة في إيرلندا. وكان إدوارد قد ولد في عام 1846، وتزوج في عام 1873 من سيدة إيرلندية كريمة، أنجبت له بين الأعوام 1874 و1881 أربع بنات. وقد عملت سارة جينر مربية لمؤلفات البنات. ثم وقع الزوج، السير إدوارد روبرت تشابمان (وكان هذا هو اسمه الحقيقي) في هواها. وأنجب منها ابنه الأولين: بوب وتوماس. وأراد إدوارد أن يطلق زوجته وأن يتزوج مربية أطفاله وأم ابنيه. ولكن زوجته رفضت كلية فكرة الطلاق، وهددت بإثارة الفضائح. فترك الزوج منزله في 1899 مع خليلته وطفلهما وهما في أماكن كثيرة. وغيرت الأسرة اسمها من تشابمان إلى لورنس. وعاشت في بعض أنحاء إنجلترا حتى عام 1891، ثم استقرت حيناً في اسكتلندا وجزيرة مان، وعاشت في فرنسا شهوراً. وكان بوب وتوماس قد كبراً، ثم ولد ويل وفرانك وأرنولد، واحتاج الأبناء الخمسة إلى مدرسة. فدخلوا مدرسة للأباء اليسوعيين في فرنسا. ثم انتقلت الأسرة إلى أكسفورد بإنجلترا، وأدخلت أبنائها مدرستها.

وأما الزوجة، الليدي تشابمان فقد استمرت تعيش في قصر زوجها في ساوث بيدلffen بمقاطعة ليستر شير، وتحيط بأخبار زوجها. حتى عرفت أنه قد توفي في وباء إنفلونزا عام 1919. فأبلغت وزارة الداخلية البريطانية رسمياً أن زوجها قد توفي من دون وريث ذكر، فأنهت الوزارة بارونية الأسرة، ولم يتقل اللقب إلى بناته من زوجته الأولى أو أولاده من خليلته. وقد توفيت الليدي تشابمان بعد ذلك بخمسة أعوام، أي في عام 1924.

\* \* \*

كان السير توماس، كأثر النبلاء الإيرلنديين في ذلك الوقت، يستنكر العمل بيده. ويرى أن نشاطاته يجب ألا تتعدي حدود الاهتمام بأنواع الرياضة، كالصيد والتجميف والسباحة وقيادة الدراجات البخارية. ولكن خليلته، سارة، أخذت تبعده شيئاً عن أفكاره الأرستقراطية، وتطالبه بأن يعمل من أجل لقمة عيشه، والوفاء بمتطلبات أسرته المتزايدة. ولم تكن حالة الأب ميسرة، حتى وإن ورث في عام 1915 عن أخيه مبلغاً من المال. وعندما توفي الأب في عام 1929، لم يتجاوز ما تركه لأولاده الأربع 17000 جنيه.

وكان توماس يميل منذ صغره لوالده، وقد أخذ عنه هواياته الرياضية، وخرج معه مرات للصيد أو السباحة أو التجميف. وهوى بعد ذلك قيادة الدراجات البخارية. فلم يتأثر حبه له بالقصة التي سمعها وهو في العاشرة من عمره، بل لعل توماس قد أشفق على والده من فعلته، ولعل أسفه على حرمانه وحرمان إخواته من ثروة ولقب أبيه لم يغير عواطفه نحوه بعد ذلك.

والثابت مع ذلك، أن توماس وإخواته قد كتموا حقيقة أصلهم، ولم يبوحوا لأحد بها. ولكن بعض الباحثين والكتاب، وعلى رأسهم ريتشارد الدينجتون، اهتدوا إليها بمتابعة أقوالهم وحوادث حياتهم.

وعلى العكس، لم يرتع توماس كثيراً لمعاملة والدته له، وضجر من إلحاحها المبكر عليه بدراسة الإنجيل والكتب الدينية، وكتب بعد ذلك في خطاب له في عام 1927:

«إن شعوراً قوياً بالخطيئة قد جرفها، لأن الذي قد ترك زوجته كي يعيش معها من دون زواج. وقد دفعها هذا إلى أن تنغمس بأكثر ما كانت تختتمه تربيتها الكالفينية في أمور الدين. وإلى أن تلح علينا بأن تكون صالحين، وبأن نصلي، وكأننا سنكفر بما سفعله عن خطيئة والدينا».

وقد قيل إن التربية الدينية الصارمة التي نشأ عليها توماس، كانت إحدى العوامل المأمة التي أثرت في «فحولته» ونظرته السوية إلى الجنس، مما ستحدث فيه، وأن قسوة والدته عليه بضررها المتكرر والقاسي بالعصا، وتقييده إلى «أعمدة سريره»، ومنع الطعام عنه فترات طويلة، مما كانت تقصد به تأدبيه و«القضاء على عناده» قد أدى إلى تقاديه، وتدريب شخصيته على المقاومة وجسمه على التحمل. فأصبح لا يبالي بالصعوبات، ولا يرده عنها يريد جروح أو أمراض، من دون أن يشعر بجوع أو تعب أو آلام، مما كان يدهش له كل من اخالط له أو عرفه.

\* \* \*

## السر الذي أخفته أسرة لورنس

صعوبات لورنس مع والدته

استقرت أسرة إدوارد روبرت لورنس منذ عام 1896 في منزل متواضع في شارع بولستيد بمدينة أكسفورد. وتردد الأولاد الخمسة على مدرسة المدينة. ولكنهم لم يكونوا يختلطون بأحد فيها، وينفذون أوامر والدتهم في مقاطعة جيرانهم وزملائهم.

وكان الأولاد الخمسة يلفتون أنظار من حولهم بالنظام الصارم الذي نشأوا عليه. فيعتنون عنابة عسكرية بمظهرهم ونظافتهم. ويلبسون ملابس متماثلة. ويذهبون كل صباح إلى مدرستهم فوق دراجات خمس، يقودونها متابعة في صف واحد على جانب الطريق. فإذا عادوا في المساء، لزموا منزلهم للمذاكرة.

وكان جسم توماس قوياً في طفولته. وقد قيل إنه كان يستطيع أن يرفع جسمه فوق سريره وعمره لم يتجاوز بعده أسبوع. وأن نبوغه الفكري، إلى جانب نضجه الجسمي كان مبكراً جداً، وأنه عندما كان في الثالثة من عمره، التقط الدروس الأولية التي كانت تلقى على أخيه الأكبر بوب. وعندما أصبح في الخامسة من عمره، أخذ يتباهي باستطاعته قراءة كلمات الصحفة اليومية مقلوبة أمام عينيه!

وقد أجاد توماس الفرنسية منذ كان في السادسة من عمره. فلما ذهب بعد ذلك إلى مدرسته الإعدادية في أكسفورد، لم يستفد منها، على ما قال، إلا قليلاً. وكانت دروسها بالنسبة له «موضوعاً متكرراً، ووقتاً ضائعاً، وهو ثقيلان». وقد استغل توماس أكثر وقته في المدرسة في قراءاته الخاصة والمنوعة.

وقد ذكر توماس أنه كان يحصل على جوائز عديدة من مدرسته كل عام. ولكن الثابت أنه كان متاخراً في الرياضيات، وأن عقله كان «مشوشًا مع الأرقام»، وأنه قد اعتمد على بعض زملاء مدرسته في أداء واجباته فيها، ولم يتقدم توماس في دراساته المدرسية حتى استبدل علوم الرياضيات بالتاريخ، فتحسن نتائجه بالمدرسة.

وقد سبق أن ذكرنا أن والدة توماس كانت تدفعه دفعاً، مع بقية إخوته، لقراءة ودراسة الكتب الدينية. ولكن هذا لم يحبه في الدين، وإن كان عقله الصغير قد تعلق بها سمع من قصص دينية. وتعرف عن طريق هذه القصص إلى بلدان الشرق الأوسط القديمة، ثم عشق توماس بعد ذلك القصص الخيالية الإيرلندية، وأحب قراءتها وروايتها، وظهرت قوة خيالاته، فكان يضيف إلى تفاصيل القصة من عنده في كل مرة يرويها.

وفي عام 1904، مَرَّ توماس بتجربة قاسية عكست تردده على والدته، وترك خلاماً أكل اللحوم، واقتصر على تناول الألبان والخضراوات والفواكه. وقد استمر توماس في هذه التجربة حتى عام 1907. ويقال إن النقص البروتيني في جسمه وقتذاك كان السبب الأول في كسر رجله خلال مباراة له في المصارعة، وتأخر شفائها شهوراً. ويقال أيضاً إن هذا النقص الذي سببه امتناعه عن أكل اللحوم، كان السبب في وقف نموه. فلم يزد طوله بعد ذلك عما بلغه في خلال عام 1904، وهو 160 سم.

ومع أن توماس لم يكن قصيراً، فإن جسده النحيل، والمنحنى دائمًا في وقته إلى الجانب، ورأسه الكبير نوعاً ما، كانت «تعطي الانطباع» بضائكة جسمه. أضاف إلى هذا شعره الأشقر، وعيناه الزرقاواني والزائفتان دائمًا، مما كان يزيد الناظر إحساساً بضائكته وصغر سنه.

وجدير بالذكر أن توماس لم يعرف الرياضيات الجماعية ككرة القدم والكريكت على عادة الشبان الإنجليز، وإنما تعلق منذ كان حديثاً بركوب الدراجات والسباحة والتجديف، وبعد ذلك بالرمي وركوب الدراجات البخارية، وكلها من الهوايات الفردية. وقد ذكر أنه كان يهوى تسلق الأشجار وأسطح المنازل، وأنه كان يتسلل في متصرف كل ليلة من نافذة حجرته، هابطاً على جدار منزله إلى حديقة المنزل، فيخرج ليتمشى أو يصيد الأسماك أو يسبح في مياه النهر الباردة، ولا يعود إلى غرفته إلا عند الفجر. وقد ذكر بعض أصدقائه في جامعة أكسفورد أنه كان يهب مستيقظاً «كالقط» إذا حل المساء، فلا يصبه النوم حتى يشقشق الفجر. وقالوا إن توماس كان أول من قطع التريل ميل في أكسفورد، وهي القناة الأرضية التي تحمل مجاري المدينة، حاملاً معه مسدساً، يضرب برصاصاته، في جنح الليل، أهم بالوعات الشوارع! وقد انتشرت هذه «الموضة» بعد ذلك سنوات بين طلبة تلك الجامعة.

\* \* \*

قام توماس في عام 1906 برحلة بدرجاته مع صديقه بيسون إلى قاطعة بريتاني بفرنسا. فزار خلال هذه الرحلة الحصون الصليبية في ليهون ومونتافيلان ونونكوديه. وقد اقتصر طعامه خلال تلك الرحلة على وجبتين يومياً، وتتألف أساساً من لبن الماعز وبعض الفواكه. فلما عاد بعد رحلته الأولى هذه إلى فرنسا، أصابته حمى مالطية خفيفة. ويلاحظ أن توماس قد أصيب خلال هذه الفترة من حياته بأربع نوبات من الحمى، كان أقصاها تلك التي أصيب بها بعد ذلك بثلاثة أعوام في سوريا.

وعندما عاد توماس من رحلته الأولى لفرنسا، ترك منزله، وتطوع جندياً في الجيش البريطاني طوال ثمانية شهور. ثم دفع له والده «دية مالية» وأخرجه من الجيش. وأقام له شاليهاً خاصاً من حجرتين في حديقة المنزل. وقد عاش توماس في هذا الشاليه منفصلأً عن بقية أفراد العائلة. ثم ذهب خلال شتاء عام 1907 إلى ويلز، كي يدرس حضونها وقلاعها. واحتوى له والده وقتذاك كاميلا خاصة، وزار معه صيف ذلك العام فرنسا. وقد ذكر لورنس بعد ذلك أنه قضى يوماً كاملاً من أيام هذه الرحلة الثانية في تصوير حصن ريتشارد الأول في جايارد، وأنه قد زار مع والده أنجرب، ثم افتراق، وعاد توماس إلى سان مالو، فزار قلعتها، ثم قلعة ديه فويجير قبل أن يلحق بوالده في أكسفورد بإنجلترا.

وقد قام توماس خلال العامين التاليين بثلاث رحلات أخرى إلى فرنسا، استخدم فيها كلها دراجته. وكثيراً ما كان يقطع عدة مئات من الكيلومترات في سفر سريع متواصل، ودراسة متأنية للحصون والقلاع الصليبية التي كان يمر بها. مكتفياً، على ما ذكرنا، بطعم قليل من لبن الماعز والفواكه، ومنتفقاً أكثر لياليه في العراء في الحقول والحدائق العامة التي تصادفه.

وقد حاول بعض النقاد أن يرجعوا غرابة تصرفات توماس خلال تلك السنوات التي واكبته سني مرأهنته، إلى صعوبيات لاقها مع والدته، وإلى ثورته على معاملتها له. مما انعكس على شغf طعامه، وخلوه من اللحوم، ثم تطوعه في الجيش، وانغماسه في تلك الرحلات الطويلة والشاقة.

ويلاحظ أن والد توماس كان أكثر تفهمآ له، ومحاولة للترويح عنه ومساعدته. فإنه بعد إخراجه له من الجيش، رافقه في رحلته إلى ويلز ثم فرنسا، وأقام له شاليهاً خاصاً في حديقة المنزل، انفرد توماس بالسكنى فيه من دون إخوته الأربع، مع أنه لم يكن أكبرهم.

ومع ذلك، فإن توماس لم يقاطع والدته بعد ذلك كل المقاطعة. وقد كتب لها من حوض الرون بفرنسا، خلال عام 1908، يشكو البعض «المفترس» فيها. ويقص علىها بعض مشاهداته. واستمر توماس في الكتابة إليها بين حين وآخر، حتى وفاته في عام 1935.

### الزيارة الأولى لسوريا

مال توماس إدوارد لورنس منذ كان صبياً لزيارة المتحف والكنائس. ثم أخذ يتغفل على المتنبئين على الآثار حول مدينة أكسفورد، فصادق بعضهم، وحصل منهم على تحف وعملات قديمة مما كانوا يعثرون عليه. وقد بدأ لورنس منذ حداثته هواية جمع تلك التحف والعملات القديمة. واستهتوه، على ما ذكرنا، دراسة الحصون والقلاع الصليبية. وتعرف حتى من قبل أن يلتحق بجامعة أكسفورد بعض علمائها البارزين في علوم الآثار، وخاصة ليز *Hogarth* و هو جارث *Leeds* وولي *Woolley*. وقد قيل إن هو جارث قد اعتبره بمثابة ابنه، ووريثه في عمله في أكسفورد، وساعدته، كما سيجيء، مساعدات كثيرة. أما ولي، فقد عمل معه لورنس منقباً للآثار في سوريا، ثم مساعدًا في المكتب العربي بالقاهرة.

وكان لورنس قد حصل، عندما أتم دراسته المدرسية، على جائزة في التاريخ، وفرت له بعض نفقاته الضرورية في جامعة أكسفورد. وفي امتحان دخول الجامعة، كان الأول على دفعته في الإنجليزية والثالث في علوم الدين.

وقد التحق لورنس بكلية يسوع بأكسفورد في عام 1907. ولكنه لم ينتظم في الدراسة اليومية بها، وقضى أكثر الفترة التي كان تلميذًا فيها، بين الأعوام 1907 و 1910، متشغلًا بهواياته الخاصة. ومع ذلك فقيل إنه كان «أكسفورديةً مثاليًا». وأنه قد أحب دراسته بها كل الحب. وأن الجامعة قد تركت عليه طابعها «المميز والذى لا يخطئ فيه إنسان».

وقد ذكر لورنس أنه قد انتهز فرصة التحاقه بجامعة أكسفورد كي يقرأ من كتب مكتبتها الحافلة بكل أنواع المعرفة. وادعى، في مبالغة واضحة، أنه قد قرأ في كل يوم من تلك الأيام ثلاثة كتب كاملة. والواضح أنه قد أراد القول إنه قد قرأ في «بعض» تلك الأيام ثلاثة كتب! وليس من شك أن قراءات لورنس، خلال دراسته في أكسفورد، كانت وافرة.

وقد أهدت جامعة أكسفورد لورنس خلال دراسته بها كتابين عن مصر القديمة. ثم اشتري من نقوده الخاصة عدداً من الكتب الأخرى في تاريخ وجغرافية بلدان الشرق الأوسط. ودرس كتابي دافي عن بلاد العرب وهو جارث عن بلاد الرافدين.

وكان لورنس يواظب على الصلاة كل يوم أحد في كنيسة سانت الديت بآكسفورد، ويرأس درسين أسبوعيين لمدرسة الأحد بها. وكان ينخرج مع تلاميذه فصلية مرة كل أسبوع إلى الحقول المحيطة بالمدينة. فإذا قام برحالة من رحلاته البعيدة، راسل تلاميذه ثم قص عليهم عند عودته بعض وقائع تلك الرحلات ومشاهداته فيها.

\* \* \*

وكان والدا لورنس قد جريا مع أبنائهم على أن يعطوهم أول كل صيف مبلغاً من النقود، ثم يتركوهم لقضاء عطلتهم الصيفية كيفما شاؤوا. فلما كان صيف عام 1909، فاجأ لورنس والديه بنته السفر إلى سوريا، لدراسة حصونها وقلاعها الصليبية. ومع أن والده لورنس رفضت الفكرة رفضاً قاطعاً، فقد اضطرت بعد ذلك للموافقة أمام إصرار لورنس وموافقة والده على فكرته. وقد أعطاه والده 200 جنيه إسترلينيًّا للإتفاق منها على رحلته.

وقد حصل لورنس من هو جارت، قبل سفره، على خريطة سوريا. وحصل له السير جون ويز على خطاب رسمي من الحكومة التركية يطلب فيه إلى موظفيها ورعاياها في سوريا تقديم التسهيلات والمساعدة له.

وكان لورنس قد تعرف إلى «صديق عربي» في أكسفورد، نصحه بـألا يتبع طرق السائحين المطروقة، وأن يتتجنب النزول في الأماكن التي ينزل بها الأوروبيون. وألا يتخذ دليلاً لطريقه. وأن يلتجأ في السؤال، بل والطعام والشراب، إلى المواطنين السوريين أنفسهم.

وقد اشتري لورنس مسدساً وكاميرا وبعض الضروريات. ثم غادر إنجلترا إلى فرنسا. وقد توقف أياماً في باريس، اشتري خلالها ساعة نحاسية ظل يفخر بها طويلاً. ولكنه فقدها بعد ذلك في سوريا. ثم اتجه إلى مرسيليا، فركب منها سفينة إلى بيروت. وهناك التحق لورنس بمدرسة مدينة جبيل التابعة للبعثة الأميركية (بعد ذلك الجامعة الأميركية) في بيروت. وأخذ في دراسة العربية، فتعلم، كما قال، ثمانين كلمة. وبذلك بدأت معرفة لورنس بالعربية، وهي المعرفة التي ستطرق إليها، والتي حازَ في تحديدها المؤرخون. فمن هؤلاء من يقول إن لورنس لم يجد قط العربية، وأنه كان يتحدث إلى العرب بالإنجليزية، أو يلتجأ معهم إلى المترجمين، ومنهم من قال إنه قد ألمَ بأسرارها، وعرف لمحاتها، وكان يستطيع أن يحدد أصول من يتحدث إليه بها بمتابعة اللهجة التي ينطق بها كلماه.

وقد انتقل لورنس بعد ذلك، على قدميه، ومن دون دليل، إلى دمشق، متخدناً كما نصحه صديقه العربي في أكسفورد، طريقاً غير مطروقة. فأأخذ يجوب مناطق القبائل السورية فيها بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الفرات. وقد طاف بأكثر وديان وسهول سوريا وفلسطين والعراق الغربية. وانقلب به قاربه في نهر الفرات، وكاد يغرق في مياه فيضانه. وقد زار في رحلته هذه 36 حصاناً وقلعة صليبية في

سوريا. وكان يلتجأ في أكثر مأكمله ومشربه إلى القبائل العربية ويُقبل على طعامها البسيط والغريب على الأوروبيين. ولكنه التقى أيضاً بعض الأوروبيين والأميركيين، خصوصاً في صيدا، ونزل عند طبيب إنجليزي في صفد أربعة أيام. وعندما عاد إلى أكسفورد في بداية صيف عام 1910، كانت معه بقية قليلة من النقود التي أعطاها له والده عند بداية رحلته.

وقد قام لورنس خلال صيف ذلك العام برحلة أخرى إلى فرنسا. ثم تقدم بعد شهور من عودته في هذه الرحلة الجديدة برسالته الجامعية إلى جامعة أكسفورد، والتي نال عنها درجة البكالوريوس في العلوم مع مرتبة الشرف الأولى في التاريخ الحديث. وكانت عن «القلاع الصليبية»، وقد ضممتها لورنس رسوم وخرائط وصور كثيرة. وتتأثر فيها بوضوح باتجاه هوجارت، بأن ما يهمنا من تلك الحصون والقلاع ليس هو ما بقي منها، وإنما ما دار بأدمعة من بناتها من أفكار حين قاموا بذلك.

وقد قام لورنس إنما تخرجه من جامعة أكسفورد برحلة جديدة إلى فرنسا. وانشغل خلال الشهور التالية بدراسة الآثار الخزفية، وقد وضع فيها رسالة قصيرة. ثم قام مع صديقه فيفيان ريتشارد بمحاولة إقامة مطبعة تقوم بطبع ما يؤلفان من كتب. وقد تأثر لورنس وصديقه في محاولتها هذه بتجربة الأديب والرائد الاشتراكي ولIAM موريس، الذي حاول أن يجمع بين التأليف والطبع. وقام لورنس فعلاً بجمع حروف كتاب كامل له على آلة المونوتوب. ولكنه لم يستطع طبعه. ثم تحول بعد ذلك إلى تعلم النحت على الخشب، والخفر على النحاس... إلخ. وقد كتب في 1927 إلى صديقه جرافيز:

«لقد ثمنيت طول حياتي أن أملك القوة على خلق الأعمال الفنية: كالنحت والرسم والكتابة. ولكوني كنت أجد مواهبي في التعبير قاصر عنها أحب لها».

وستلاحظ أن حلم تأسيس المطبعة قد ظل يراود لورنس بعد ذلك سنوات، وأنه حين أخذ في وضع كتبه، كان يأخذ في الحسبان طرق ووسائل إخراجها، ويتدخل في شؤون نشرها وتوزيعها.

### التنقيب عن آثار الحيثيين في سوريا

حصل هوجارت لورنس، بعد أن نال الأخير درجة البكالوريوس في التاريخ الحديث من جامعة أكسفورد، على منحة مالية من كلية ماجدالين للتنقيب عن آثار الحيثيين في سوريا. وكانت مدة هذه المنحة أربعة أعوام، وقيمتها مائة جنيه إسترليني في كل عام.

وقد بارح لورنس إنجلترا قبل زملائه من أعضاء البعثة، فسافر إلى فرنسا، وأخذ من مرسيليا سفينة متوسطة، زار بواسطتها نابولي وأثينا وأزمير. ثم ترك السفينة في استانبول. وبعد أن قضى في هذه المدينة أسبوعاً كاملاً، توجه إلى بيروت، حيث انضم إلى رفاق بعثته. ومن هناك رافق لورنس هوجارت في زيارته لحيفا ودمشق وحلب، ثم ذهب معه إلى كارشيمش (جرابلس). وكان وولي قد سبقهما إليها. ثم عاد هوجارت في منتصف عام 1911 إلى إنجلترا، وترك مهمة الإشراف على بعثة جامعة أكسفورد في كارشيمش لمساعدة وولي.

وكان عمل لورنس في كارشيمش ينحصر في حفظ ودراسة الفخار الذي ينقبون عنه، والإشراف على العمال العرب والأكراد والتركمان والأرمن الذين يعملون للبعثة. ولم يكن لورنس يأنف من الاختلاط بهم ومعايشتهم. وقد أحاط تدربيجاً بعاداتهم ولهجاتهم وتاريخهم.

ومع ذلك اتهم لورنس خلال عمله في كارشيمش بعدم الدقة أو الجدية في عمله، وبأنه كان «يفتقد روح العالم الأصيل»، وبأنه كان «يستلقي على كرسيه

المربيع، مرتديةً ما يختاره من ملابس غريبة وزاهية، تاركاً شعر رأسه يطول حتى يلامس رقبته، ويستمع لموسيقى بتهوفن أو يردد أشعار هومير وبليك».

ويلاحظ أن لورنس كان يهوى منذ صغره ارتداء الملابس الغربية والزاهية. وأنه قد تعلق حين وطئت قدماه سوريا بعباءات البدو البيضاء. وقد ذكر لورنس لليلد هارت في 1929 أن خيالاته كانت قد امتلاطت منذ كان في السادسة عشرة من عمره بفكرة «تحرير شعب مستذل». فأقبل منذ هذا الوقت على القراءة في فنون الحرب، وأنه كان يفكر في تحرير الإيرلنديين، حتى اختنط بالعرب، فانتقلت خيالاته لتحريرهم!

وقد ثقت علاقة لورنس خلال عمله في كارشيمش بعربين: الأول هو «صبي الماء» الذي خدمه وأخلص له: داهوم أو الشيخ أحد، والثاني هو رئيس العمال حودي. وكان داهوم أشقر الشعر جيل التقاطيع، قليل الذكاء. وقد عمله لورنس الإنجليزية، وأحضر له بعض كتبها التمهيدية، ثم أخذه معه إلى إنجلترا لزيارتها في أواخر عام 1911. وذكر وولي أن لورنس قد نحت لداهوم في إنجلترا تمثالاً له وهو عاري. وظن بعض الكتاب الغربيين أن علاقة شادة قد قامت بين لورنس وداهوم. خصوصاً وأن لورنس قد وصفه في كتابه «الأعمدة السبعة» بأن «علاقة دموية وأخوية قد ربطت بينهما». ورمز له في كتابه مراراً بالحروفين S.A ، ولكن هذه العلاقة بعيدة الاحتمال، وقد كذبها وولي صراحة.

وأما حودي فكان رجلاً طويلاً وقوياً، يتباهى بلحيته القصيرة، ويعطي الانطباع برفعته وأهميته. وكان لورنس يختار حودي لمرافقته عند خروجه لاستكشاف المناطق المحیطة بكارشيمش، ويتظاهر بأنه، أي لورنس، خادمه. وقد رویت عن حودي حكايات كثيرة تصور مغامراته الإجرامية وقسوته غير العادية.

ويلاحظ أن لورنس كان قد ترك كارشيمش في أوائل أغسطس عام 1911 إلى حلب ومعه داهوم. وكان لورنس قد أصيب بملاريا شديدة لازمته طوال رحلته مع داهوم إلى إنجلترا. وكان يعالجها بالكينين (الحديث وقتذ) والزرنيخ (الذي كان يستخدم قبلًا). فلما بلغ منزل لورنس في أكسفورد، حمل لورنس إلى غرفة نومه حيث بقي أيامًا يعاني من المرض الشديد.

ثم عاد لورنس وداهوم إلى كارشيمش في أواخر ذلك العام، لكنه وجد أعمال الحفر فيها قد توقفت. إذ كان الحكم التركي المحلي قد اكتشف أن الترخيص بالتنقيب قد صدر باسم هوجارت. ولكن هوجارت كان قد سافر عائدًا إلى إنجلترا، وترك أمر التنقيب لولي. وقد حاول وولي ولورنس أن يتفاهما مع الحكم التركي، فلم ينجحا في إقناعه. فأخرج جا أسلحتهما وتحدياه أن يوقفهما عن العمل! وفي هذه الحادثة، وغيرها مما سيجيء، عبرة بها كان عليه الحال في سوريا وقتذ!

وقد زار لورنس في بداية عام 1912 القاهرة للمرة الأولى. وتتعلمذ على العالم المصروولوجي فلاندورز بيترى في أعمال الحفر والحفظ. وقد لاحظ لورنس أن أساليب بيترى كانت متقدمة كثيراً عن الأساليب الأكسفوردية في كارشيمش. ولكنه عندما عاد إلى كارشيمش وجد أن أساليب المقربين الألمان الذين كانوا يعملون إلى جوارهم كانت متأخرة حتى عن أساليبهم. ثم ثار خلاف بين الألمان والبريطانيين في كارشيمش، جعل المحكمة المحلية بها تأمر بوقف أعمالهم جميعاً. وقد ذهب وولي ولورنس بأوراقهم إلى القاضي التركي، وحاولا أن يتفاهما معه، ولكن القاضي أمر بمصادرة تلك الأوراق. وحيثند آخر جا ولي ولورنس أسلحتهما مرة أخرى، وتهداها القاضي، واسترد أوراقها، ثم ذهبوا لتابعة حفرياتها غير عابين بأحد!

ويلاحظ أن الإنجليز والألمان والأتراك كانوا يتوقعون قيام حرب عالمية بينهم، ويستعدون سرًا لنشوبها. وكان الإنجليز يتوقعون دخول تركيا الحرب إلى

جانب الألمان. وقد أخذوا يمحضون حدود مصر الشرقية بين سيناء وقناة السويس. وكان ميناء الإسكندرية قد وضع في اتفاق عُقد في 1912 بين هذه الدول الثلاث، تحت إشراف الألمان. وأخذ هؤلاء في مد خط حديدي يمر به ويحاول أن يربط بين برلين وبغداد.

وقد ذهب لورنس في بداية عام 1913 (أي بعد عودته من إجازته الثانية في إنجلترا) إلى القاهرة، وطلب مقابلة كيتشنر. وحاول لورنس أن يتبه كيتشنر إلى خطورة ما يفعله الألمان في الإسكندرية إذا ما قامت الحرب المتوقعة. ولكن كيتشنر لم يجد إلا عجبه من هذا الفتى النحيل والقصير الذي يتකبد رحلة طويلة وشاقة لتحذيره من أمر كهذا. واعتذر له بأن الأمر ليس في يده، وإنما في يد أولى السلطان في لندن.

وعندما عاد لورنس إلى كارشيمش، أخذ يتعين الفرص، بطرقه الصبيانية أحياناً، لمساعدة المهندسين الألمان الذين يعملون في مد خطوط السكة الحديدية إلى جوار مقر البعثة. فحرّض العمال الأكراد عليهم. وتحدد بالانتقام كبير المهندسين الألمان إذا لم يعتذر شخصياً لخادمه داهوم عن جلده له إثر مشاجرة مع بعض عمالهم. وقد رضخ الألمان لتهديد لورنس، واعتذر رئيس مهندسيهم لداهوم.

وكان لورنس يستخدم في حفرياته أنابيب فولاذيّة ضخمة. فأأخذ يحرّكها فوق التلال المحيطة، حتى ظن الألمان أن الإنجليز ينونون «عمل شيء ما» واحتجروا رسميًّا لدى لندن. وجاءت أوامر لندن للبعثة بالتوقف عنها قد يثير غضب الألمان.

وفي صيف عام 1913، قضى لورنس أسبوعين في إنجلترا. وقد رافقه إليها هذه المرة داهوم وحودي. وعندما عادوا، وجد لورنس أن الجيش الإنجليزي قد أخذ يعد خرائط وافية بجانبي حدود مصر الشرقية. ولما كان الإنجليز لا يستطيعون إرسال بعثة علمية لسج الأراضي التي يحكمها الأتراك، فقد ألغوا لجنة «علمية»

يموّلها ظاهرياً «صندوق استكشاف فلسطين» وهي جمعية دينية علمية، لأداء هذه المهمة! وتألفت البعثة من وولي ولورنس وضابط المخابرات الإنجليزية نيوكومب.

وقد قامت البعثة بعملها طال شهري كانون الثاني /يناير وشباط /فبراير عام 1914، فهبط وولي ولورنس، ومعهما داهوم، من كارشيمش إلى غزة، حيث اشتروا لوازمهم. ثم تقابلوا مع نيوكومب في بير شبيا. واتجهوا جنوباً إلى العقبة. وهناك فقدوا جاهلم وأكثر متابعهم. ولكن لورنس كان قد بدأ يستغنى عن أكثر ما يحتاجه غيره، وأصبح يفضل المشي على قدميه على ركوب الجمال والخيول، فلم يعبأ بها فقد، ومضى يتمم مهمته، حتى جاءته برقية من كيتشرن بضرورة العودة، بعد أن أخذ الأتراك يتشكّون في أغراضهم. فعاد لورنس مع داهوم إلى حلب بالقطار. ولحقاً بيعتّهم في كارشيمش.

وفي آخر صيف عام 1914، ذهب وولي ولورنس ونيوكومب إلى أكسفورد للإعداد المترافق التي أنموها ووضع تقريرهم. وقد نشر التقرير بعد ذلك باسم «صحراء زين». ويلاحظ أن لورنس لم يعمل في كارشيمش بعد ذلك. وأما وولي، فقد عاد إليه في نهاية الحرب في عام 1919 كضابط سياسي ومنقب عن الآثار. وجدير بالذكر أن حفريات جامعة أكسفورد في كارشيمش قد لقيت نجاحاً كبيراً، وعثرت على آثار هامة. وأثبتت أن المكان الذي عملت فيه البعثة كان العاصمة القديمة للحيشين. وقد نقل أهم ما عثرت به البعثة إلى أكسفورد، حيث شيد فيها متحف خاص حفظت فيه أهم مكتشفاتها، هو المتحف الأشموني بأكسفورد.

### العمل بمكتبة الخزانة بالقاهرة

عاد لورنس بعد انتهاء مهمته في أكسفورد، وقيام الحرب العالمية الأولى، إلى القاهرة. وحاول أن يتطلع جندياً في الجيش البريطاني. ولكن طلبه رُفض، لقصير

قامته خمسة سنتيمترات عن القياس المطلوب وفتقذ. وأما نيكومب وهي، فقد قيلَ تطوعها، وأرسلت إلى فرنسا. ولكنها عادا إلى مصر بعد ذلك: نيكوب إلى القاهرة، وهي إلى بورسعيد. ثم عين السير جيلبرت كلايتون لورنس، بتوصية من هوجارث، في مكتب الخرائط التابع لمكتب الاستعلامات البريطانية في القاهرة. فعمل لورنس ملازمًا ثانياً تحت رئاسة الكولونيال هيدلي. ولكن شخصيته ومعلوماته سرعان ما طفت على شخصية ومعلومات زميليه في المكتب: لوغان وكروشويت. حتى ذكر هيدلي بعد ذلك أن لورنس قد أصبح «يدير المكتب منفرداً». وقد رُقي لورنس في تشرين الثاني / نوفمبر عام 1914 إلى رتبة كابتن.

وقد انحصر علم لورنس في مكتب الاستعلامات البريطانية بالقاهرة في جمع وتحقيق المعلومات المستخدمة في إعداد وتحديث الخرائط والنشرات العسكرية، والإشراف على طبعها في مطبعة الحكومة المصرية ببولاق. فكان عمل لورنس يأخذه من مكتب الاستعلامات بقصر النيل إلى القيادة العامة البريطانية في فندق سافوي بالقاهرة، إلى إدارة الساحة المصرية في الجيزة، إلى مطبعتها في بولاق. وقد خُصصت له دراجة بخارية عسكرية ينتقل بها بين هذه الأماكن. وكانت هذه أولى الدرجات البخارية التي اقتناها لورنس، والتي أخذ يقودها بعد ذلك بسرعة كبيرة تجاوز أحياناً المائة كيلومتر.

وقد تعرف لورنس في القاهرة على المستشرق الإنجليزي وعضو مجلس العلوم البريطاني، أويري هربرت وجورج لويد (بعد ذلك اللورد لويد). وكانت علاقاته بجيبلر كلايتون ورونالد ستورز (السكرتير الشرقي للسفارة البريطانية) قوية.

وكان لورنس يتعدد بكثرة على منزل ستورز لقراءة الكتب اللاتينية والإغريقية في مكتبه وللإستماع إلى عزفه على البيانو. وكان متذوب ببريطانيا السامي في مصر

وقتها مكمهاون، ومنذ أواخر عام 1916، اللورد وينجت. وكان ستورز صوتاً مسموعاً للديها.

وفي شباط / فبراير عام 1915 قام الأتراك بهجومهم غير الموفق على حدود مصر الشرقية. وأسر الإنجليز أعداداً كبيرة من جنود الفرق الخامسة والعشرين الذين جُندوا من المناطق المحيطة بدمشق. فأوكل كلايتون إلى لورنس مهمة استجوابهم. وقد ذكر لورنس بعد ذلك أنه كان يذكر للجندي الذي يستجوبه اسم أحد أبناء الإقليم الذي جاء منه، فيثرث الجندي بكل ما يعرفه من أخبار ومعلومات. وتؤكد هذه الحادثة معرفة لورنس بأبناء وهجات وعادات المنطقة التي عاش فيها في سوريا قرابة أربع سنوات. وقد أكد ستورز أن لورنس كان يعرف، زيادة على معرفته بالعربية، كلمات تركية كثيرة.

كتب لورنس في أحد خطاباته في نيسان / إبريل عام 1915 تعليقاً على سير الحرب وقتذاك:

«المسكينة تركيا. لقد تهلهلت أجزانها، ومع ذلك فإن بعض الناس يتحدثون عن معجزات قامت بها أخيراً، ولكن هذه المعجزات أحق من أن توصف بالكلمات. إن كل شيء عنها مقزز».

وسنلاحظ أن كراهية لورنس لتركيا كانت كبيرة، وقد كره بعد ذلك فرنسا، وأراد حجبها عن أي وجود في الدول العربية.

وفي عام 1915، أشرف لورنس على وضع وطبع دليل عسكري لمنطقة سيناء. ثم أوفده كلايتون في بداية العام التالي، إبريل 1916، في مهمة سرية إلى العراق. وهناك قابل لورنس لأول مرة عميلة المخابرات البريطانية جيرتروود بيل *Gertrude Bell* (1868-1926) التي كانت تعمل مساعدة لرئيس المخابرات البريطانية في العراق السير بيرسي كوكس.

مع أن لورنس قد فشل، كما سيجيء، في مهمته في العراق، وهي محاولة إنقاذ القوات البريطانية المهزومة والمحاصرة في كوت العماره. فإن مقابلته بجيرتروود بيل تعتبر نقطة تحول هامة في حياته. إذ سحر لورنس بحديث جيرتروود بيل. وقضى ساعات طويلة من الأيام التي قضتها في البصرة وهو يستمع إلى حديثها عن «وحدة الدول العربية» وعن ضرورة أن تجمعها بريطانيا، وأن تؤلف لها «حكومة عربية واحدة» تكون خاضعة لها !

وكانت جيرتروود بيل قد نشرت أفكارها هذه في نيسان / إبريل عام 1907 في أهم كتابها «الصحراء والبذر». ثم ردتها في رسالتها الكثيرة والتي نُشرت بعد وفاتها في عام 1927.

وكانت القوات التركية يساعدها بعض الخبراء الألمان قد حاصرت القوات البريطانية في كوت العماره بالعراق. وحاولت القوات البريطانية مراراً أن تخرج من الحصار الذي فرض عليها، من دون أن تنجح في محاولاتها. وتعد على الإنجليز مساعدتها بقوات جديدة من الهند، أو مجرد تزويدها بالذخيرة والأطعمة. ثم فكر الإنجليز في محاولة رشوة قائد القوات التركية كي يسمح للقوات البريطانية بالجلاء عن كوت العماره ! وذهب لورنس مع زميله في القاهرة أويري هربرت وضابط مخبرات آخر يعمل في العراق، هو بيتش، لمقابلة القائد التركي خليل باشا، وعرضوا عليه مليون جنيه ذهبي، رفعوها بعد ذلك إلى مليونين من الجنيهات. ولكن بينما هم يتفاوضون، استسلمت القوات البريطانية المحاصرة للقوات التركية. فقطعوا المفاوضات وعادوا أدراجهم.

وكان لورنس قد عانى خلال رحلته في البصرة من الملاريا، فتعطلت عودته للقاهرة. ثم قام بعد عودته بعدها مهمات سرية، إحداها لتفاوضة السنوسين في ليبيا، وثانية لا يعرف شيئاً عن تفاصيلها لمقابلة «مستر ر» في أثينا !

وفي شباط/فبراير عام 1916، جاء هو جارث إلى القاهرة. وتألف تحت رئاسته، وبالتعاون مع رئيس المخابرات كلايتون «المكتب العربي». وأنطط بالمكتب بحث كل المشاكل المتعلقة بالمنطقة العربية. وما أن مضت أسابيع على ذلك حتى أعلن الشريف حسين الثورة العربية في جزيرة العرب.

وكان الشريف حسين قد أرسل ابنه الأمير عبدالله قبيل بداية الحرب العالمية الأولى إلى السفارة البريطانية بالقاهرة لمقابلة كيتشنر. ولكن كيتشنر رفض أن يقابله، وأحاله على ستورز. فلما قابلته ستورز، أبلغه عبدالله أن والده ينوي إعلان الثورة على الأتراك، ويطلب من بريطانيا أن تزوده ببعض مدافع «دفعية» لمواجهة المدفعية التركية. ولكن ستورز أفهمه أن الحرب بين بريطانيا وتركيا لم تُعلن بعد. وأن تركيا لا زالت «صديقة» لبريطانيا.

وقد استمرت اتصالات الشريف حسين بالسفارة البريطانية بالقاهرة ومثلها في السودان بعد ذلك. ووجد الإنجليز أن الشريف حسين لم يكن يطبع بذهب أو مون أو عتاد حربي، إنما كان يهدف إلى توحيد أكثر من قطر عربي تحت راية عربية. والثابت أن الشريف حسين ومكماهون قد تبادلا حتى بداية 1916 ثمانية خطابات طويلة. وأن مكماهون قد وافقه منذ تشرين الأول/أكتوبر عام 1915 على أكبر أهدافه في سوريا الكبرى والعراق والجزيرة العربية «ما لم يكن بين بريطانيا وطرف آخر معاهدات أو اتفاقات أخرى».

ويقول الدینجتون إن مساعدات الإنجليز في القاهرة والخرطوم للشريف حسين قد بلغت حتى آخر تموز/يوليو عام 1917، أي قبل بداية إشعاله ثورته، 22,000 بندقية و14 وحدة مدفعية وأكثر من 500,000 جنيه ذهبي، من هذه 3,000 بندقية، ووحدتين للمدفعية، وستة مدافع رشاشة جاءته من السودان، مع كميات كبيرة من الشعير والأرز والدقيق والبن. وجدير بالذكر أن المدفعية التي

كانت تُقدَّم للشريف حسين كان يصاحبها على الدوام طاقمها من المصريين وأحياناً السودانيين. وكان على رأس هؤلاء الجنرالات عزيز المصري والسيد علي. وقد عين الشريف حسين الجنرال عزيز المصري رئيساً لأركان حربه.

\* \* \*

وعندما جاءت أخبار الثورة العربية في الحجاز إلى ستورز، أرسل ستورز مذكرة مطولة إلى وزير الحرب وقتئذ، كيتشرن، يطالب فيها بزيادة المساعدات للشريف حسين. فرد كيتشرن على ستورز يطالبه بضرورة ذهابه بنفسه إلى الحجاز. وأعد ستورز إجراءات سفره، وكان لورنس في إجازة، ولكن ستورز قرر أن يأخذه معه. وهكذا نجد مصادفتين غريبيتين في احتلال مصير لورنس بمصير الثورة العربية: الأولى عمله الأنثري في كارشيمش الذي قاده لمهمة رسم خرائط سيناء، ثم العمل بمكتب الخرائط بالقاهرة. والثانية مرفاقته لستورز في زيارته الهامة للشريف حسين بالحجاز.

### احتلال مصير لورنس بمصير الثورة العربية

ذكر لورنس أن سكان الجزيرة العربية كانوا يتلقون وقت اندلاع الحرب العالمية الأولى من ثلاثة أجناس مختلفة. وأن حكامهم كانوا يعتمدون في بقائهم على معونات الإنجليز في الهند (كما في الكويت والبحرين وعمان) أو الإنجليز في القاهرة (عسير) أو الأتراك (اليمن) أو الألمان (قبيلة ابن سعدون). وأنه عندما قامت الحرب، ثار حاكم عسير، ابن علي الإدريسي، على الأتراك، وقطع خطوط إمداداتهم إلى اليمن. وأما حاكم الحجاز في هذا الوقت، الشريف حسين، فقد رفض إعلان الثورة عليهم، وفضل اتخاذ موقف الانتظار حتى يعود إليه ابنه الأمير فيصل، رهين الأتراك في دمشق، ويزوده الإنجليز بكفایته من الأسلحة والمؤن والنقود.

وكان للشريف حسين بن علي أربعة أبناء، هم علي وعبدالله وفيصل وزيد. وكان فيصل يعيش في دمشق، رهيناً للأتراك، على عادتهم مع أبناء حكام الأقاليم. وكما سبق أن احتفظوا بالشريف حسين نفسه في استانبول حتى عام 1909.

وكان الشريف حسين يبذل جهد في هذه الأثناء في الاستعداد لإعلان ثورته. وقد أوصى ابنه فيصل بأن يتصل سرًا بالزعماء العرب في سوريا، استعداداً لل يوم الذي تقوم فيه ثورته، فينضم إليها هؤلاء الزعماء. وكان فيصل يوثق علاقاته بهؤلاء الزعماء، في الوقت نفسه الذي يتظاهر فيه بتأييد الحاكم التركي في دمشق، جمال باشا، في تكيله البعض بهؤلاء الوطنين.

وفي عام 1916، وجد الشريف حسين أن الفرصة قد حانت لقيام الثورة. فإن تركيا كانت قد سحبت أعداداً كبيرة من جنودها في الدول العربية لمواجهة الموقف المتدهور على الميدان الروسي. وكان الإنجليزي قد بدأوا مساعدتهم، ووعدهم بالمزيد بعد إعلان ثورته. وقد أكد له حاكم السودان الإنجليزي أن بريطانيا «ستضمن بعد الحرب استقلال جميع الأماكن الإسلامية المقدسة». ووعده المتذوبان الساميان في القاهرة، مكماهون، ثم ونجيت، بأنه «إذا ثار العرب على الأتراك، فسيصبح لهم عند انتهاء الحرب دولة عربية موحدة ومستقلة».

ويلاحظ أن هذه الوعود كانت بعض حلقات في سلسلة طويلة من الوعود البريطانية، المتنافة أحياناً، والتي قدمها المسؤولون البريطانيون للعرب ولغيرهم. وأنه في الوقت الذي مدّ فيه هؤلاء المسؤولون في القاهرة والخرطوم يد صداقتهم للشريف حسين، قدم المسؤولون الإنجليز في الهند يدهم هم أيضاً لمنافسه ابن السعود.

\* \* \*

وفي بداية حزيران/يونيو عام 1916، أرسل الشريف حسين لابنه الأمير فيصل سرًا بأن يجمع أعونه وينخرج بهم من دمشق. وأرسل ابنه الأكبر علي لمقاومة شيوخ القبائل في المدينة المنورة لتشكيل جيش قوي منهم. ثم قاد بنفسه الهجوم الذي شنه رجاله على مكة المكرمة. وقد ابناه فيصل وعلى هجوماً آخر على المدينة المنورة.

وقد نجح الشريف حسين في 5 حزيران/يونيو عام 1916 في مbagatة القوات التركية المدافعة عن قلاع مكة فوق تلاتها الثلاث. فاستولى على التلال الثلاثة. ثم دخل مكة المكرمة من أبوابها. وسيطر على الأسواق، ودور الحكومة، والمسجد الحرام. ثم أعلن، في 10 حزيران/يونيو، بداية الثورة العربية. ويقال إن ما عجل بهزيمة الأتراك في مكة اعتدائهم خلال القتال على مبني الحرم الشريف، مما جعل أهالي مكة يتضمنون لرجال الشريف حسين في قتاله لهم.

ثم توجهت قوات الشريف حسين إلى جدة، فحاصرتها بمساعدة البحرية البريطانية. واستولت عليها بعد خمسة أيام فقط. وقد أسر في هذا الهجوم أكثر من 1000 جندي تركي، وغنمته مدافعهم وعتادهم، وحضر الكولونيل ويلسون الحاكم الإنجليزي لإقليم البحر الأحمر بالسودان إلى جدة بعد وقوعها في أيدي الشريف حسين فأقام فيها مستشاراً.

وأما الأميران فيصل وعلي، فلم يلاقيا النجاح نفسه الذي لاقاه والدهما. فقد تنبأ المدافعون الأتراك مبكرين إلى الهجوم على المدينة المنورة، فانسحبوا بقيادة فكري باشا إلى داخلها. وتمكنا خلف أبوابها وأسوارها. وقدر الأتراك أن وجود قبر النبي بالمدينة سيمنع العرب عن محاولة ضربها بالمدافع أو اقتحامها عنوة.

فلما عجز فيصل وعلي عن الاستيلاء على المدينة، اكتفيا بمحاصرتها لها. ثم عمدا إلى الخط الحديدي الذي يربطها بدمشق فخرابوا جزءاً منه. ولكن القوة التركية

الكبيرة في داخلها أخذت تستعد لحصار طويل. واحتاطت لنقص الأغذية. فعمدت إلى سكان المدينة فأخرجت منهم حوالي 30,000 إلى الصحراء! ثم أخذت تخرج إلى قوات الشريف المحاصرة لهم، فتهاجمهم. حتى اضطرت هذه القوات إلى التراجع عن المدينة إلى التلال الجنوبية، والواقعة على بعد حوالي 50 كيلومتراً منها. واستطاع الأتراك بعد ذلك إصلاح الخط الحديدى الذى يربط المدينة بدمشق، وأخذوا يجلبون الرجال والعتاد والمؤن إليها.

ومع أن قوات الشريف حسين استطاعت أن تختلي بنينه وراغب، وأن تأس فى عملياتها أكثر من خمسة آلاف جندي تركى، وتغنم عتاداً كثيراً، فإن الذخيرة كانت قد تناقصت بين أيديهم، و«حماس رجال الصحراء قد تبدد».

وكان من رأى الجنرال موراي، قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، أن رجال الشريف حسين يفتقرن إلى التدريب والتنظيم، وألا فائدة تُرجى من مساعدتهم. ولكن كلايتون ومساعده ستورز، كانا يريان ضرورة أن تقدم بريطانيا لهم كل ما تستطيعه من مساعدات.

\* \* \*

وفي تشرين الأول / أكتوبر عام 1916 استقل ستورز ولورنس سفينة حربية بريطانية من ميناء السويس إلى جدة. وقابل الأمير عبدالله. وقد ترك هذا اللقاء أسوأ انطباع في نفس الزائرين. فقد وجداه «فتى رغداً، عباً للهؤ والهذر»! وقد أتحى عبدالله بلازمة هزيمة القوات العربية على البريطانيين، لأنهم «لم يقدموا المعونات الكافية، ولم يقطعوا عند هجوم الماشميين سكة حديد الحجاز». وذكر الأمير عبدالله أنه فكر في الاستيلاء على الحجاج الذاهبين إلى الحج في مكة رهائن، حتى تلبي الحكومة التركية مطلبه بالجلاء! وطالب بإنزال قوات بريطانية في ميناء رابغ لمساعدتهم.

وقد رد ستورز على كلام الأمير عبدالله، بأن والده، الشريف حسين، هو الذي طلب عدم تدمير الخط الحديدي، حتى تستخدمه قواته في الهجوم على دمشق. وقال إن القوات البريطانية في مصر قليلة، ووسائل النقل غير متوافرة، ولا يمكن مساعدة قوات الشريف حسين بأية جنود بريطانيين

ثم طلب لورنس مقابلة الشريف حسين. فاتصل به الأمير عبدالله تلفونياً في مكة المكرمة. ولكن الشريف حسين رفض مقابلة لورنس. ثم وافق، بعد إلحاح ستورز، على أن يقابل لورنس الأمير فيصل في وادي صفرا، على بعد حوالي مائة كيلومتر جنوبى المدينة المنورة.

#### الاستيلاء على ميناء وجه

توجه لورنس، ومعه ستورز، بالبحر من جدة إلى ميناء رابغ. وكان الأمير زيد في استقبالهما بالميناء. ثم استمر ستورز في رحلته إلى القاهرة. بينما صحب الأمير زيد لورنس إلى منزله، فسلم له عباءة عربية، طلب إليه أن يرتدتها. وفي المساء، أركبه جملًا، وأرسل معه الشيخ سالم حرب إلى مقر الأمير فيصل في قرية الحمرا بوا迪 صفرا، على بعد 170 كيلومتراً من رابغ.

وقد وصل لورنس ورفيقاه إلى مقر الأمير فيصل عصر يوم 23 تشرين الأول / أكتوبر عام 1916. وبقيا معاً يتحادثان، ويتباسطان، ويأكلان، ويستريحان، حتى عصر اليوم التالي. وقد زارا معاً بعض وحدات الجيش، وتفقدا الفرقة المصرية التي أرسلها حاكم السودان. وارتاح كل منها للآخر. ووجد لورنس أن فيصل كان «مثقفاً، وكريهاً، وصريحاً». وقد أعد لورنس قائمة مكتوبة باحتياجاته من الأسلحة والمؤن والأموال. ثم انتظر حتى هبوط الظلام، قبل أن ينطلق مع 14 من خدم فيصل الأقوباء عائداً إلى ميناء بنبع. وقد أوصاهم فيصل قبل رحيلهم بـألا يتوقفوا،

أو يتحدثوا إلى أحد. وكان يفكر على الخصوص في أبناء قبيلةبني حرب المتشرين في المنطقة. وكان بعضهم قد انضم إليه، وبعضهم الآخر لا يزال يعمل - إن لم يكن في العلن ففي السر - للأتراك!

وفي ميناء بنع، بقى لورنس بانتظار سفينة تنقله إلى القاهرة حتى أول تشرين الثاني / نوفمبر، حين سمع أن الجنرال وينجيت، الذي كان لورنس سيقدم إليه تقريره، قد عاد إلى مقر قيادته في الخرطوم. وعرض عليه الأدميرال ويميس، قائد القوات البحرية، أن يأخذه معه إلى الخرطوم. فوافق لورنس، وذهب على إحدى سفنها إلى بور سودان. ثم قابل وينجيت في الخرطوم.

وعندما استمع وينجيت إلى تقرير لورنس، لم يوافقه على رأيه في ضرورة ترك الأمور للعرب أنفسهم، والاكتفاء بتزويدهم بالسلاح. وأيد موقف المستشار الفرنسي في جدة الكولونيل بريموند، في ضرورة إرسال جنود إنجلتراز وفرنسيين إليها، للقيام بدور أكثر فعالية في محاربة الأتراك. وكان لورنس، في كراهيته الصريحة للأتراك، والتزايدة للفرنسيين، ورغبته المستترة في تركيز الضوء على العرب وخلق دور فعال لنفسه في قيادتهم، يقول إن «رجال القبائل العربية سيتحولون عن الحرب إذا رأوا جنوداً أجانب بين ظهاريهم».

وقد عاد لورنس بعد مقابلته لفينجيت إلى القاهرة، وحاول أن يقنع الجنرال موراي، قائد القوات الإنجليزية، والجنرال ليندون بيل، رئيس أركانه، بالاكتفاء بإرسال الأسلحة والمؤن والأموال. وكان كلام لورنس يرافق للرجلين، لقلة الرجال والسفن بين أيديهما. فوافقا على بدء ترتيبات إرسال الأسلحة والمؤن للشريف حسين، وترك إرسال أية قوات مؤقتاً. واختير بعض الضباط البريطانيين لمرافقه الأسلحة وتدریب العرب على استخدامها. ثم أمر كلايتون لورنس بأن يعود فوراً إلى مقر قيادة فيصل في الحجاز كضابط اتصال بينه وبين القوات البريطانية.

ويقال إن لورنس قد احتاج على هذا الأمر. وذكر لكيلايتون أن هذه مهمة رجل عسكري، وليس مهمته كرجل مخابرات. ومهما كانت الحقيقة، فقد انصاع لورنس لأمر كلايتون، وبارح القاهرة من فوره إلى ينبع، فبلغها في 21 كانون الأول / ديسمبر 1916 بادئأً عمله كضابط اتصال مع ثورة الشريف حسين العربية. وجدير بالذكر أن اتصال لورنس بالقاهرة ظل يتم عن طريق المكتب العربي حتى حل الجنرال الليبي محل الجنرال موراي في قيادة القوات البريطانية، فأصبحت اتصالات لورنس بالجنرال الليبي مباشرة معه.

\* \* \*

وكان قوات فيصل قد مُنيت قبيل عودة لورنس إلى ينبع في أواخر كانون الأول / ديسمبر عام 1916، بهزيمة قاسية، انهارت بسببها معنوياتها. فإن فيصل كان يستعد لهاجمة المدينة المنورة، حين بادرته القوات التركية الموجدة فيها بهجوم خاطف، شتتت خلاله قواته. وأسرت شقيقه الأصغر الأمير زيد. وهربت قلول القوات العربية إلى ميناء ينبع، محتمية بمدفعية السفن الحربية البريطانية الراسية فيه. وقد تعقبت القوات التركية القوات العربية حتى أبواب الميناء، ولكن السفن البريطانية صوبت أنوارها ومدافعتها إليها. فلم ت berhasil القوات التركية على تخفيض أبواب الميناء، ووقفت راجعة إلى المدينة المنورة. ومن بين المعلقين العسكريين من يعتبر لحظة نكوص القوات التركية عن هاجمة ينبع لحظة عار لقوادها، ونقطة تحول في مسار الثورة العربية. ويظنون أنه كان بإمكان الأتراك يومئذ أن يقضوا على الثورة العربية قضاء مبرماً.

وكان فيصل قد مآلَ منذ لقائه بلورنس إليه، ووثق فيه. وقد حاول لورنس أن يبيث فيه الشجاعة بعد انتكاس قواته. وأخذ يتفقد قواته معه، ويزور معه القبائل، ويجلس خلال أحاديثه بعد صلاة العشاء مع معاونيه. وبدأت الأمور تتحسن.

ونجح فيصل في ضم قبائل جديدة إلى ثورته. وكان من انضم إليها بعد وصول لورنس الشيخ عودة، الابن الأكبر لزعيم الحويطات الشيخ الشعلان.

وكان الجنرال وينجيت وجورج لويد وبريموند قد قرروا في اجتماع عقدوه بالخرطوم في أواخر عام 1916، ضرورة الاستيلاء على ميناء العقبة. وقد كان من الضروري قبل هذا أن تستولي القوات العربية على ميناء وجه. ورفض فيصل أن تترك قواته ميناء ينبع حتى يتعهد له الإنجليز بالدفاع عنها من البحر. ولما تم له هذا، ترك بعضاً من قواته فيها تحت قيادة الأمير عبدالله، وخرج شهلاً بمحاذاة الساحل لتنفيذ خطة الكولونيال ويلسون في مهاجمة ميناء وجه من البر، بينما تهاجم قوات عربية وبريطانية الميناء من البحر. وتحدد يوم 23 كانون الثاني / يناير عام 1916 موعداً للقاء القوتين في ميناء وجه.

يقول لورنس:

«بدأت مسيرتنا منذ تحركنا من ينبع رائعة. فقد أخذ الرجال ينشدون الأناشيد الحماسية بأصواتهم التي كانت تدوى وتجمل في السماء...»

وكانوا لا يغفلون، في أناشيدهم، عن مدح الأمير فيصل، معددين حسناته وحسنات رجال أسرته. وكان فيصل يسير في الطليعة. وإلى يمينه الشيخ شرف متسللاً بعباءة بنية وملتحقاً بكوفية حمراء. وكانت أنا أسير إلى يساره. وقد ارتديت عباءة بيضاء اللون وتنقطت بحزام أحمر. وكان يسير خلفنا ثلاثة رجال من حلة البيارق الكبيرة الحمراء. يتبعهم حملة الطبول الذين أخذوا يقرعونها في دقات موسيقية منتظمة. وخلفهم أكثر من اثنى عشر ألف مقاتل. فيا للروعـة! إن لك أن تتصور مشهد اثنى عشر ألف رجل يسيرون بجهائهم في صفوف عريضة متظاهرة على وقع الدقات. الحقيقة أن مشهدنا كان يستثير الحماسة في النفوس ...»

وقد قطعنا حوالي نصف المسافة دون أن يفقد موكبنا شيئاً من جلاله وحاسته ونظامه. ثم ازدادت تلك الحماسة عندما علم الرجال باستيلاء بعض قوات الأمير عبدالله، التي تتغلب خلف خطوط العدو قرب المدينة المنورة، على قافلة تركية كانت تنقل عشرين ألف ليرة ذهبية. وتعاظم سرورهم وحماسهم عندما عرفوا أن قائد القافلة الذي وقع في الأسر، شرف بك التركي، كان من المقامرين المشهورين الذين عملوا لحساب الأتراك في طول البلاد وعرضها. وإنه كان مفظوراً على أعمال السلب والنهب. وأنه كان قد اشتراك في ثورة ضد السلطان، ثم قبض عليه ونفي من البلاد زهاء خمس سنوات، قبل أن يعود للعمل للسلطان. ثم استخدمه بعد ذلك أنور باشا أثناء ثورة منظمة تركيا الفتاة ضد السلطان. وحكي البعض عنه أنه قد اختطف ذات مرة أحد أبناء حاكم تركي، وهرب به إلى الجبال، رافضاً أن يعيد الطفل إلى ذويه حتى يدفعوا له 500 جنيه. وذكر أنه قد اشتراك في محاولات كثيرة للسلب والنهب وفرض الاتاوات على القوافل التي كانت تقطع الصحراء. وعندما قامت الحرب العالمية، كان يفكر في الكف عن أعماله الإجرامية، ولكن السلطات العثمانية استقدمته لتنفيذ خططاتها التخريبية. وهابه القدر الآن يتقمّ منه لدماء الأبرياء الذين فتك بهم ظلماً وعدواناً، فيوقعه أسيراً بأيدي قوات الأمير عبدالله».

وتغير لهجة لورنس في وصف المسيرة بعد ذلك، فيتحدث عن الشمس الحارقة، والعطش، والذباب. ثم يقول:

«ثم أصبح الرمح غوغائياً وبربرياً. وخطوطات الجبال الالتي عشر ألفاً غير منتظم، تضرب الرمال بخفافتها على سجيتها، وعلى ظهورها راكبوها يلبسون أشكالاً شتى من الملابس، ويتحادثون ويتصالحون في مختلف المواضيع. وامتلاً الوادي بالرجال والجمال المتناثرين فيه من غير نظام حتى كاد يفجّر».



وقفت السفن الحربية البريطانية في 23 يناير عام 1917 تجاه ميناء وجه، وعلى ظهرها أربعمائة جندي عربي ومائتي جندي بريطاني من جنود البحرية البريطانية. ولم يكن هناك أثر لقوات فيصل ولورنس. وأخذ القائد الإنجليزي يتدارس الموقف. ثم قرر أن يهاجم المدينة منفرداً. ولم يكن داخلها غير 500 تركي فاستولى عليها في ساعات. وأسرت قواته أكثر الجنود الأتراك، وفر الباقون إلى الصحراء. ثم ظهرت طلائع فيصل ولورنس على أبواب المينا. ويقول الدينجتون أنهم كانوا يحاولون الاتصال بالقوات المحمولة بالبحر لتأجيل الهجوم على المدينة حتى تصل بقية القوات الزاحفة إليها. ولكنهم وجدوا المدينة قد سقطت في أيدي زملائهم، فدخلوها فرحين ومبهلين.

### دور لورنس في الاستيلاء على العقبة

تراجععت القوات التركية في شبه الجزيرة العربية بعد الاستيلاء على وجه إلى المدينة المنورة ومعان وتبوك وبعض النقاط على امتداد خط سكك حديد الحجاز. وكان من رأي المستشار الألماني، ليهان فون ساندرز، سحب هذه القوات، والانتفاع بها في أماكن أخرى. وكان لورنس يتفق معه في فائدة هذا الرأي للأتراك. ويرى في تركها في أماكنها مصلحة لبريطانيا. ولكن الحقيقة أن هذه القوات التي كان يتجاوز عددها خمسة وعشرين ألف جندي تركي، كانت تعطل أيضاً 20000 مقاتل هاشمي، و600 جندي نظامي بقيادة جعفر باشا. وقد استمرت قوات الجانبيين، معطلة في أماكنها، حتى أصبح وجود القوات التركية في الحجاز يهدد منذ سبتمبر عام 1918، جناح قوات الجنرال اللنبي المهاجمة لفلسطين. فأصبح من الضروري التخلص منها وهاجها المهاشميون. واستسلم لهم وقتذاك 14000 جندي في المدينة و7000 في معان و5000 في تبوك.

وأما لورنس، فقد سافر بعد سقوط وجه إلى القاهرة، للأعداد للهجوم على العقبة. وقبل أن يعود إلى وجه، كانت الأسلحة والمؤن والأموال قد أخذت تتدفق بغير حساب على مركز قيادة فيصل. وكان ما أرسل له وقتئذ محطة إذاعية كاملة وعشرات المدافع والمصفحات. ثم أصيب لورنس بديزنتاريا حادة، وأخذ يعاني من الإسهال وانثناء الدمامل. فقبع أسبوع في مسكن الأمير عبدالله يتضرر. ولكنه أخذ، منذ أواخر مارس عام 1917، يهاجم خطوط سكك حديد الحجاز. ثم قسم فيصل القوات التي تحت إمرته إلى وحدات، وأعطى لورنس واحدة منها. وقد خرج لورنس بوحدته في بداية شهر مايو من ذلك العام لمهاجمة خطوط السكك الحديدية إلى الشمال الشرقي من وجه. وكان معه الشريف ناصر والزعيم السوري نصيب البكري. ثم انضم إليهم الشيخ عودة وبعض رجاله من قبيلة الحويظات. وقامت الوحدات الأخرى بحماية مينائي وجه وجدة، أو قطع طرق الأتراك، أو بدء محاصرة العقبة.

وقد نسف لورنس ورجاله خط السكك الحديدية المار شمال شرق وجه، ثم عسكروا أياماً على أرض قبيلة أولاد علي، قبل أن يتقدموا ناحية عمان، ثم تدمر ودمشق ودرعا. وقد اتصلوا أثناء تقدمهم برجال القبائل والوطنيين السوريين. ونسفوا ما استطاعوا نسفه من قصبان وقطارات وجسور. فلما بلغوا حدود حصن، هبطوا منها جنوباً إلى منق.

وقد اشتهر عن لورنس بعد ذلك أنه قد حطم (25 قطاراً و 15000 قضيّاً حديدياً و 57 جسراً). وهي إنجازات عدّها الدينجتون مبالغ فيها.

ثم توجه لورنس بعد ذلك إلى آبار باير. وهناك أخذت قوة تركية كبيرة في مطاردهم. ولكن لورنس استطاع أن يغدر بها، وأن يحاصرها عند قرية أبو لسان على بعد حوالي 20 كيلو متراً من معان. والغريب أن القوة التركية (وقد وصفت

بأنها كانت تتألف من أحداث حديسي التجنيد) لم تحاول الإفلات من الحصار، وقتل جميع أفرادها أو استسلموا لقوة لورنس خلال الساعات الائتى عشر التي استغرقتها المعركة.

وفي هذه الأثناء كانت كتيبة من الجنود الأتراك قد هاجمت بعض خيام الحويطات، فتألبت عليها أفراد القبيلة وهاجروها، واستطاعوا أن يقضوا عليها.

وكان لورنس قد أخذ يهبط على العقبة من الشرق. وقد انضمت إليه في مسيرته قوات عودة على بعد خمسين كيلومتراً منها. ثم بدأوا في تنظيف المنطقة المحيطة بالعقبة من الأتراك المتشرين حولها.

وكان الأتراك يتظرون أن يتم الهجوم على العقبة من البحر. فان الأسطول البريطاني كان يحاصرها منذ نهاية عام 1915. وقد سبق أن أنزل طراد فرنسي في شباط/فبراير عام 1916، ثم مدمرة بريطانية في نيسان/إبريل عام 1916، رجاهم إليها. فدمروا منشآتها، وأخذوا معهم بعض الأسرى الأتراك. وقد أخل الأتراك المبناه في المرتين. ولكن الفرنسيين، ثم البريطانيين، كانوا ينسحبون منه إلى سفنهم. ولم يكن الأتراك يجدون جدوى، أمام قوة الأسطولين الفرنسي والبريطاني، من الدفاع عن العقبة من البحر، وينشرون قواتهم في المناطق الصحراوية الواقعة حولها. فلم يكن يوجد داخل العقبة عند هجوم فيصل ولورنس عليها غير ثلاثة جندي تركي.

وكان يرافق قوة لورنس، عندما انتهت من تنظيف المنطقة الواقعة شرق العقبة، حوالي 500 بدوى من رجال عودة. وقد وجدوا أمامهم فرقة كاملة من الأتراك تساندها مدعيتها. ولكن عودة باغت الفرقة التركية بالهجوم عليها من جانبها، وتصدى لها لورنس ورجاله من الصدر، متدفعين إليها من فوق تل مرتفع. وقد انتهت المعركة بقتل ثلاثة من رجال الفرقة التركية، وهرب أو استسلم الباقيون.

وتجدر بالذكر أن عودة ورجاله قد أبلوا في هذه المعركة بلاءً حسناً، وأن عباءة عودة الواسعة اخترقها خلال القتال ست رصاصات تركت فيها ثقباً واضحة. وأما لورنس، فقد أفلت منه زناد المسدس الذي كان يشهره، فأصاب رأس الجمل الذي يركبه برصاصة! وألقى الجمل المتروع، عندما أصابته الرصاصة، بلوارنس إلى الأرض، فوقع مغشياً عليه!

\* \* \*

وقد استسلم لقوات عودة ولورنس بعد هذه المعركة أكثر الأتراك المتشرين حول العقبة، وهرب الباقيون في الصحراء. وأما بقية القوات العربية المتقدمة نحو وادي عتم، فقد وجدت أن القوة التركية في العقبة لا تزيد عن ثلاثة جندي، تنصتهم المؤن والذخائر. فأرسلت إليهم تتصحهم بالاستسلام. وقد استمهلهم قائد القوة يومين، إذا لم تبلغه خلالها النجدة، استسلم إليهم من دون شروط. وقد وافق لورنس على ذلك. ودخلت قواته ميناء العقبة بعد انقضاء اليومين، فوجده في دمار وخراب كاملين.

وكان على لورنس أن يجد المؤن العاجلة لقواته، والأهالي المبناء، والأكثر من 1500 أسير (بينهم عدة مئات من الضباط الأتراك وبعض المستشارين الألمان) وقعوا بين يديه. وفي 8 تموز / يوليو عام 1917، ترك لورنس عودة يكمل احتلال المرتفعات المحيطة بالعقبة، والشريف ناصر يفرض سيطرته على الميناء، واعتل هر جلاً، انطلق به إلى قناة السويس، على بعد حوالي 250 كيلومتراً من العقبة. بلغ شاطئ القناة في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم 10 تموز / يوليو. ولم يجد أحداً حوله. ولكنه عشر بكشك تليفوني تحدث بواسطته إلى السويس. وكانت المدينة مهجورة لانتشار الطاعون بها. ولكنه داوم الاتصال حتى أجابه فيها أحد العمال. ثم أرسل له قارب عبر به القناة.

وقد دخل لورنس السويس بعد 49 ساعة من مبارحته للعقبة. ثم استقل القطار إلى الإسماعيلية. وهناك التقى بالأدميرال ويسيس، ونقل إليه أخبار سقوط العقبة، وحاجة الجنود والأهالي والأسرى إلى الطعام. وقد أمر ويسيس بإرسالها فوراً.

وفي القاهرة قبيل لورنس بترحاب كبير. وكان الجنرال اللبناني قد حلّ محل الجنرال موراي، بعد فشل المجموع البريطاني الثاني على غزة. وكان اللبناني رجلاً عالياً ومثقفاً. وعضو بجمعية علوم الحيوان البريطانية. وقد مات اللبناني للورنس منذ بداية تعرّفه به. ولكن رأيه فيه كان معقداً. فلم يُعرف، كما قيل عنه «كم في أعمال لورنس من الجد وكم فيها من التهريج». ولكنّه اعتبر ما قام به في العقبة بطولة ورقاه إلى رتبة ميجور. ثم رشحه بعد ذلك لوسام الحمام البريطاني. وأهداء الفرنسيون صليب الفرسان.

وقد ذكرنا فيها سبق أن قوات البحرية الفرنسية والبريطانية كان قد سبق لها احتلال العقبة. وأن احتلال الميناء قد تقرر في مؤتمر الخرطوم عام 1916. ولكن أنطونيوس يعارض ما قررناه، ويقول إن احتلال الميناء كان من تفكير وجهد الشيخ عودة وأبناء قبيلة الحويطات. يقول أنطونيوس:

«إن زعم لورنس أن الاستيلاء على العقبة كان من اقتراحه وجهده يغير المؤرخ. إذ الثابت من وجهة النظر العربية أن الذي اقترح الاستيلاء عليها لفيصل هو عودة في لقائهما في وجه. وقد أحبط لورنس وقتها بالاقتراح. ثم وافق عليه فيصل. وأما الذي استولى على العقبة فهو دون شك أحد آخر. وأما الشريف ناصر ولورنس فقد رافقا عودة واشتركا معه في بعض القتال، ولكنّهما لم يقوداه ولم يكونا مستشارين فيه».

قضى لورنس أكثر الأسابيع التالية على سقوط العقبة في القاهرة والإسكندرية يحاول، من دون أن يوفق، أن يظفر بموافقة القيادة العسكرية البريطانية على أن يصبح مثلاً عاماً لها في الحجاز. وعلى أن يقصر مساعداتها على الأمير فيصل، من دون شقيقه علي وعبدالله. ولكن النبي رفض طلبه، وإن وافق على تزويده بأعداد أكبر من المدافع والمصفحات. وأرسل إليه نصف مليون جنيه من الذهب. ثم أكد النبي على لورنس قبل سفره ضرورة نقل عملياته التخريبية على السكك الحديدية والجسور إلى شمالي سوريا قبل بدء الهجوم البريطاني آخر الصيف على فلسطين.

وكان لورنس قد أصبح منذ عودته على العقبة أكثر انطلاقاً في أحاديثه وعلاقاته مع العرب. فكان يخرج في مقدمة مواكبهم واحتفالاتهم. ويجلس بالساعات للحديث معهم، ويُسرِّه الليل ببطوله في شرب القهوة مع شيوخهم. وقد ألف حرساً خاصاً من بينهم، تراوح عدده بين 20 و40 بدويأً. وجعل على رأسه أحد البدو المخلصين له، وهو الشيخ عبدالله أبو صالح. وقد ضم لورنس إلى هذا الحرس الصبي الجميل داود ورفيقه ابن الصحراء الخشن فراج.

وكان داود «الجميل، دقيق التكوين، ذو الوجه الناعم والرقيق، والعيون السابحة» ورفيقه فراج، قد تقدما للانضمام لقوات الثورة العربية. لكن الشريف ناصر رفض انضمامها. «فركع فراج على قدميه في ذلة واستكانة» راجياً قبولهما. ولكن لما أصر الشريف على رفضهما، قبلهما لورنس ضمن حرسه الخاص، لأنه رآهما «أحداثاً وأبرباء».

وكان أفراد حرس لورنس يرتدون الأرواب المزركشة، ويتمنطقون بالختاجر، ويحملون البنادق السريعة الطلقات. وكان لورنس يلبس عباءة وسروراً فأضافاً من الحرير الأبيض. ويوضع على كتفيه كوفية صوفية مذهبة، وعلى رأسه عقالاً من

الحرير المذهب. وقيل إن ملابسه كانت محللاً بها يوازي 50 قطعة من الذهب الم世人ور، وخنجره بها يوازي 150 قطعة منه. وقد باع لورنس هذا الخنجر عندما عاد إلى إنجلترا في عام 1918 وأبتنى كوخاً بسيطاً في دورسيت كما سيجيء.

ولم يكن حرس لورنس يتلقى أمراً من أحد سواء، وقد أطلق عليه رفاق لورنس من الإنجليز اسم «قاطعوا الرقب».

\* \* \*

وكان لورنس قد سمع وهو في القاهرة أن الشيخ عودة يتصل سراً بالأترارك، ويفاوضهم في الانضمام إليهم لمحاربة الإنجليز. فلما تقابل لورنس معه، صارحه بها سمع، ولكن عودة أنكر الاتهام. وقد تجاهل لورنس عودة بعد ذلك. ولم يعد يخفى كراهيته له. ويقول عنه إنه لا يهتم إلا لجمع الزوجات الصغيرات السن. وعندما وجد أنه قد استأثر بأكثر الأموال التي حصل عليها من الإنجليز لتوزيعها على رجال قبيلته، لم يجادله في الأمر، ووزع على الرجال الغاضبين أموالاً جديدة. وقد تنكر عودة بعد ذلك لفيصل ولورنس. ولكن ولائه للأترارك لم يستمر طويلاً، فقد عاد وانضم لفيصل عندما تقدمت قوات الأخير في سوريا.

وكان رجال القبائل العربية غير راضين عن فكرة نقل جهادهم للأترارك من أراضيهم بالحجاز إلى الأراضي السورية. وربما تأثروا في هذا بدعایات الأترارك ضد الإنجليز والفرنسيين». ويلاحظ أن روسيا كانت قد خرجت في هذه الأثناء من الحرب العالمية الأولى، وسلمت حكومتها الشيوعية الجديدة إلى تركيا نصوص معاهدة سايكس بيكيو السرية والمعقودة في أيار / مايو 1916 بين الحلفاء. وكانت هذه المعاهدة تتنص على أن تقسم ممتلكات تركيا بعد الحرب على الحلفاء. تحصل

إنجلترا على العراق، وفرنسا على سوريا، وروسيا على الدردنيل، وإيطاليا على أزمير. وعلى أن تقسم فلسطين بين إنجلترا وفرنسا وروسيا.

وقد وجد لورنس أن أفضل ما يمكن أن يفعله في تلك الظروف هو أن يعاود هجماته على تجمعات الأتراك، ويقطع خطوط إمداداتهم بتدمير السكك الحديدية والجسور. وكان رجال القبائل العربية الموالية لفيصل يفرون بتلك الهجمات، وينجدون في النهب الذي يعقبها ما يشغلهم ويرضيهم. وكان لورنس، ومساعده الضابطان لويس وستوكس، يضعون المفرقات تحت خطوط السكك الحديدية، ثم يفجرونها عند مرور القطارات. ويطلق رجال القبائل مدافعهم وبنادقهم على القطار المنسوف من المرتفعات المحيطة، ثم يهبطون عليه، ويظفرون منه بما يجدون فيه. يقول لورنس عن الهجوم على قطار من هذه القطارات جرى عند وادي المدورة:

«وعندما نُسف القطار، وقضت مدافع المورتر والبنادق على كل مقاومة تسبّع فيه، جن الأعراب حبوراً، وراحوا يتراكمون نحوه بأقصى سرعة شبه عراء، وحاسرو الرقوس، يت صالحون، ويضربون بأيديهم وأرجلهم في الماء، ومتضاربين فيما بينهم أحياناً. ثم أعملوا السلب والنهب فيها بقى من عربانة. وخلوا منها كل ما وجدوه من سجاجيد، ومفروشات، وأغطية، وملابس، وساعات، وأدوات طهي، وأغذية، وأسلحة. وكانت أثناء تفتيشهم لعربات القطار المنسوف، يقذفون بها لا يجدون فيه نفعاً إلى الماء. ويكونون ما يجدونه مناسباً على جانب الخط الحديدي. فإذا انتهوا من عملهم، وضعوا ما انتقوه على جاهم، ثم اختفوا في الصحراء».

وقد تقدم لورنس وأعوانه شهلاً في خريف عام 1917 إلى اليرموك. ولكنه جُرح في فخذه برصاصة تركية في تشرين الأول/أكتوبر من ذلك العام. ثم استطاع أن ينسف في الشهر التالي الجسر بين درعا وبحيرة طبريا. وفي هذه الأونة انضم الأمير عبدالقادر الجزائري إلى قوات فيصل. وكانت عائلته تعيش بعد تفريها من

الجزائر في سوريا، وتعلن مكافحتها للاستعمار. وعندما بلغت حملة لورنس في الأسبوع الأخير من تشرين الأول/أكتوبر الأزرق، انقلب كما سبق أن أشرنا، الشيخ عودة على فيصل، وأعلن انضمامه للأترارك. وقد اتصل به لورنس مبلغاً باهظاً يستميله إلى صفه مرة أخرى. ولكن عودة اشترط أن يدفع له لورنس مبلغاً باهظاً من الذهب. وكان أبناء قبيلةبني صخر قد انضموا لفيصل، واستقبلوه في أراضيهم استقبلاً حسناً. ثم انضم إليه أبناء قبيلة السراحين. وذكر له بعضهم أن نصف جسر الأزرق سيكون غاية في الصعوبة، لافتظاظ المنطقة بالأترارك.

ثم علم لورنس أن الأمير عبدالقادر قد تركهم للانضمام للأترارك. وقرر أن يسع بمحاولة نصف الجسر، قبل أن ينبه عبدالقادر الأترارك إلى خطة لورنس. ولكن حرس الجسر تنبهوا للهجوم، وأصيب لورنس في وجهه، وأسرع مع من معه بالفرار. وفي طريق عودته، انضم لدورنس بعض أبناء قبيلة الحرادين، واستطاع لورنس في تراجعه أن ينصف قطاراً محملأً بالجنود.

ثم أسرع لورنس ومن معه إلى درعا. وكانت قوات الجنرال اللبناني قد بدأت هجومها على القدس. وقد نجحت في كسر خطوط الأترارك حولها، في الوقت نفسه الذي أخذ فيه لورنس ورفاقه في استكشاف منطقة درعا. وكان مع لورنس الشيخ طلال وخدماته حليم وفارس. وظن لورنس أن الشيخ طلال معروف في المنطقة، فتركه وتوغل داخل المدينة مع خادمه فارس، مرتدياً بعض ملابس الخدم. ولكنه وقع في يد دورية تركية، تركت فارس جانباً، واتهمت لورنس بالهرب من الخدمة العسكرية. وقد حاول لورنس إيهامهم بأنه شركسي، وأن الشراكسة معفيون من الخدمة العسكرية.

ويلاحظ أن لورنس قد انتohl شخصية غير عربية كي يخفى هجته أمام الأترارك. وكان هته الأول هو حجب شخصيته كبريطاني عن أفراد الدورية. فإن

الأتراك كانوا قد جعلوا على رأسه 20000 جنيهًا حيًّا و10000 جنيهًا ميتًا. ربما صدقة أفراد الدورية، وظنوه شركسياً فعلاً. وربما كان هذا هو ما يبحثون عنه: الشركسي وليس العربي المارب من التجنيد. وقد سبق لورنس أن لاحظ حين استجوابه للضباط والجنود الأتراك في القاهرة، أن جل الآخرين قد أسيء إليهم من ضباطهم!

وقد أخذ الجنود لورنس إلى ضباطهم في نقطة الحراسة. فأرسله الضابط إلى منزل حاكم المنطقة. وهناك أخذ الحاكم التركي يراوده عن نفسه. ولما رفض لورنس، ضربوه بالنعال على وجهه، ثم بدأوا يجلدوه. واستمرت المراودة، والجلد، حتى أغمى على لورنس. وكلما أفاق، راودوه مرة أخرى، ثم جلدوه. كل هذا لورنس يحاول ألا يشكوا أو يصرح، وإذا فعل فالعربية وحدها!

ويقول لورنس (وليس أمامنا إلا روایته) أنه عندما أخذ بعد ذلك إلى «البيك» كانت «ملابسها قد اتسخت، وظهره قد أدمى». فأمر الحاكم بإطلاق سبيله. فأخذ إلى غرفة مهجورة وجد بها بعض ثياب الجنود الأتراك، فلبس بعضها، وضمد له طبيب أرمني جراحه، ثم هرب من نافذة الغرفة عند الفجر إلى الشارع، ولحق بيقية رفاقه خارج درعا.

والغريب أن لورنس قد استطاع أن يخفى روایته تماماً عن رفاق رحلته، رغم الآلام النفسية والجسدية والجروح التي عاد بها.

\* \* \*

قص لورنس هذه الحادثة المؤلمة التي جرت له في كتابه «الأعمدة السبعة» الذي ستحدث عنه فيما بعد. وذكر أنه قد كتب سطورها (9 مرات) حتى انتهى إلى المعنى الذي نقلناه. فهل أعاد لورنس كتابة فقرته هذه المرات الكثيرة، لتوضيح الحادثة، التي لم تزل إلى الآن غامضة، أم لحجب حقيقة ما حدث له في درعا؟!

لقد اعترف لورنس فيما كتب بالتعذيب، ولم يعترف بالاغتصاب. وإن كان قد أشار إليه بما يشبه الاعتراف الصريح بعد ذلك في خطاب أرسله لزوجة برنارد شو. ومع ذلك، فقد ذكر لورنس أنه قد خرج من تجربة درعا «شخصاً آخر». فظل أيامًا لا يستطيع الكلام». فقد احترق نفسه بعدها، وأخذ جسده بأقصى وأعنف مما كان يفعل من قبل. ودارت في نفسه أفكار كثيرة عن ضرورة أخذه بتأله من الآثار، وقد فعل كمَا سبّجي. ودهش هو نفسه لتغير معاملته لهم. واستراح لقوته وفظاعته مع أسراه.

والواضح أن كتابات لورنس عن حادثة درعا تفصّح عن رفضه لسلكه خلاها. فقد اكتشف لورنس أنه لم يستطع التحكم في نفسه. وأن الحادثة قد بعثت فيه «نشوة غير إرادية لم يتوصّل إليها بعد ذلك في حياته». ولم يقبل لورنس هذا من نفسه! ولم تكن هذه «المازوكية» كما يظن الآن، جنسية. وإنما كانت كما سنين نفسية.

يقول لورنس:

«هذه المازوكية التي تركتني مشوهاً، وغير طبيعي، وعلى غير حقيقتي. ولم يكن السبب هو ما جرى لجسدي، فإن أحداً لم يضع جسده في مثل المقام السفلي الذي وضعته أنا فيه».

## وهاة داود وهراج

عاد لورنس بعد فشله في نسف جسر الأزرق إلى العقبة، ولكن استيلاء قوات النبي في 8 كانون الأول/ديسمبر عام 1917 على القدس، جعل النبي يغفر له فشله، بل ويرسل له طائرة خاصة صغيرة نقلته إلى القدس، فدخلتها في اليوم التالي ضمن موكب النبي الذي ضم قلة من معاونيه. وقد حاول لورنس أن يعتذر للنبي عن فشله، ولكن النبي هون عليه. وطلب إليه أن يعود إلى العقبة، وأن يخشد قوات

فيصل فيها، ثم يوجهها شهلاً نحو البحر الميت، كيف تخفف عن جناح القوات البريطانية المتقدمة في فلسطين. وأن يطلب من الأميرين علي وزيد أن يزيداً ضغطهما على الأتراك في المدينة المنورة وعلى طول الخط الحديدي إليها، كي يشغلوا القوات التركية في الحجاز عن نصرة رفاقهم في سوريا.

ويلاحظ أن تأثير لورنس على النبي كان يتزايد طوال الفترة الحرجة التالية التي أخذ فيها الإنجليز يرسمون سياستهم المقبلة في الشرق الأوسط. كذلك كان لورنس تأثير قوي آخر، كما سبق وتحديثاً، على مدير المكتب العربي بالقاهرة «هوجارت»، ومدير المخابرات فيها «ستورز». وسنلاحظ أن لورنس قد أخذ طوال الشهور التالية والباقية له في الشرق الأوسط، يقضي أوقاتاً طويلة في مقر القيادتين البرية والبحرية، والسفارة البريطانية بالقاهرة، والمكتب العربي بها.

ومع ذلك، فإن قدرة لورنس على رسم الصورة النهائية للسياسة البريطانية عقب الحرب العالمية الأولى لم يكن قاطعاً. وتخلص الأسباب في اعتقادنا في أن نصيحته للإنجليز بدت متاثرة بميوله للعرب، وبالذات الدور الكبير الذي رسمه فيصل، ومن ورائه لنفسه، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

وقد قضى لورنس بضعة أسابيع في القاهرة والإسكندرية قبل أن يعود في عيد الميلاد من عام 1917 إلى العقبة. وكانت قوات فيصل قد أخذت تجتمع في هذا الميناء، وتخرج منه للقيام بغارتها على خطوط السكك الحديدية في الحجاز وسوريا. وقد تقدمت هذه القوات بعد عودة لورنس إلى الجرف، ثم إلى الطفيلة، في الجنوب الشرقي من البحر الميت، واستولت عليهما في كانون الثاني/ يناير عام 1918، ولكنها لم تستطع التقدم لاحتلال معان

وكان مدفعية نوري السعيد قد تختلفت في الجرف، لصعوبة نقلها في سرعة إلى الطفيلة. ثم اختلف ابن الشيخ عودة مع بعض حراس الأمير زيد، وقتل اثنين

منهم. وأدى هذا إلى انسحابه مع رجاله من جيش الأمير فيصل. وقد عقب نوري السعيد على ما حدث بأن المشاكل التي يخلقها وجود عودة بينهم أكثر مما يعود عليهم من مساعداته لهم !

وعندما هاجت قوة تركية كبيرة الطفيلة، انسحب زيد ورجاله منها. ولكن لورنس وبعض أبناء المدين استمروا يدافعون عنها من التلال المحيطة بها، حتى تغلبوا في النهاية على الأتراك المهاجمين، وعادوا لاحتلال المدينة.

وفي أواخر يناير عام 1918، نجح لورنس في قطع خطوط مواصلات الأتراك إلى البحر الميت. ثم تقدم إلى الكرك. واصطحب معه حوالي مائة فارس، وباغت قافلة بحرية تركية تحمل المؤن على البحر الميت، فأغرقها. ثم عاد للطفيلة ومعه عشرات الأسرى من الأتراك.

وفي أوائل فبراير، كان الأميران علي وزيد قد فشلا في قطع خطوط الأتراك إلى المدينة المنورة. فأصدر النبي أوامرها إلى الكولونيل ويلسون بسرعة إتمام العمل. وذهب زيد يشكو لlorans أن رجاله لا يريدون الاشتراك في القتال حتى يتسللوا رواتبهم. فأرسله لورنس إلى القيادة البريطانية في الغوريرة حيث تسلم 30,000 جنيهًا ذهبيًا. ولكنه أنفقها قبل عودته إلى لورنس. وأخذ لورنس يشكو من حماقته وتبذيره مع قلة كفاءته.

وقد تركت قوات النبي في آذار/مارس أحريًا، وتقدمت نحو السلطان ففصلت الجيوش التركية بين يافا وشمال البحر الميت. وطالب النبي لورنس وفيصل بتدمير الخط الحديدي جنوب عمان، والإسراع باحتلال معان، ثم الالقاء بالقوات البريطانية شمالي أريحا. وقد وضع لورنس وفيصل وجويس خطة احتلال معان، ونفذوا خطتهم في الوقت نفسه الذي أتمت فيه قوات النبي احتلال أريحا وعمان.

وفي هذه الأثناء مرض داود، خادم لورنس، ورفيق فراج، بالتيغوس، ثم توفي. وصدم فراج لوفاته. ولأم عليها الأتراك، وأقسم أن يتقدم منهم لموته. وكان الأتراك قد قاموا بهجوم مضاد قوي، احتلوا خلاله السلط وعمان وتهديدوا القدس وتذكر لورنس وفراج، على ما كانا يفعلان أحياناً في زي امرأتين بدويتين، ودخل عمان لاستقصاء أخبار الأتراك. وفي طريق عودتها إلى مقر قيادة فيصل، تصدى فراج لبعض الجنود الأتراك المتراغعين، فقتلوه برصاصهم.

وقد أدت النكسة التي أصابت القوات العربية والبريطانية من هجوم الأتراك المضاد إلى تذمر رجال القبائل، وتحاصلهم، وإنقاذهم اللوم بعضهم على البعض الآخر. وحتى لورنس، ذهب يشكوا حظه العاثر للنبي، ويطلب نقله إلى مركز بسيط لا مسؤولية فيها. وقد طيب النبي، على عادته، خاطره. وزوجه بمساعدة بريطاني يجيد العربية، هو الكولونيل يونج. ولكن لورنس لم يسترح إلى مساعدته، وحاول جهد أن يتخلص منه أو على الأقل بإبعاده عنه.

وكان النبي قد أخذ يجمع منذ بداية عام 1917 جميع الخطوط في يديه استعداداً لهجومه الحاسم على الأتراك. فوضع جميع الضباط البريطانيين في الحجاز وسوريا تحت إمرة القيادة العامة مباشرة، بعد أن كان بعضهم يخضع للمكتب العربي أو المخابرات العسكرية. وأرسل الكولونيل دوناي ملحقاً بمركز قيادة فيصل. وأخذ هذا يلح على فيصل في دفع القوات العربية إلى الضغط على الأتراك. وفي هذه الأثناء، قام لورنس بغارة واسعة على المدورة. وقطع نوري السعيد موصلات القوات التركية المتراغعة، واحتل البريطانيون السلط.

ثم ذهب لورنس إلى مركز القيادة البريطانية في القاهرة، وطالب بأموال جديدة. وبغارات جوية أكثر قوة على الأتراك. ثم عاد من مركز القيادة إلى فيصل بخبر سار، فإن النبي كان قد قرر تحويل فرقة المجانة التابعة للجيش البريطاني إلى

فرقة من فرق المشاة. ووافق على أن يقدم جهازاً الألفين إلى فيصل. وعندما نقل لورنس لفيصل خبر «المدية» وجم فيصل برهة، ثم قفز في الهواء مصفعاً ومهلاً، ثم أخذ في تقبيل وجه لورنس.

وكان النبي يظن أنه سيواصل تقدمه بسرعة على دمشق وحلب. ولكن هجوم الألمان المفاجئ في آذار/مارس عام 1918 على الجبهة الفرنسية، جعل البريطانيون يسحبون من سوريا 60000 جندي بريطاني، وينقلونهم على وجه السرعة إلى فرنسا. واضطر النبي إلى تجميد الموقف وانتظار وصول إمدادات جديدة له من الهند. واقتصرت جهود القوات العربية والبريطانية على قطع خطوط الأتراك في الحجاز وسوريا وتجريب ما تستطيع تخريبه من منشآت عسكرية واستراتيجية.

### سباق بين القوات العربية والبريطانية

تحدثنا فيها سبق عن وعد حاكم السودان البريطاني، والمندوب السامي البريطاني في القاهرة، منذ عام 1915، للشريف حسين وأبنائه. وعندما حل وينجيت محل مكماهون وكيلتشنر، مندوباً بريطانياً سامياً بالقاهرة، أكد وعد سابقيه، وأعلن في حزيران/يونيو عام 1918 أن «المناطق العربية التي يحررها سكانها من العرب ستتحظى بعد الحرب بالاستقلال». ولكن الحقيقة هي أن بريطانيا كانت قد خالفت تلك الوعود منذ توقيعها في عام 1916 اتفاقية سايكس بيكون السرية. وهي الاتفاقية التي اتفضّح أمرها كما أشرنا عندما تغير نظام الحكم في روسيا إلى الشيوعية. وكذلك بوعدها في عام 1917 لليهود «بلغور» بمنحهم وطنًا قومياً في فلسطين. وجدير بالذكر أن العرب لم يتمموا كثيراً بخطورة وعد «بلغور». وأن فيصل قد أعلن بعد ذلك في باريس أن العرب واليهود قد عاشوا دائماً في سلام.

ثم سمع لورنس عند زيارته للقاهرة في حزيران/يونيو عام 1918 أنه «لن تكون هناك مملكة عربية موحدة. وأن الدول العربية مختلفة فيما بينها، ولا تجتمع على شيء». وأن فيصل أضعف من أن يكون ملكاً على العرب، وأن البنية هي جعل الحجاز مستعمرة بريطانية».

وقد اعترف لورنس بعد ذلك بأنه كان على دراية تامة بحقيقة الوعود البريطانية للعرب:

«إنني ما لم أكن مجذوناً، لتبينت أن مصير الوعود التي بذلناها للعرب، لن تكون بعد انتهاء الحرب إلا حبراً على ورق. ولو كنت أميناً مع نفسي وقتلت، لصرفت رجالى، ولما تركتهم يعرضون حياتهم للخطر من أجل مغامرة من المغامرات. ولكن الاعتماد على هؤلاء الرجال كان هو السبيل الوحيد لكسب الحرب. وهذا أكدت لهم مراراً وتكراراً، وأنا متألم وخجل مما أفعل، أن بريطانيا ستحافظ دائمًا على كلمتها».

وعندما عاد لورنس في حزيران/يونيو عام 1918 إلى مركز قيادة فيصل، وجد القوات البريطانية قد تحولت إلى موقف الدفاع، انتظاراً للإمدادات التي قدر لوصولها شهر تشرين الأول/أكتوبر من ذلك العام. وظن لورنس أنه لو استطاع فيصل أن يترك الهجوم على خطوط الأتراك، وأن يحشد قواته، ويحتل دمشق قبل هذا التاريخ، فسيكون صعباً على بريطانيا وفرنسا بعد انتهاء الحرب أن تخرباه من عرش سوريا.

وطلب لورنس إلى فيصل أن يطلب من والده، الشريف حسين، أن يرسل إليه كل ما تحت يده من قوات عربية، وكتب فيصل لوالده بذلك، ودفع لورنس وينجيت والنبي إلى تعضيد الطلب، ثم ذهب لورنس بنفسه لمقابلة الشريف حسين ولكنه رفض مقابلته، وتخلل بحلول شهر رمضان وبضرورة اختلاسه للعبادة. ثم لم

يكتف الشريف حسين برفض طلب فيصل بإرسال القوات إليه، فأعلن أن الأميرين علي وعبد الله هم ملكاً الحجاز وسوريا القادمين. ثم نحي فيصل، في آب/أغسطس من ذلك العام، عن «قيادة جيش الشمال». وأحل محله جعفر باشا، ثم أرسل الشريف حسين إلى ابنه الأمير فيصل بررقية يقول له فيها إنه «خائن وخارج عن القانون».

وقد اضطر فيصل إلى أن يقدم استقالته لوالده. وعيّن الشريف حسين الأمير زيد قائداً عاماً مكانه. ولكن الأمير زيد رفض تولي القيادة، ورفضها أيضاً جعفر باشا. وضغط النبي على الشريف حسين، حتى أعاد فيصل إلى مكانه السابق، كقائد لجيش الشمال. وعادت الأمور بعد شهور من البلبلة إلى ما كانت عليه أولاً. ولكن بعد أن ضاعت على فيصل فرصة ذهبية.

وتجدر بالذكر أن فيصل قد أعقب هذه «التمثيلية» بتمثيلية جديدة أساء فيها إلى نفسه. إذ تهدد الإنجليز علانية في آخر آب/أغسطس من عام 1918 بتركهم والانسحاب مع قواته إلى الجيش التركي. ثم اضطر إلى أن يذعن لم ويسكت !

\* \* \*

وكان الإمدادات البريطانية إلى منطقة الشرق الأوسط قد وصلت قبل ميعادها، فبدأت القوات البريطانية هجومها في أيلول/سبتمبر عام 1918 على نابلس وحيفا، في الوقت نفسه الذي هاجمت فيه القوات العربية درعاً. وقد تألفت القوات العربية تحت إمرة الأمير فيصل وقتئذ من 500 جندي بقيادة نوري السعيد، ومدفعية بقيادة الكولونيل الفرنسي بيزاني، وفرقة من الهجانة المصرية، ورجال قبائل الحويطات بقيادة عودة، والرولا بقيادة نوري الشعلان، والزين، والراحين، وبعض الدروز السوريين. وكان مع لورنس ضابطاً سترلينج ووثerton. وألحق

بالقوات الأربعين سيارة، وطائرتين بقيادة مورني وجونورن سقطت إحداها في بداية الهجوم.

وكان في درعا، حين التفت حولها القوات العربية، حوالي ثلاثة آلاف جندي تركي، يقودهم ضباط أتراك وألمان ونمساويون. وقد نجحت القوة العربية في بداية هجومها في نصف خط السكك الحديدية بين درعا ودمشق، وبعض أجزاء الخط الحديدية إلى حيفا. ودمرت محطة المزيريب وجسر اليرموك. وفي هذه الأثناء كانت القوات البريطانية قد دفعت الأتراك إلى الشرق والشمال، ومهدت الطريق لهجومها على دمشق.

ثم طالب لورنس النبي بأن يقدم للقوات العربية المزيد من المساعدات والأموال، ويأن يزوده بحامية جوية كافية. فأرسل له النبي مقاتلين آخرين وطائرة نقل. وأكد عليه ألا يحاول دخول دمشق قبل وصول القوات البريطانية إليها.

وقد ذكر لورنس أن القوات التركية المنسحبة من منطقة درعا قد اقترفت فظائع كثيرة ضد المدنيين العرب. وأن قواته قد «تعقبت فلول الأتراك محاولين الثأر منهم لما افترفوه». يقول لورنس:

«القدر حنا نقتل منهم من نستطيع، ونسحق رؤوس موتاهم بحوار خيولنا. وكأن في عملنا هذا، ورؤيتنا لدمهم المسفوك، ما يخفف عنا حزننا. وقد أسرت جماعة ما، لم تستمع إلى أوامر قائدتها بعدم أخذ أية أسرى، 250 من الأتراك. وشاهدت على مقربة منهم جندي عربي يختضر على الأرض، ولم تفارقه الحياة بعد، ولم تزل حراب الأتراك مثبتة في ساقيه وساعديه. ولكن كان فيه من القوة ما جعله ينطق ويقول إن هؤلاء الأسرى هم الذين فعلوا به ذلك، فأمرت بقتل أسراي جميعاً»!

وقد سبقت القوات العربية القوات البريطانية إلى درعا. ولما دخلها الجنرال بارو على رأس قواته البريطانية، استقبله لورنس «كما يستقبل الأستاذ التلميذ

البليد». ثم أرسل لورنس إلى فيصل كي يسع إلى درعا استعداداً للهجوم على دمشق. ولكن في ليلة 30 آب /أغسطس انسحب أكثر القوات التركية والألمانية عن دمشق. فرفعت «لجنة فيصل» الرأبة العربية على مبني البلدية. ودخلت قوات الأمير نصر ونوري الشعلان المدينة عند الفجر. وكان أكثر أهالي المدينة قد تجمعوا مشدوهين، ينظرون إلى الموكب المظفر، غير مصدقين ما يجري أمام عيونهم. ثم أخذوا ي يكون ويهتفون: فيصل.. فيصل.

ويقول الدينجتون إن القوات العربية كانت تسبق القوات البريطانية في دخول درعا ودمشق، لسابق تصريح بريطانيا بأن «المناطق العربية التي تخرب نفسها ستصبح مستقلة». ويؤكد الدينجتون أن لورنس لم يدخل دمشق حتى صبيحة اليوم التالي، أول تشرين الأول /أكتوبر، وبعد ساعات من دخول القوات الأسترالية إليها بقيادة الجنرال شوفيل، وأن فيصل لم يدخلها بموكبه حتى صبيحة الثالث من تشرين الأول /أكتوبر.

ويذكر الدينجتون أن عدد الجنود الأتراك في دمشق، عند دخول القوات العربية لها كان يقارب العشرة آلاف، بينهم ألفان من الجرحى. وأنهم تعرضوا جميعاً للتسليم للقوات البريطانية، شريطة ضمان مسلك القوات العربية حيالهم، وخصوصاً أبناء قبيلةبني صدر الذين كانوا يقسمون في الانتقام من الأتراك. وقد وافق القائد الأسترالي على هذا الشرط، وأمر بعض الأسرى الأتراك بالاحتفاظ بأسلحتهم لحماية أنفسهم. وقضى الجنود البريطانيون والأتراك الليل ببطوله شاهرين أسلحتهم جنباً إلى جنب لحماية الأسرى الأتراك من القوات العربية !

وعندما ذهب لورنس، بعد ساعات من دخول القوات العربية للمدينة، إلى مبني البلدية، وجد الأمير عبدالقادر وشقيقه محمد سعيد وأعوانها من «المتطفين» قد سبقوهم إلى هناك. وقد تحدى محمد سعيد لورنس، وقال له: أنت كافر

وإنجليزي، وحاول أن يقتله بخنجره، ولكن لورنس طردهما (وقد قُتل عبد القادر في الشهر التالي)، وأوكل أمر المدينة إلى فيصل وناصر وشكري الأيوبي.

ثم قام الجزائريون وبعض الدروز بعصيان، إن لم يكن بهيرة. وقد أمر لورنس جنوده بإخادها، ووقفت القوات البريطانية خلفهم مستعدة لمؤازرتهم، وقتل خلال هذا العصيان خمسة وجرح عشرة، كما ذكر لورنس، وأكثر من هذا بكثير كما ذكرت مصادر أخرى.

وعندما حضر النبي إلى دمشق أيد إجراءات لورنس، وأمر بإقامة «نظام عربي من العقبة إلى دمشق» يقوم على حكام وموظفين من العرب، وعلى أن تكون الإدارة لفيصل وللقيادة العسكرية، على أن يلحق بها هيئة اتصال فرنسية. ولكن النبي أصر على ترك الحال كما هو في بيروت. وغضب عندما رفع شكري الأيوبي الراية العربية فوقها، فأمر بإزاحتها، وقال إن الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا (يقصد معاهدة ساينكس بيكون) يجب أن يُحترم.

وفي تشرين الثاني / نوفمبر عام 1918، صدر بيان بريطاني فرنسي جديد يَعِدُ عرب سوريا وبلاط الرافدين بإقامة حكومات وطنية مستقلة «تحتارها شعوب المنطقة ويسقطن كيانها الموقّعون».

### استقالة لورنس من الجيش البريطاني

أحس لورنس في نهاية عام 1918 باليأس من موقف الحكومة البريطانية من العرب. ويقول السير رونالد ستورز إن علاقة لورنس بفيصل «كانت تزداد مراقة مع الأيام». ولكن لورنس صرح للدليل هارت بعد ذلك، بأن استقالته التي أصر عليها كانت بسبب «خوفه الباطني من شهوته الشديدة في السلطة». وليس في هذا مبالغة! فإن لورنس كان يحلم بتأليف إمبراطورية «بنية» واسعة من الأقطار العربية،

يضع على رأسها فيصل، ويكون هو القوة المحركة من خلفه. وليس من شك أن لورنس قد أحس بعجزه عن تحقيق فكرته من موقعه الرسمي في الجيش البريطاني. وقدر أنه ربما استطاع أن يساعد في تحقيقها بأكثر ما يفعل، لو استقال من الجيش. وسافر للدعوة للقضية العربية في إنجلترا. وقد حاول النبي أن يثنى لورنس عن استقالته، فلما أصر عليها، رقاه النبي إلى رتبة كولونيل وقبّلها. وبارج لورنس دمشق في 4 تشرين الأول /أكتوبر عام 1918 إلى القاهرة، فبلغها في الثامن من هذا الشهر. ثم بدأ رحلته البطيئة إلى فرنسا. ومنها بالقطار إلى إنجلترا. فبلغ لندن في 11 تشرين الثاني /نوفمبر عام 1918، بعد أيام قليلة من عقد المذكرة.

وفي هذه الأثناء كانت الاضطرابات قد قامت في دمشق. واحتلت القوات العربية بيروت. احتار فيصل فيها يفعله: أيسير مع التيار الشعبي ويقاتل الفرنسيين في بيروت، أو يسلّمها كاتفاق سايكس بيكر إلىهم، وكتب فيصل إلى لورنس يستشيره في الأمر.

وكان لورنس قد ذهب فور وصوله إلى لندن لمقابلة أعضاء «اللجنة الشرقية» بوزارة الحرب البريطانية. ثم قدم لهم مذكرة بأفكاره حول المشكلة العربية. وقد اقترح لورنس في مذkerته أن يصبح الحجاز مستقلًا تحت حكم الشريف حسين، ومن بعده لابنه علي. وأن توضع بلاد الرافدين (العراق) تحت الانتداب البريطاني، ويولي عبدالله على بغداد، وسيد على الموصل. وأن يصبح فيصل ملكاً على سوريا، ما عدا الشريط الساحلي الذي يضم بيروت فيوضع تحت الانتداب الفرنسي. وأما عن فلسطين، فقد ذكر لورنس أن «العرب متفقين جديعاً على أن توضع تحت الانتداب البريطاني وألا تكون موطنًا لليهود».

ثم حصل لورنس لفيصل على دعوة لزيارة بريطانيا، فذهب فيصل، ومعه نوري السعيد، إلى بيروت، حيث احتفل بهما المندوب البريطاني احتفالاً كبيراً. ثم

ركب المدمرة البريطانية جلوستر إلى مرسيليا، ووصلوا في 26 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1918. وكان الفرنسيون، وعلى رأسهم بريموند، وبعض المندوبين البريطانيين بانتظاره. وأما لورنس، فقد ارتدى ملابسه العربية، وانتظر الوفد العربي في محطة سكك حديد ليون، في طريق القطار من مرسيليا إلى باريس. ثم حاول أن ينضم إليه. ولكن بريموند احتاج عليه. وذكر له أن فرنسا ترحب به بلباسه الرسمي كضابط بريطاني، ولكنها لا تعرفه بلباسه العربي. وقد طلب فيصل إلى لورنس أن يترك الوفد. فسلم لورنس صليب الحرب الفرنسي الذي كان قد أهدى إليه إلى بريموند متحججاً، وعاد إلى إنجلترا.

وقد استقبل فيصل ومن معه استقبالاً رسمياً في باريس. فأقيمت له الاستقبالات والآداب. وزار موقع الحرب في فردان. ولكن الفرنسيين، مع احتفائهم به رفضوا الاعتراف به كممثل لسوريا. ثم بارح فيصل باريس في 9 كانون الأول/ديسمبر إلى ميناء بولون. وكان بانتظاره هناك طراد بريطاني نقله إلى إنجلترا. وكان لورنس ينتظره بملابس العربية على سلم الطراد.

وقد رافق لورنس فيصل كمستشار ومتجم طوال فترة إقامته في إنجلترا. وكان يرتدي ملابس عسكرية كاكية. ويوضع عقالاً على رأسه. وأقيمت لفيصل، ومعه لورنس، عدة حفلات. واستقبلهما الملك جورج الخامس ملك بريطانيا استقبالاً رسمياً.

وفي كانون الثاني/يناير عام 1919 افُسح في باريس مؤتمر الصلح. وكان يسيطر على جوّه نقاط الرئيس الأميركي ويلسون الأربع عشر في تقرير المصير. وقد حضر لورنس المؤتمر كعضو في الوفد البريطاني. ولكن الفرنسيين، وحتى الشريف حسين، رفضوا الاعتراف بفيصل مثلاً لسوريا، وأتّهم الشريف حسين فيصل بأنه قد اغتصب العرش من أخيه عبدالله. ولكن الوفد البريطاني أقنع الفرنسيين والشريف حسين في النهاية بسحب اعترافاتهم على فيصل !

وفي بداية شباط / فبراير مثل فيصل أمام لجنة العشرة. وعمل لورنس مترجمًا له. ويقال إنه كان أكثر من مترجم، ويقول الدينجتون إن فيصل لم يكن يتمتنم إلا ببعض آيات القرآن !

ويلاحظ أن تصريحات فيصل، التي كان ينقلها لورنس للمجتمعين، كانت توافق كلها مندوب بريطانيا، لويد جورج. وكان الأميركيون يشعرون بعطف كبير نحو قضية فيصل، لاتفاقها مع مبادئهم، ولل千方百 الطويل والتضحيات الكبيرة التي تكبدها العرب خلال الحرب ووصفها لهم بتفصيل كبير لورنس. ولكن المندوب الفرنسي كليمنصو، كان يصر على ما سبق الاتفاق عليه مع الإنجليز. ويتمسك بأن يصبح الشريط الساحلي لسوريا مستعمرة فرنسية، والأجزاء الداخلية منها محمية فرنسية. وقبل انتهاء المؤتمر، كان البريطانيون قد أخلوا فعلاً المناطق الغربية من سوريا للفرنسيين، وبادلهم الفرنسيون جيلهم فاعتبروا لهم بالسيادة على الموصل.

ومع ذلك فقد استمر لورنس في محاولاته كسب تأييد المؤتمر لقضية فيصل. فتحادثاً مرات مع الكولونيال هاوس، مستشار الرئيس الأميركي ويلسون. وقابلًا في ربيع 1919 للمرة الثانية الملك جورج الخامس. ورفض لورنس تسلم وسام ربطه الساق منه، وخرج من القصر غاضبًا، عندما اعتذر له الملك عن إمكاناته مساعدته.

وقد عاد فيصل إلى سوريا في أيار / مايو عام 1919، فاستُقبل استقبالاً حماسياً كبيراً. وكانت بعض الوحدات التركية التي استسلمت، والتي لم تكن قد سُرّحت تماماً، قد تمردت. وانضم إليها بعض الوطنيين السوريين. وانشغلت السلطات الفرنسية بقمعها. وقد وجد الزعيم الفرنسي كليمنصو أن أفضل ما يمكن أن يهدى الأمور هناك، هو وجود فيصل فيها، فتغاضى عن بقائه في دمشق، ومن دون أن يُعرف به أو يُسمح له بأية سلطات فعلية.

ولكن الوطنيين السوريين عقدوا مؤتمراً عربياً كبيراً في دمشق، اتفقوا فيه على الدعوة لاستقلال الأقطار العربية. وتعيين فيصل ملكاً على سوريا، وعبدالله ملكاً على العراق. وقد رفضت إنجلترا وفرنسا قرارات المؤتمر. واستدعاها فيصل للحضور إلى سان ريمو لبحث الموضوع. وذهب فيصل إلى هناك ربيع ذلك العام. ولكن المؤتمر انتهى إلى تأكيد سياسة الأمر الواقع، أي انتداب بريطانيا على العراق وفلسطين وفرنسا على سوريا ولبنان.

ثم قامت ثورة أيار / مايو عام 1920 في العراق، وأخذت تمتد بعد ذلك إلى سوريا. وهاجم الوطنيون العرب قوات الاحتلال، وقطعوا خطوط الدوريات العسكرية، وقضوا على جنود كثيرين بريطانيين. ووجد القائد العام الفرنسي في سوريا أن الثورة توشك أن تمتد إلى سوريا. وكان كليم منصو قد ترك الوزارة، فأرسل القائد الفرنسي إنذاراً إلى فيصل، يحمله فيه المسؤولية، ويهدد بزحف قواته إلى دمشق.

وظن فيصل أن بريطانيا ستساعده في محنته ضد فرنسا، وأرسل يستجده بأصدقائه فيها. ولكن بريطانيا كانت مشغولة بقتالها الخاصة في العراق. وأرسلت لندن إلى النبي تعليماً منها بأن يمتنع عن تقديم أية مساعدات لفيصل. وعندما ذهب مندوب النبي لإبلاغ فيصل رد حكومته، وجده جالساً وحده يبكي حظه العاثر، ويلقي باللوم على خيانات أصدقائه !

وفي أواخر تموز / يوليو، أرسل الفرنسيون إلى فيصل رسالة مقتضبة، تطلب منه التخلي عن سلطاته في سوريا، وترك البلاد. ثم خصصوا له قطاراً خاصاً قام بنقله إلى فلسطين. وكانت الاضطرابات قد قالت في أنحاء سوريا، وأراد أعداؤه فيصل فيها أن يمنعوه من تركها، ولكن فيصل رفض ، يقاتل الفرنسيين. وأمر نوري السعيد أن يستخدم قواته في إيجاد طريق له إلى خارج البلاد، وذهب فيصل ليقيم في فلسطين.

وقد أدت ثورة العراق إلى نزع مسؤولية هذه البلاد من الوزيرين البريطانيين كيرزون ومونتاجيون وإسنادها إلى وزير المستعمرات «ونستون تشرشل». واحتاج تشرشل إلى 30 مليون جنيه لقمع ثورة العراق. وقد اتضح للمسؤولين البريطانيين أن يد الشريف حسين، وابنه الأمير زيد، كانتا ضالعتين فيها. وأنهما قد استخدما أموالاً وأسلحة كثيرة مما قدمته لهما بريطانيا لنشر الاضطرابات في العراق. فلم يعد فيصل ولورنس يجدان آذاناً صاغية لنداءاتهم للمسؤولين البريطانيين.

### تصحيح الأخطاء والوفاء بالعهود

كان مؤتمر الصلح في باريس قد قرر في آذار/ مارس عام 1919، إرسال لجنة تحقيق إلى العراق وفلسطين وسوريا. ولكن اللجنة لم تذهب إلى العراق أو فلسطين. واكتفت بقضاء عدة أيام في دمشق. وكانت فرنسا، بعد اتفاق لويد جورج وكليمونسو على احترام اتفاقها السابق، قد أنزلت 20000 جندي فرنسي في سوريا، وتأكد أمر الاحتلال الفرنسي فيها كما تأكد أمر الاحتلال البريطاني للعراق وفلسطين.

وقد انتظر فيصل عاماً كاملاً في فلسطين بعد طرده من دمشق. اندلعت خلاله حرب الجزيرة، التي آذنت بانتهاء حكم الهاشميين، ومدت حكم الوهابيين بقيادة ابن سعود إلى كافة أنحائها.

وليس من السهل تحديد دور لورنس، أو دور المخابرات البريطانية، في التطورات التي حدثت بالجزيرة العربية، أو التأكيد بما إذا كان لورنس قد قام بزيارة التالية للقاهرة، في أوائل آذار/ مايو عام 1920، بتكليف من المخابرات البريطانية أو بوازع شخصي له.

فالواقع أن لورنس قد أفلح من لندن، على عجلة من أمره، على متن قاذفة قنابل قديمة من طراز هاندلر بيع المعيب، بحججة جمع أوراقه من القاهرة. ولكن

قادفة القنابل التي كان يستقلها أصبيت بحادثة خطيرة فوق إيطاليا، فسقطت، وقتل ملاجها. وقد كسر لورنس عظمة رقبته وبعض ضلوع صدره، ولكنه لم يتوقف للمعالجة، واستمر في رحلته، رغم إصاباته، على طائرة أخرى من الطراز نفسه إلى القاهرة.

ولكن وصول لورنس للقاهرة جاء بعد إنعام هزيمة الوهابيين للشريف حسين في الحجاز ...

وكان الشريف حسين يعد العدة للقضاء على الوهابيين، والخلص منهم نهائياً، خصوصاً بعد أن انهارت أحلامه في سوريا والعراق وفلسطين. وكان قد أعلن نفسه ملكاً في عام 1916. ولكنه في عام 1920 بدأ لقبه إلى « الخليفة » وأعلن امتداد ملكه على كل أراضي العرب. ويقال إن بريطانيا كانت على علم بالأمر، ويقال إنها لم تكن تشجعه فيه، وتنصحه بالاعتدال، ومصالحة جيرانه. وربما قدرت أن القضاء على الوهابيين لن يكون بالسهولة التي ظنها الشريف حسين. ومع ذلك فإننا لو اعتبرنا رحلة لورنس كانت بنية مساعدة الشريف حسين، وكانت بريطانيا ضالعة معه في مؤامرته. إذ ليس من المعقول أن يسافر لورنس بهذه العجلة، على طائرات السلاح الجوي البريطاني، من دون علم ببريطانيا بالسبب الحقيقي لسفره.

ومهما كان الأمر، فإن الشريف حسين كان قد ملا الدنيا ضجيجاً وتهديداً للوهابيين، قبل أن يسير إليهم حملته المؤلفة من 4000 بدوي بقيادة ابنه الأمير علي. ولكن القوات الوهابية باغتت جنود الأمير علي في ليلة 25-26 أيار / مايو، فقضت عليه قضاء كاماً. يقول الدين جتون:

« ولو لم تقع بلوارنس حادثة الطائرة، لكان أمامه وقتاً كافياً للوصول إلى الحجاز. فلو لا هذه الحادثة لكان قضى على لورنس أيضاً، ولفقد سمعته الحرية في هذه الكارثة التي لحقت بقوات عبدالله عند تورابة، وقبل أن تصل إلى خورما. ففي

ليلة 25-26 أيار / مايو اكتسح الوهابيون قرية تورابة في حاس وقوة تذكرنا بغزوات العرب عند ظهور الإسلام. وقد استطاع عبدالله وقلة من رجاله أن ينجوا على خيولهم. ولكن بقية جيشه قُضي عليه. وكان من ضمن هؤلاء الذين قُضي عليهم الضابط الفرنسي راهو الذي ترك هناك دون سبب واضح. وقتل معه أيضاً 60 إلى 70 ضابطاً شريفاً. وترك جثث الموتى في جيش الشريف في الصحراء من دون دفن. وهو عار كبير عند البدو. ولم يهرب من هذه المذبحة غير مائة من جيش عبدالله. وذكر بريموند أن عبدالله قد فقد أيضاً في هذه المعركة 12 مدفعاً و20 رشاشاً و400 حصان ويبلغ و1500 جمل».

وكان المسؤولون الفرنسيون قد سمعوا شائعات وصول لورنس إلى القاهرة، وظنوا أنه ينوي السفر منها إلى سوريا لمساعدة فيصل في إشعال ثورته ضدتهم هناك. فاحتجوا لدى وزارة الخارجية البريطانية. وقد أرسلت وزارة الخارجية البريطانية إلى سفارتها بالقاهرة تنبه إلى ضرورة التأكد من عدم توجه لورنس إلى سوريا بأي حال من الأحوال.

وقد عاد لورنس إلى لندن في الشهر التالي. وزاره فيها الأمير فيصل في نهاية عام 1920 زيارة ثانية. وساعدتها الظروف بتعيين وнстون تشرشل وزيراً لوزارة المستعمرات البريطانية كما ذكرنا. ونقلت إلى تلك الوزارة إدارة شؤون الشرق الأوسط. وقد عين تشرشل لورنس مستشاراً له لشؤون فلسطين، وأمر بجعله عضواً في مؤتمر القاهرة الذي حدد له آذار / مارس عام 1921، وجعل من اختصاصه بحث جميع مشكلات الشرق الأوسط. ويقال إن لورنس لم يقبل منصبه إلا بشرط قبلها تشرشل مسبقاً، ومن بينها تنفيذ تعهدات بريطانيا السابقة للشريف حسين وأبنائه. وقد ذكر لورنس بعد ذلك صراحة أن قرارات مؤتمر القاهرة كان متفقاً عليها قبل مبارحته لندن إلى القاهرة للاشراك فيه !

وكان الأمير عبدالله قد تقدم في كانون الثاني/يناير عام 1921، أي قبيل انعقاد المؤتمر، مع ألفين من جنوده نحو سوريا. وأعلن أنه سيحارب الفرنسيين فيها. وقد أسرع إليه الحاكم البريطاني في المنطقة، ولم يكن تحت يده غير خمسين شرطياً. وطلب إليه الوقف حيث هو، حتى تحيطه أوامر لندن. وقد وافق تشرشل على أن يصبح الأمير عبدالله ملكاً، وأن يحكم «ملكة شرق الأردن» شريطة أن يعترف بالانتداب البريطاني على فلسطين وأن يتنازل عن أهدافه في سوريا.

وقد استمر انعقاد مؤتمر القاهرة طوال شهر كامل. وحضره أكثر أعيان النبي السابقين، ومن بينهم لورنس، وجيرترود بيل، وكلايتون، وكورنواليس (سفير بريطانيا في بغداد بعد ذلك) وبيريسي كوكس (حاكم العراق وقتها) ومونج، ولورد ترانشارد، وجعفر باشا (رئيس أركان فيصل السابق). وقد انتهى المؤتمر إلى تعيين فيصل ملكاً على العراق «بعد إجراء استفتاء مناسب». وصدقت الحكومة البريطانية على قرارات المؤتمر. وأجرى الاستفتاء في شهر حزيران/يونيو من ذلك العام. وقد وافق 96.5% من العراقيين على جعل فيصل ملكاً للعراق.

وجدير بالذكر أن سيد طالب، وغزال خان، وابن سعود، وجعفر باشا كانوا مرشحين أيضاً كي يختار أحدهم ملكاً على العراق. ولكن الاستفتاء فصر حرية اختيار الناخبين على مرشح واحد، هو فيصل. وقد احتاج فيليبي (الذي كان يناصر الوهابيين) على هذا، واستقال من وزارء الداخلية البريطانية احتجاجاً عليه، وقد كتب فيليبي بعد ذلك:

«كان سيد طالب وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة. وعندما أحس بالاتجاه لترشيح فيصل ملكاً، ألقى خطاباً ذكر فيه أن العراق لا يريد فيصل. فدعاه الحاكم الإنجليزي سير بيريسي كوكس للقاءه في منزله. وعندما ذهب إليه، قبض عليه، وأرسله في سيارة مدرعة مخفورةً إلى سفينة حربية نقلته إلى سيلان».

وقد اجتمع تشرشل ولورنس في أعقاب مؤتمر القاهرة بالملك عبدالله في القدس. وعند عودة تشرشل إلى لندن سمع باضطرابات عمان، فأعاد لورنس إليها كيراً للمستشارين البريطانيين فيها. وقد اجتمع لورنس خلال عمله في عمان بوالدته وأخيه في القدس، وكلف ببعض مهام ذهب في إحداها إلى عدن.

ثم أخذ الملك ابن سعود يوحد الجزيرة العربية تحت حكم الوهابيين طوال الأعوام الأربع التالية. وخرج الملك حسين منها في عام 1923، فذهب إلى قبرص حيث عاش منفياً بقية حياته.

ويلاحظ أن لورنس كان قد أخذ يكتب مسودات كتابه «الأعمدة» منذ عام 1919. وقد ردد في كتاباته الأولى كلمات عن خيانة بريطانيا للعرب، ونكثها لوعودها لهم. ولكنه اعتبر، منذ مؤتمر القاهرة، أن بريطانيا قد أوفت، بفضل وزير مستعمراتها ونستون تشرشل، بوعودها للعرب كاملة. وذكر أن العرب لم يعترفوا لها بصنائعها، ولم يردوا لها جيلها». قد كتب لورنس في مختصره الذي عمل فيه طوال عام 1922:

«إن جميع الأخطاء التي أصابت العرب من بريطانيا قد أصلحت في مؤتمر القاهرة عام 1921. وبذلك خرجت بريطانيا نظيفة اليد تماماً من هذا الأمر».

### السعى إلى الهدوء والاستقرار

انقطع مرتب لورنس منذ ترسيمه في تموز/يوليو عام 1919 ولم يتسلم من الجيش إلا مكافأة بسيطة جداً، قيل إنها قد تراوحت بين 100 و300 جنيه. وعندما عاد لورنس إلى إنجلترا، اشتري بكل ما معه من نقود قطعة أرض صغيرة في تشينجفورد بمقاطعة إسكس لعاودة مشروعه القديم في إنشاء مطبعة. ثم انتخب لورنس، في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1919، زميلاً بكلية أول سولز باكسفورد،

ومنح منحة مدتها سبعة أعوام لوضع كتابه «الأعمدة»: 200 جنيه في كل من الأعوام الثلاثة الأولى، و50 جنيه في كل من الأعوام الأربع التالية. وقد عمل لورنس في حجراته الجديدة في أكسفورد أيامًا. ولكنه تركها إلى طابق أرضي في شارع بارتو بأكسفورد، لأنه كما قال، لا يمكن أن يستمتع بحياته هناك «وهو لا يهتم بملابسه، ولا يتميز بأحاديثه، ولا يميل إلى شرب البورت».

ثم اختاره تشرشل، كما ذكرنا، للعمل مستشاراً له بوزارة المستعمرات. ثم كبرأ للمستشارين البريطانيين في شرق الأردن. ويقال إن مرتبه وقتها كان 1200 جنيه، وأنه قد أنفق أكثر في شراء عدد من اللوحات الفنية، وفي مساعدة أصدقائه، ومن بينهم شارلز دافني وروبرت جرافيز. وأنه كان دائمًا «مدينةً» بمثابة وأحياناً بألف الجنيهات.

وقد سبق القول إلى أن لورنس لم يكن يميل للملك عبدالله، ولا لوالده الملك حسين. وقد عرض عليه تشرشل، بعد تعيينه في شرق الأردن، الانتقال إلى مكان آخر بالشرق الأوسط. وذكر لورنس أن تشرشل عرض عليه أهم هذه المناصب جيئاً، وهو منصب المندوب السامي البريطاني في القاهرة، وأنه رفضه. وقد شك الدینجتون في الأمر، خصوصاً وأن القاهرة لم تكن تتبع وقتها وزارة تشرشل. ولكن تشرشل اعترف في عام 1921 أنه ربما فعل هذا فعلاً بطريق غير مباشر. ومهمها كان الأمر، فإن لورنس قد فضل تقديم استقالته، وأصر عليها، ثم عاد إلى لندن. ويقال إنه كان من أسباب إصراره على الاستقالة «تأثيره من عدم اعتراف العرب له بمساعداته وأفضاله».

وقد عاد لورنس إلى لندن في تموز / يوليو عام 1922. ولكن لم يستطع معاودة العمل في كتابه في أكسفورد. ويقال إنه قد أصيب بانهيار عصبي، وأنه قد اشتبه في بلوغه حد الجنون.

وقد فكر في قطع كل صلة له بباقي، والانقطاع عن الناس، وفكير في العمل حارساً على أحد الشواطئ البعيدة، أو في إحدى المنارات المنعزلة على أحد الشواطئ القاصية. ثم غير اسمه إلى جون هوم روس *John Hume Ross* وتطور للعمل طياراً.

وقد ذكر لورنس بعد ذلك أنه كان يسعى إلى الاستقرار، مع البُعد عن المسؤولية وكتب إلى أستاده هو جارث:

«لقد سعيت بالدرجة الأولى إلى الاستقرار. فقد كان في التحاقني بالطيران ضيئلاً لي طوال الأعوام السبعة التالية. ولكن يجب أن تعلم أن عقلي كان مشلولاً، وإنني اعتبرت أن حياتي كلورنس قد انتهت».

ويقول الذين عرفوه وقتئذ أنه كان «يسعى إلى إذلال نفسه». وإنه كان «يريد بزيادة الغموض حول شخصه زيادة شهرته» !

وكان لورنس «مفلاسياً» ويحتاج إلى مال، وقلقاً يحتاج إلى الاستقرار، وراغباً في تحفير جسده بأشد ما ظلل يفعل طول حياته. وقد أخذ يتمشى جيئةً وذهاباً، طوال ساعات صباح 30 آب /أغسطس عام 1922 أمام مكتب التجنيد التابع لسلاح الطيران الملكي البريطاني في شارع هنريتا بلندن. ثم استجتمع شجاعته ودخل المكتب. وتقدم بالأوراق التي زورها باسم جون هوم روس إلى رئيس المكتب. ولكن رئيس المكتب أخذ يشك فيه وفي أوراقه، وقد كتب مدير المكتب دبليو إيه. جونز، بعد هذا:

«لقد نقل إلى أحد موظفي المكتب شكوكه في المتظوع الجديد قبل أن أراه. وهذا طالبته بشهادة خبرة من عمله السابق وبشهادته ميلاده. وبينما ذهب يبحث عن المادتين، راجعت كشف المجرمين الذين تطلبهم سكوتلنديارد، فلم أجده بينهم. ثم اتصلت بوزارة الداخلية واستعلمت عن اسم جون هوم روس فلم أجده بكشوفهم شخصاً بهذا الاسم».

فلما عاد إلى بالورقتين المطلوبتين رفضته. واختفى من أمامي فترة، ثم عاد إلى بأمر عالٍ بقبوله.

فلما أجرى أطباء المكتب الكشف الطبي عليه، تكشفت لهم الجروح العميقية على ظهره. وقد ذكر لهم أنها جروح أسلاك شائكة أصابته خلال الحرب. ولكنهم لم يقتنعوا بكلامه، ورفضوه.

وحيثند اختفى مرة أخرى، ثم اتصل بي مصدر عالي آخر وقال لي: إن هذا الرجل الذي تقدم إليكم هو لورنس العرب. فاحترسوا واقبلوه، وإلا ورطتم أنفسكم فيها لا تخبون».

وذهب جون هوم روس للتدريب كجندي متتطوع في قاعدة تدريب الطيران في أوكلسبرج. ولكن الواضح أنه لم يكن يتقبل أوامر رؤسائه من الضباط وصف الضباط بسهولة. ولم يرتع إلى لغة وعادات زملائه الجنود. وقد كتب إلى ليونيل كيرتيس خلال عمله في أوكلسبردج:

«إن ما أجد في الكوخ الثاني عشر قبيح للغاية. وهو يؤكّد لي كل ما سبق أن ردهه فرويد. فإن الجنس شيء جذري في كلّ منا. وكلما اقتربنا من الطبيعة كلما تأكّدت لنا الصورة الكاملة والحقيقة له. ورفاقي هنا هم الدليل الناصع على هذا. وأنت وأنا من كنا نتقابل في لندن، ونتكلّم في غير مواضع الجنس، بمثابة القشرة الرقيقة الكاذبة، التي تغلف الجوهر الحقيقى الذي أراه في هؤلاء الرفاق».

وقد بقي لورنس شهرين في أوكلسبرج، ثم أُرسّل إلى مركز تدريب وتصوير السلاح الجوي البريطاني في فارنبوره. ولكن في نهاية كانون الثاني/يناير عام 1923، أي بعد أربعة شهور من دخوله سلاح الطيران، أعلنت جريدة الدايلي اكسبريس اللندنية أن «المتطوع في سلاح الطيران جون هوم روس هو نفسه لورنس

العرب الشهير». وذكر لورنس أن الذي كشف سرّه للجريدة كان أحد ضباطه. وقد دفعت له الجريدة ثلثين جنيهاً لقاء معلوماته. وقد أصبح جون هوم روس بعد إعلان سرّه محظوظاً فضول الضباط والجنود والمدنيين، ومزار الصحفيين والمصورين.

ووجد سلاح الطيران البريطاني في هذا مبرراً لطرده من الخدمة في الشهر التالي، بتهمة إخفائه حقيقة اسمه! وقد بلغ لورنس الضيق والألم وقتئذ جداً كبيراً. وأخذ يتصل بالمسؤولين لإعادته إلى السلاح. واتفق هؤلاء المسؤولون مع وزير الطيران اللورد ترنشارد على أن يتحقق لورنس بالجيش، فإذا حصل منه على شهادة حُسن سير وسلوك، عاد إلى سلاح الطيران.

وقد التحق لورنس في آذار/ مارس عام 1923 بسلاح الدبابات، تحت اسم جديد هو جون هوم شو Shaw وكانت علاقته بالكاتب الإيرلندي الكبير جورج برنارد شو قد توثقت، ويقال إن هذا كان هو السبب في اختياره لاسمه.

وقد أرسل جون هوم شو إلى معسكر سلاح الدبابات في دورسيت. ويقال إن لم يكن يأكل خلال وجوده في دورسيت غير شرائح الخبز والزبد، ولا يشرب غير الماء. وأنه كان يحلم أحلاماً مزعجة في نومه، ويقلق، ويتشمّش في أنحاء المعسكر طول الليل. وبعد ستة عشر أسبوعاً من دخوله المعسكر، أعطى وظيفة كاتب في أحد المخازن. فتوفّر له الوقت والهدوء كي يعمل في كتابه «الأعمدة». وأن يترجم قصصين فرنسيتين للإنجليزية نشرهما له الناشر الإنجليزي جوناثان كاب.

وفي هذه الأثناء ابتنى لورنس كوخاً بسيطاً إلى جانب المعسكر، وقد باع خنجره المذهب الشمين كي يؤسس بثمنه الكوخ. وقام له بهذا العمل صديقه كلاريدي هيل. «وكان أثمن ما في الكوخ فوتograf وأسطوانات كثيرة أهداه له كلها شارلوت، زوجة جورج برنارد شو». كذلك أهداه زوجها، الكاتب الإيرلندي الكبير، دراجة بخارية. وقد اتصل لورنس بعد هذه الهدية بصناعة الدرجات

البخارية الشهير بروج، وحصل منه خلال الأعوام الثمانية التالية على ثمانى درجات بخارية سريعة، واحدة من كل طراز آخرجه بروج خلال الأعوام التالية. وأصبحت قيادات الدرجات البخارية هي هواية لورنس، ووسيلته المفضلة للانتقال من الكوخ إلى المعسكر ولزيارة أصدقائه ومعارفه النيليين. وكثيراً ما كان لورنس يقطع مئات الكيلومترات وبسرعة تجاوز المائة كيلومتر في الرحلة الواحدة.

وتجدير بالذكر أن أحد زملاء جون هوم شو في سلاح الدبابات، بروس، قد اعترف بعد وفاة لورنس بسنوات لصحيفة الصنداي تايمز اللندنية، أنه كان يمضي مع شو سهرات «مازوكيه» طويلة يجدهم خلالها بروس لورنس بقصوة على ظهره! وقد تساءل النقاد بعد ذلك عن حقيقة تلك «الممازوكيه» في لورنس. وهل كانت جنسية أم نفسية؟ وهل أراد بها إطفاء شهواته أو تخفيض نفسيته؟!

### ورقة سقطت عن شجرتها في الخريف

بقي جون هوم شو في سلاح الدبابات عاماً كاملاً، ثم طلب عودته إلى سلاح الطيران. ولكن المسؤولين في هذا السلاح رفضوا طلبه. فأخذ لورنس بشكوه، ويوسط معارفه في أمر عودته لسلاح الطيران. وعندما فشلت مساعديه، نقل إلى صديقيه الكبارين شو وبوخان نيه الانتحار. وتحدث جورج برنارد شو إلى رئيس الوزراء بولدوين، وتهدهد بفضيحة هائلة إذا نفذ لورنس تهدیده لعدم الوفاء بعودتهم له. وقد أعيد جون هوم شو في بداية صيف عام 1924 إلى سلاح الطيران، وعمل عاماً ونصف العام في كلية كورنوبل، حيث كتب ملخصه «ثورة في الصحراء» ثم انتقل منها في كانون الأول / ديسمبر عام 1925 إلى الهند.

ويقال إن لورنس لم يكن يفضل سلاح الطيران على صلاح الدبابات إلا لسبب واحد، هو أن الأول قد رفضه، وتحدى إرادته في العمل به! ويقال إن السبب

في طلبه الانتقال إلى الهند كان قرب صدور كتابه «الأعمدة» وكتاب جرافيز عنه، وتهييه ما سيلاقيه الكتابان من النقاد والجمهور !

على أن هناك من يقول إن جون هوم شو كان قد أرسل في مهمة سرية للمخابرات البريطانية إلى أفغانستان. فإنه بعد أن لزم ثكنات سلاح الطيران البريطاني في كراتشي شهراً، أُرسل إلى قاعدة نائية في منطقة متنازع عليها على الحدود الأفغانية، هي ميرانشاء. وهي قاعدة صغيرة كانت تضم وقتها 5 ضباط و26 جندياً بريطانياً وعدة مئات من الجنود الهنود. وقد ذكر لورنس أن ذهابه إلى ميرانشاء كان بناءً على طلبه، بعد خلافه مع رؤسائه في كراتشي. وقيل إنه قبض عليه على الحدود الأفغانية بينما كان يساعد الثوار الأفغان على عبور الحدود، واشترط الملك الأفغاني أمان الله للإفراج عليه أن يعود إلى إنجلترا !

وكانت الصحف الأمريكية هي أول من اكتشف وجود «لورنس العرب» في المنطقة المتنازع عليها على الحدود الأفغانية، واتهمته بالتجسس ضد حكومتها. ثم ردت الصحف السوفيتية والاشتراكية الغربية تلك الاتهامات. وتقدم النائب العامي البريطاني آرنست ثورتل بعده أسلة في مجلس العموم، تسأله فيها عن حقيقة مهمته لورنس على حدود أفغانستان. والجدير بالذكر أنه عندما سحب لورنس من الهند إلى إنجلترا، كانت الثورة الأفغانية قد قادت، وأطاحت بالملك أمان الله !

وقد عاد جون هوم شو إلى إنجلترا، وألحق بقاعدة كات ووتر. ولكنه واجه عاصفة من الاتهامات في كل مكان. وقد حاول لورنس أن يدحض هذه الاتهامات بنفسه بمقابلة مثيرها والتحدث معهم، فقابل النائب ثورتل. وواجه بعض الزعماء الاشتراكيين من قاموا بمحظيات كبيرة في لندن أحرقوا خلاها دمى كبيرة له !

وتعدد خطابات لورنس من الهند ما لاقاه هناك من وحدة وألم. ولا تخفي «أشمتسازه» من الهند ! وعلى العكس، تمنع لورنس في معسكر كان ووتر الذي عاد

إليه بصداقه قائد المعسكر سيدني سميث. وكان يتردد عليه في منزله، ويميل إلى مجالسة زوجته وابنته. ولكن لورنس ظل مع هذا يشكو الملل والرتابة:

«يجيء فجر اليوم، فتشرق الشمس. ثم يأتي المساء. فأنا. ماذا فعلت؟ وماذا أفعل؟ وماذا يراد بي أن أفعل؟ هذا ما يحيبني؟ كأنني ورقة شجر سقطت عن شجرتها في الخريف، ولا تعلم ماذا يتنتظرها، هذا هو شعوري».

وفي عام 1930، جددت خدمة لورنس في سلاح الطيران البريطاني خمس سنوات أخرى. ونقل إلى قاعدة مونتباتن في بليموث ساوند. وتوثق علاقه في هذه الأثناء بعضو مجلس العموم البريطاني عن بليموث: الليدي استور. وساهم في تطوير الزوارق البخارية لاستخدامها في أعمال الإنقاذ. ونظم سباق شنيدر تروفي للطائرات البحرية. وهناك من يعتبر عملية الآخرين من أجل الأعمال التي قام بها طوال حياته.

وكان لورنس قد بدأ يقلق على حياته منذ عام 1934، أي قبل عام من تركه سلاح الطيران. فكتب إلى الليدي استور: «هناك شيء ما قد تلف في»! وذكر عنه الدكتور التونسي «إنه كان يعالج من انتفاخ عصبي وضعف في قواه العقلية». ورجح أن السبب هو السفلس الوراثي ! وعندما ودع لورنس سلاح الطيران في عام 1935، وذهب إلى كوخه في كلاودزهيل بدورست وجد الصحفيين والمصورين وال العامة يحاصرونه. فلم يكن يخرج منه إلا لاماً. وكان لورنس يفكر في إعادة تحرير مشروع مطبعته. وقد مالت أفكاره إلى الفاشية. وناصر حركتي هتلر وموسوليني الفاشيتين.

ولكن في 13 أيار/مايو عام 1935، أرسل له أحد أصدقائه يطلب تحديد موعد في كوخه كي يتحدث معه عن «الحرب القادمة بين بريطانيا وألمانيا». وركب لورنس دراجته البخارية، وذهب إلى مكتب البريد القريب في موفينجتون، وأبرق له

بالميعاد. وبينما هو عائد بدراجته البخارية، بالسرعة الكبيرة التي اعتادها، حاول أن يتتجنب عقب منحنى في الطريق، صبيين يركبان دراجتيهما متبعادين كل منها عن الآخر، شاغلين أكثر عرض الطريق. فانقلبت دراجة لورنس البخارية، وطُرِح بعيداً عنها. ووقع على ججمته وكسرها. ولم يعد لورنس بعد ذلك إلى وعيه. وقد توفي عقب هذا الحادث بستة أيام بسبب التهاب رئوي أصيب به على سرير مرضه. ولكن طبيبه قدر أنه لو لم يتم بالالتهاب الرئوي لظل مشلولاً بقية حياته.

ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة التي أصابت لورنس من دراجاته البخارية. فقد سبق له أن أصيب بعدة حوادث، وهشم دراجتين من دراجاته البخارية تهشيمياً كاملاً.

وقد دفن لورنس في مقبرة موريتون القريبة من كوخه، من دون كما طلب أية علامات على صندوقه. وحمل جثمانه ستورز، ونيوكومب، وليفنجتون، ونورولز وممثل لسلاح الطيران وأخر لسلاح الدبابات. وكان من حضروا الصلوة على جثمانه ونستون تشرشل واللنبي استور. وقد نعى جريدة التايمز اللندنية بعرض صفحتها الأولى، كما تفعل مع رؤساء الوزارات. ووضع له تمثال نصفي في كاتدرائية القديس بول في لندن.

### حقيقة شذوذ لورنس

ذكرنا أن لويد جورج، وكذلك اللورد اللنبي، لم يعرفاً قط مقدار إخلاص لورنس، وكم في أعماله من جد وكم فيها من تهريج. وذكرت شالوت، زوجة جورج برنارد شو، أن لورنس كان «يقف وسط خشبة مسرح مكشوف، وقد سلطت عليه عشرات الكشافات، ومع ذلك يشير إليه الجميع ويقولون: انظروا، إنه يحب حجب نفسه، ويكره الأضواء»!

وكتب الكولونيل ريتشارد مينز تسهاجن في يومياته، أنه قابل لورنس لأول مرة في كانون الأول / ديسمبر عام 1917. وقد أعجب به. ولكن «مبالغاته» تبيّنت له على الفور:

«وهي مبالغات بالونية. والحقيقة أنه هو نفسه كان غاية في الطموح، وكثيراً ما ادعى ادعاءات كبيرة وغير معقوله، بينما يبدو لك خجولاً كفتاة صغيرة».

إلى أن يقول:

«القد حق لورنس كل ما حلم له، ولكن تسليم العرب من حوله به، وتصديقهم لجميع أقواله، أخافه، فجزع، وخسر في النهاية حياته».

ومن مبالغات لورنس التي عددها للليل هارت قوله إنه قد أصيب بستين جرحاً. وأنه قد طار 2000 ساعة طيران. وأصيب بسبعة حوادث مميتة، كانت آخرها حادثة طائرة هاندلل بيغ قرب روما في عام 1919. وقد ظلت آثار هذه الحادثة الأخيرة تؤلمه إذا ما ضغطت ضلوعه على رنته عند قيامه بمجهود كبير حتى آخر أيام حياته.

ويقول الماجور باكتسون، وهو من عملوا مع لورنس في سلاح المجانة في الحجاز:

«القد اقترب اسم لورنس عند كل عربي في هذه البلاد بالشجاعة، وقوة الشخصية، والكفاءة في نسف خطوط ومركبات السكك الحديدية. ولست متأكداً إذا كان السبب في هذا هو حنكته، أو الغموض الذي أحاط نفسه به، أو انتفاع بعض أبناء القبائل العربية من عملياته التي كانوا يسلبون فيها وينهبون. ولكن الواضح أن تأثير لورنس على العرب، وبعض زملائه البريطانيين، كان كبيراً جداً. وأن لورنس كان يعيش بكل خلية من خلايا جسمه مع العرب: يلبس لباسهم،

ويأكل طعامهم، ويشارك في هوم أقل رجالاتهم. وقد كان يُرى خلال هذه الأوقات مرتدياً لباسه العربي الأبيض الناصع، وفي وسطه خنجره الشميم، حتى أطلق عليه اسم «أمير مكة».

ويلاحظ أن اسم «أمير مكة» الذي أطلق على لورنس قد أذاعه في الغرب الكاتب الأميركي لوويل توماس منذ آب/أغسطس عام 1919 كما سيجيء. وأنه أطلق عليه أيضاً اسم «أمير مكة».

وقد وجد لورنس من بين القادة والكتاب الغربيين كثرين من آمنوا به واعترفوا بعقربيته. ومن هؤلاء ونستون تشرشل، والمؤرخ العسكري ليدل هارت، الذي عده من قادة التاريخ. وروبرت جرافيز الذي اعتبره بطلاً ومبوداً للجماهير. وعلى العكس من هؤلاء، نجد الدينجتون يتهمه بالملائحة والكذب. ويأنه لم يحصل 79 كوبريا كما ادعى، وإنما سبعة فقط. ولم يحارب إلا في موقعة واحدة هي تافيله، وقد قادها من دون خطة أو إعداد». كذلك اتهمه مالكوم ماجريدج بأن أكاذيبه كانت مفضوحة. وأنه قد حاكها لتفخيم ذاته وتمجيد أعماله. وهذا لعدم نضوج شخصيته، وعجزه عن تفهم حقيقة أمره. ولكن تعامل لورنس مع العرب بتلك الشخصية غير الناضجة، جعل باستطاعته، كما يقول ماجريدج «فهم حقيقتهم بسهولة وترجمة ما في نفوسهم من رغبات مكبوتة».

ويؤكد كريستوفر سايكس أن شخصية لورنس «لم تكن سوية». ويظن الدينجتون أن السبب في هذا هو الصدمة التي أصيب بها وهو بعد صبي عند اكتشافه عدم زواج والديه. وقد اعتبر لورنس أن هذا العمل قد حرمه من نسبة وثروته. وقضى على طموحه وأماله. وحتى بعد ما ذاعت شهرته رفضت أسرة والده أن تعرف بأية صلة لها به.

ويضيف الدينجتون إلى هذا تفضيل لورنس مصاحبة الذكور على الإناث. بل وكراهيته الشديد للأخيرات. وعدم اعترافه بأي امتياز أو عبقرية سياسية أو أدبية أو فتانية. ويقول إنه حتى في التمثيل الإنسانية، وجد لورنس أن تمثيل الرجال تميز على تمثيل النساء بالتناسق والجمالية ! وليس من شك في تأثير لورنس في هذا بالإغريق، وبقراءاته الإغريقية، وهي التي جعلته يتقبل الشذوذ الجنسي عند بعض العرب، كما يقول بيرتون ودافني، من دون أن يشارك فيه !

ويقول الدينجتون أن بعض الفقرات التي كتبها لورنس في «الأعمدة» توحّي باقترابه إن لم يكن اشتراكه في علاقات جنسية شاذة. ولكنه ينكر تأكيد أيه ويلسون وجولييان سيمونز له بالشذوذ السافر. ويتجاهل ما ذكره أم فوستر من أنه رأى لورنس يختلط بأشخاص يبدو الشذوذ على محياهم. ويوافق سايكس، على أن لورنس «ربما لم يعرف الجنس في حياته». وإلى أن «عذريته» كانت بعض أسباب محنته. ويتفق نامير وكيرتيس وليلد هارت على أن هذه العذرية كانت بعض أسباب تطوع لورنس في سلاح الطيران البريطاني «كت نوع من حياة الرهينة».

والواضح أن لورنس كان يحتقر الجنس، ويقطن المتعة الجنسية إليها. ويعتبر، كما كتب لشارلوت شو، أن مشاركة المرأة فيه تحفّر لها. ولو أن ما قد يعرضها عنه هو ولادتها للأطفال. وقد كتب لورنس في إحدى خطاباته:

«إن من المؤكد أن العالم كان يكون أكثر نظافة، إذا كنا موتى أو فاقدين لعقلتنا. لأن الحقيقة هي أنها جميعاً مذنبون. فلولا الفحش ما كنت أنا أو أنت. وكل ما هو لحم نتاج لحظة تحركت فيها الرغبة، وتغلبت، وظفرت. وهي رغبة لا يلام عنها الوالدان فقط، وإنما إلى حدّ ما المولود أيضاً. فإنني أظن أن الآباء تحرك الآباء لإنجابهم، وتثير الشهوات في أجسامهم» !

وينفي الدينجتون كل ما قيل عن علاقة شاذة لورنس بالشيخ أحمد وغيره. وينفي ما أشيع عن علاقة له بجاسوسية يهودية، ظفر بها الأتراك خلف خطوطهم في عام 1917، وقتلوها. وهي سارة أروفوسون. ويعتبر ما اتهم به من شذوذ جنسي «مازوكيّة نفسية» عانى منها لورنس طوال حياته. وعمّلت في فلقه، وعدم استقراره، وكابتة، واحتقاره لنفسه.

وقد أرجع بعض النقاد هذه «الممازوكيّة النفسيّة» إلى طفولة لورنس، وتعذيب والدته القاسي له. وقالوا إن هذا هو السبب في عدم اهتمامه بالنساء طوال حياته. وفي عدم وقوعه في الحب، وإن لورنس لم يحب حتى الأطفال والحيوانات الصغيرة كالكلاب، وإن لم يحب أيضاً إيمان ذلك الحب الرومانطيكي الذي وقع فيه غيره!. وعندها جاءت حادثة درعا في نهاية عام 1917، حين أسره الأتراك، وعذبوه، وربما اغتصبوه، تكشفت للورنس أشياء كثيرة عن نفسه. فازداد كرهًا للجنس ورغبة في إذلال جسده. ولكنه أخذ يطغى شهواته بعد ذلك بتلك «الحفلات الليلية» التي كشف عنها الستار بعد وفاته زميله السابق في الجيش «روس».

يقول لورنس في «الأعدمة»: «إن العذاب كان راحة لنفسى. وقد احتملته عن طيب خاطر. وعذبت نفسى برضائى، ووجدت فى هذا التعذيب متعة لا تبلغ الإثم الذى سببه لي ميلادى».

\* \* \*

ولد لوويل توماس *Lowell Thomas* في ويدننجتون بولاية أوهايو بالولايات المتحدة في 6 نيسان / إبريل عام 1892. ودرس في مدرسة كريبل كريبل وجامعة شمال كلورادو وبرنستون. وعمل صحفياً في كلورادو. ثم تعرف لوويل توماس على الرئيس الأميركي ويلسون في جامعة برنستون. فلما أصبح ويلسون رئيساً للولايات المتحدة، طلب منه لوويل توماس أن يسمح له بالعمل في حكومته.

وقد عينه ويلسون في وزارة الخارجية فترة وجيزة من الزمن ثم قرر إيفاده إلى أوروبا كي «يوضح للشعب الأميركي جهود البريطانيين في الحرب العالمية الأولى». سافر لوويل توماس في عام 1917 إلى فرنسا، ثم إلى إيطاليا. ولكن «حرب الخنادق» فيها لم تعجبه. فطلب الالتحاق بقيادة للنبي. وهناك سمع بلورنس «البريطاني النحيل ذو الشعر الأشقر والعيين الزرقاوين، والذي يرتدي العباءة ويضع العقال العربي، ويحمل خنجر أمير مرصع في وسطه». ثم قابل لوويل توماس لورنس في العقبة ثم في سوريا. وقد ذكر لورنس بعد ذلك أنه لم يجتمع بلوييل توماس غير اجتماعين قصيرين خلال تسعه أيام، وأنه لم يتحدث إليه طریلاً. ويقال إن لوويل توماس قد سمع أكثر ما ردده بعد ذلك عن طريق عدد من أحاطوا بلورنس.

ومهما كان الأمر، فقد عاد لوويل توماس إلى نيويورك في عام 1919، ومعه أشرطة أفلام وصور سحرية كثيرة. وكانت السينما وقتها في بدايتها، والإقبال عليها شديد. فبدأ يتحدث ويكتب عن العرب، والصحراء، والمدن المقدسة، والنبي، ولورنس، والنساء المحجبات! ولاقت أحاديثه وعروضه المسرحية إقبالاً كبيراً من المستمعين والمشاهدين الأميركيين.

وقد بدأت عروض لوويل توماس في نيويورك على مسرح سينثري، ثم انتقلت إلى أهم مسارح المدينة في ذلك الوقت «الماديسون سكوير». وبينما هو يتفق على الدوران بعروضه على مسارح الولايات المتحدة، شهدتها رجل المسرح الإنجليزي بيarsi بيরتون. فعرض على لوويل توماس أن ينظم له رحلة إلى لندن لعرضها هناك. ولم ينشأ لوويل توماس، سابق ارتباطاته، أن يرفض عرض بيরتون. فاشترط عليه أن يكون العرض على أحد مسارح لندن الكبرى كالكونفنت جاردن. وأن يحضره ملكاً بريطانياً. وقد حقق بيরتون للوويل توماس شرطيه. وبدأت عروض لوويل توماس

على الكوفنت جاردن بلندن في آب/أغسطس عام 1919، ثم انتقلت إلى الألبرت هول، وأهم مسارح لندن وإنجلترا، ثم العالم، طوال العامين التاليين.

وقد دفع هذا النجاح لويド جورج إلى تحريرض لوويل توماس على تأليف كتابه «مع لورنس في بلاد العرب *With Lawrence in Arabia*» الذي طبع منه في طبعته الأولى 20,000 نسخة نفذت في ساعات. ويقال إن أغراض لويد جورج كانت سياسية وحزبية، وإن الحكومة قد شاركت في تضخيم أسطورة لورنس لأغراض عديدة كان من بينها الموافقة على زيادة الميزانية وإيجاد التأييد الشعبي لسياساتها الخارجية.

ومهما كان الأمر، فإن لوويل توماس كان أصل أسطورة لورنس. وأحد الدعاة الأول «للفالستينو» البريطاني الذي حكم الصحراء والبدو، ونصف خطوط ومركبات السكلك الحديدية، وفتح المدن، وهزم الأتراك، وهي الأسطورة التي شارك فيها بعد ذلك جرافيز وليدل هارت وغيرهما.

\* \* \*



## مختارات من رسائل لورنس

بين يدي القارئ ترجمة لعدد من رسائل لورنس، انتُخبَت من بين حوالي ستة رسالة كتبها بين سنة 1906 و 1935 . قام بجمع هذه الرسائل وحققتها وأعدَّها للنشر ديفيد غارنت.

نشرت هذه الرسائل التي اختارها عمر الكتاب من بين مجموعة الرسائل التي كتبها لورنس في حياته بعد أن جمعها من عائلة لورنس وأصدقائه ورتبها بتسلاسل زمني حسب تواريخ كتابتها. كما قام غارنت بالتعليق على بعض هذه الرسائل، وقد وضعت تعليقاته داخل أقواس مربعة [ ]، لتمييز كلام المعلن عن نصوص الرسائل.

ومن بين مجموعة الرسائل المنشورة في الكتاب المذكور قمت بانتخاب ما يتعلق منها بتاريخ المنطقة العربية خلال الحرب العالمية الأولى والفترة التي تلتها .. وهي الفترة التاريخية التي شهدت كفاح العرب في سبيل استقلال بلادهم. حرصت في هذا الجزء من الكتاب أن أكون على أقصى ما أستطيعه من الأمانة العلمية لكي تولد الترجمة العربية وهي تعكس بصدق روح الكاتب ووجهة نظره في أمور المنطقة، وما يراه ملائمةً لمصلحتها حسب وجهة نظره الشخصية، والتي قد لا تتلاءم مع وجهة نظر أبناء الوطن العربي في تلك المرحلة التاريخية، أو المراحل التي تلتها.

## إلى المسز ريدر

18 أيلول / سبتمبر 1914  
2 بولستيد روود - أكسفورد

عزيزي المسز ريدر

قبل خمس دقائق وصلني منك مسدسان<sup>(١)</sup>، ولما كان البريد سيذهب بعد قليل لذلك سأكتب لك بضعة سطور لأنحرفك بذلك. إن المسدسين كما أردتها تماماً وإن كرمك في إرسال اثنين منها لأمر عظيم.

يعمل فرانك برتبة ملازم في الفوج الثالث كتيبة غلوستر وهو الآن يتدرّب مع سريته قرب وولج؛ وإذا ما انتهى من تدريبه وكان هنالك محل شاغر في الكتيبة في الجبهة فسيتم إرساله هناك. أقوم الآن بكتابة مؤلف عن موسى وتجواله، لأن المسؤولين في مصر يدعون أنهم بحاجة لي، غير أن الوقت لم يحن بعد، كما أن وزارة الحرب لا تقبلني إلا إذا تمكنت الدوائر العسكرية في مصر أن تستغني عني.

يتتبّني خوف شديد من أن الأتراك لا ينورون الدخول في الحرب. فقد يكون من الخير أن نصغر من حجمهم لجعلهم مجرد آسيا الصغرى. والأمر كلّه يعتمد على ما إذا كان أنور سيطلق لنفسه العنان مرة أخرى. إنه الآن مصاب بتسنم في الدم ويقيع مكتباً في قصره، سيبعدو من الممتع مشاهدة انهيار الامتيازات التركية. ستركتها تتمتع بالحقوق المالية والاقتصادية في الممتلكات الأجنبية. يعني أن تبقى قادرة على فرض الضرائب على الأراضي والحيوانات التي يملكونها الأجانب في تركيا. إلا أننا سنحافظ على حرمة وقدسيّة المراکز الدينية الأجنبية، وسيتهي عمل

(١) كانت المسز ريدر قد أرسلت من أميركا بمسدسين نوع كولت حسب طلب لورنس. فلقد كانت هناك شحة في المسدسات في بريطانيا لمدة بضعة أسابيع بعد بدء الحرب. وكان لورنس قد ترك مسدسه الخاص في داخوم. المترجم.

دوائر البريد البريطانية، حيث إنها لم تتحقق أية أرباح خلال سنوات. كما أن الأجانب سيسمح لهم بحرية السفر دون الحاجة إلى أوراق رسمية.

وإذا ما رفضت تركيا هذه المقترنات فإن بريطانيا لن تدخل في حرب معها، إلا أن اليونان ورومانيا قد يكون لها شأن آخر بعد أن وعدتا بلغاريا بتصفيتها من الغنيمة مقابل مساعدتها الكريمة. كما أنها بطبيعة الحال ستجدد مبرراً لمحابيتها تركيا دفاعاً عن النفس إذا ما قامت بالهجوم علينا في مصر أو الخليج.

\* \* \*

### إلى المستر فونتانانا

4 كانون الأول / ديسمبر 1914  
أم أو 4 - وزارة الحرب. وايت هول

عزيزي المستر فونتانانا

لا أدرى إن كانت لديك أية أخبار عن المستر فونتانانا؟ سمعت فقط أنه قد وصل مصر ولا شيء غير ذلك، لقد حل معه إلى حلب ما كان يخصنا من كتب وفضيات وسجاد مستحقاً بذلك شكرنا الأبدي. تُرى ماذا حل بالقنصلية؟ علم أنهم قد فتشوها، إلا أنهم لم يعثروا على الأسلحة كما يبدو، ويهمني أن أعلم ماذا حل بشأنها؟

وللي جانب ذلك فقد كان المستر فونتانانا يحاول في أوائل تشرين الأول / أكتوبر أن يجعل أصحابنا يقضون خدمتهم العسكرية في حراسة الموقع. وأتساءل فيما إذا كان قد تمكّن من إنجاز ذلك قبل مغادرته، وأأمل أن يتمكن رجالنا من إخراج كل شيء من الدار قبل أن يستعيدها الأتراك. إنه ليحزنني أن يتمكن أي تركي من أن يصيّبني بمسلسي الخاص. ولكني على كل حال، قد طلبت من الحاج وجد

وداحوم أن يهتما بهذا الأمر، فهما يستطيعان معاً بسعة حيلتها أن يتخلصا من كل شيء داخل القرية.

سيذهب وولي شرقاً بصحبتي، وعلى الأقل سيرحل يوم السبت على بوآخر (بي آند او ٥ & ٧)؛ ثم نرحل أنا ونيوكومب (وهو يرسل لك السلام) يوم الثلاثاء عن طريق البر. لقد مضى على شهران هنا أشرف على رسم خرائط لسيناء، وأكتب تقارير عن المنطقة. والآن سأتوجه إلى القاهرة. إن كل شيء يسير على ما يرام إلا فيما يخص الأتراك. هل هناك ما أصنعه من أجلك في حلب في الربع القادم؟

سلامي إلى بيت، وأخبرني برقياً إذا كان بيت ما يزال يكرهني، وكذلك دانديني<sup>(١)</sup>. وبالمناسبة ماذا تُرى قد حل به؟

لورنس

\* \* \*

### إلى دي. جي. هوغارث

الاثنين 20 كانون الأول / ديسمبر 1914

مكتب الاستخبارات

وزارة الحرب - القاهرة

وصلنا أنا ونيوكومب هنا يوم الثلاثاء الماضي بينما وصل وولي مع أوبري هربرت وأخر اسمه لويد يوم الجمعة. لم يكن هنا على ما يبدو قسم للاستخبارات، وكانتوا يعتقدون أن كل شيء سيكون على ما يرام بدونه، حتى اكتشفوا أن ليس هناك في مصر من يعرف شيئاً عن سوريا. حدث ذلك في اليوم الذي وصلنا فيه هناك، لذلك تخلىوا عن فكرتهم في التخلص منا بواسطة تكليفنا بأمور الطيران،

---

(١) هو القنصل النساوي في حلب كان صديقاً للورنس. المترجم.

وكفونا بدلأً عن ذلك بجمع المعلومات. وليس هذا بالأمر السهل غير أن بيتنا من الرجال من هم هوى في التنقل والسفر، ويعتمل أن هذا العمل سيكون ممتعاً للغاية. يبدو أن وولي كان بالفعل راغباً في العمل في الجيش بصورة دائمة وأن مجده هنا قطع عليه ذلك الطريق. وهو الأمر الأفضل في الواقع.

لدي شك في أن الأمور يمكن أن تجري بأسرع مما تصورت. من الأفضل بالنسبة لكريس أن ينشر ذلك الكتاب في (قانون الثاني-شباط/يناير-فبراير) إن استطاع، أو إن استطعت أنت. أرجو أن لا يكون الأمر شيئاً على ذلك الحد لأن مسودة الكتاب كانت بالتأكيد كأسواً ما تكون. من المحتل أن يتحول الاهتمام نحو الشمال بصورة شديدة في أي وقت، لا بل إنه قد تحول فعلاً قدر تعلق الأمر بنا.

غير أن نشاطنا في الاستخبارات يتميز بالتفوق، أتصور أن هناك نوعاً من الرقابة على عملنا وهو شعور مزعج للغاية، فأرجو أن تخبرني إن كان هنالك فعلاً ما ذكرت. أما تركيا فقد سبقتنا بخطوة، وهي أنها منعت خروج ودخول الأشخاص والبضائع والبريد وأخذت كلية البروتستانت تبعث إلى واشنطن بيرقيات تشكو فيها من ذلك، ويا له من مكان يستغاث به. يعتمد أننا سنكون الوحيدين الذين لن يقطعوا سيل أخبارنا.

وهكذا هي طبيعة الرقباء، كما اعتقد. هنالك في المكتب شخص يدعى تومن من أنسباء بيرس<sup>(1)</sup> وهو يتقن اللغة التركية، ويبدو هذا الأمر جيداً.

يقول غريس إنه سيدفع لنا عن الكتاب، وأشك في ذلك. لكن أرجو أن تقنعه بأن يضع الـوانا على الخارطة أو شيئاً من ذلك. أرجوكم أن لا تضع اسمى على الكتاب وعلى داريبيشر أن يوقع على الخارطة. ونصيحتي بشدة أن تستعجل الأمر.

---

(1) السير أدون بيرس، رئيس المجلس الأوروبي في إسطنبول ومراسل جريدة «ديلي نيوز». المترجم.

كانت تلك البرقيات الخامضة في بداية الحرب باللغة اليونانية وليس فيها ما يستحق الاهتمام.

لورنس

\* \* \*

### إلى دي. جي. هوغارث

18 آذار / مارس 1915

فندق غراند كونتيكتال - القاهرة

سوف لن تخضع هذه الرسالة للرقيب لذلك سوف أطلق لنفسي العنوان. لن يستطيع الأتراك من النهوض، فليس لديهم سوى 50,000 جندي من القطعات الساخطة في سوريا، (و 200,000 في الدردنيل و 200,000 في القفقاس و 50,000 في العراق)، وإن البلد كله مستاء منهم غاية الاستياء. لقد ألحق ابن سعود هزيمة منكرة بابن رشيد آ ومات شكسبير لسوء الحظ في المعركة، وإن الإدريسي في حالة حرب مع الأتراك في العسير، كما أن الشريف قد أعلن عن نفسه تقربياً، فلجماً وإلى الحجاز مع موظفيه إلى دمشق. لقد أرسلنا قطعات من منطقة القتال إلى البصرة كتعزيزات لقطعاتنا (فيبدو أن القطعات الهندية هناك قليلة التماسك)، وستذهب القطعات الأسترالية والنيوزيلندية وبعض الهند إلى الدردنيل للاحتجاق بالفرنسيين وجيش هاملتون هناك. سيبقى لدينا هنا في مصر نحو من 20,000 جندي.

إن الفرنسيين مصرين على سوريا التي ستتنازل لهم عنها، وسيبقى موضوع الإسكندرية التي هي المفتاح لجميع المنطقة كما تعلم. إنها ستكون رأس السكة لخط بغداد، ولذلك فهي المنفذ الطبيعي لشمال سوريا وشمال وادي الرافدين، إنها الطريق

السهل الوحيد من منطقة سيليسيا وأسيا الصغرى إلى آسيا وغيرها ... كما أنها مرفأً بديع للغاية. وبفضل رأس خنزير إلى الجنوب يمكن أن يصبح المرفأ حصيناً تماماً. إنها منقطعة طبيعياً عن سوريا، فلا هي سوريا ولا هي آسيا الصغرى. فإذا ما وقعت بأيدي الفرنسيين فستكون صالحة كقاعدة أمينة لغارات بحرية ضد مصر، ولا تنس أن وجود فرنسا في سوريا، وبفرض التجنيد الإجباري هناك ستتمكن من زج 100,000 جندي نحو منطقة القتال خلال 12 يوماً من إعلان الحرب. ولنفترض صحراء سيناء بالعقبة الكبيرة في موسم الربيع، أو في أي وقت آخر، إذا ما تم بناء خط السكة الحديد (الذي لا بد من بنائه). إن الإسكندرية هي المكان الوحيد الذي يمكن أن يصلح كقاعدة لأسطول بحري لهاجمة مصر بسبب عدم وجود ميناء إنكليزي يمكن أن يستعمل لفرض حصار بحري عليهما، فإن استانبول وسمينة تغلقها الجزر، بينما لا يوجد قبلة الإسكندرية سوى قبرص والتي تحيطها مياه عميقة لا تصلح لإنشاء مرفأً بحري كبير. أما إذا استولت روسيا على الإسكندرية فستكون هذه نهايتها في الشرق الأدنى. وفي كل الأحوال، يحتمل أن يكون الفرنسيون تحت تأثير الروس في الحرب التالية. لذلك أعتقد أن من الضروري للغاية أن نحتفظ بالإسكندرية، ولن تكون بحاجة إلى الاحتفاظ بأي مكان آخر، لا في سوريا ولا في آسيا الصغرى. إن المندوب السامي يؤيد هذا الرأي بقوه، وكذلك الجنرال ماكسويل.

لقد ألح علينا اللورد كيشنر بهذا الشأن، فإن ونستون يبدو غير متأكد منه، وهناك شخص آخر - ليس هو غري - في وزارة الخارجية، ربما باركر، يقف في وجه هذه الفكرة كلياً أعتقد أن بإمكانك أن تحرّك الموضوع.

إن كيشنر يقف وراءك في جميع الأحوال، فهل بإمكانك أن تجد من يوحى إلى ونستون أن هناك نبعاً من البتروول على الشاطئ (وهو ما نصح به المهندسون كثيراً

إلا أن الأتراك رفضوا منح الامتياز) ومخزوننا هائلًا من الحديد قرب دورتيول على عشرة أميال إلى الشمال، وفعلاً كذلك. وأذكر أيضًا أن الإسكندرية قاعدة بحرية طبيعية ممتازة (والتي نحن في غنى عنها، إلا أنها لا نستطيع أن نترك غيرنا يأخذها دون إلحاد الأضرار بنا).

إن ونسنون إذا ما استقر على أمر فهو نائله لا محالة، كما أتصور، وخاصة بمساعدة كيشنر. ثم اذهب إلى وزارة الخارجية إن أمكن، وبين لهم أن فرنسا قد منحت الإسكندرية إلى الألمان بموجب اتفاقية بغداد، واتفقت معهم على أنها ليست من سوريا. واقسم لهم أنها ليست جزءاً من سوريا - وأنت تعلم أن المنطقة تتكلم التركية، وقل كذلك لوزارة الخارجية (وليس لباركر الذي سوف أزهق روحه يوماً ما).

إن احتفاظنا بها أمر في غاية الأهمية، فليس باستطاعة أحدنا أن يراهن على أن فرنسا ستبقى صديقتنا دائمًا. فإذا ما حصلت فرنسا على جميع سوريا جنوبًا من الإسكندرية فينبغي لها أن تقنع بذلك؛ إنها الآن تحاول أن تخادعنا بشأن القدس. لا عليك واترك هذا الأمر كما هو.

إن احتلالنا للإسكندرية بعشرة آلاف من الجنود سيجعلنا أقوياء وستتمكن من قطع ما يلي:

1. طريق المواصلات بين آسيا الصغرى وسوريا.
2. طريق المواصلات بين آسيا الصغرى وبغداد حيث أتوقع أن تكون القوات البريطانية في موقف صعب قريباً.
3. ستتمكن من نجدة قوات القفقاس خاصة بعد أن ينتقل مركز تركيا إلى كوني (قونيا؟).

إن علينا حسب تصوري أن نتوقع نهضة تركيا إذا ما خسرت استانبول.  
فستكون أقوى بكثير عسكرياً، وأقل من ذلك سياسياً.

لورنس

\* \* \*

### إلى دي. جي. هوغارث

22 آذار / مارس 1915 - بور سعيد

وهذه رسالة أخرى لم يرها الرقيب.. لقد أرسلت لك في الأسبوع الماضي  
فيضاً من المعلومات عن الإسكندرية، فأرجوكم أن تحاول وضعها موضع التنفيذ،  
لأنني أعتقد أن تلك هي فرصتنا الوحيدة لمواجهة سوريا تحت حكم الفرنسيين.  
أرجو أن تكون رسالتي واضحة لأنني أرسلها على عجل بحيث لم يتسع لي الوقت  
للتفكير فيها مرة أخرى.

إن هذا الأسبوع شيء مختلف تماماً، أنت تعلم أن حكومة الهند كانت تسيطر  
على المنطقة العربية. وكم أسامت إدارتها لأنه لم يكن بينهم من له اطلاع على سوريا  
أو تركيا، وكانوا يهتمون بالخليج فقط، وبالمحافظة على المدورة في المنطقة الداخلية  
من عدن. لذلك دخلوا في مشاكل معقدة مع إمام اليمن وهو عدو مسموم في  
أحسن حالاته.

ثم نشبت هذه الحرب، وعادت حكومة الهند تمارس لعبتها القديمة في موازنة  
القوى الصغيرة هناك. وأنا أريد أن أجع شملهم جميعاً وأجتاح سوريا عن طريق  
الحجاز باسم الشريف. وأنت علم كم هي كبيرة سمعته في سوريا، ولا يمكن أن  
يتم هذا إلا من قبل الإدريسي، لذلك استطعنا تدبير تحالف بديع وأعطيه كل ما  
أراد؛ ثم رفضت حكومة الهند أن توقع الاتفاق. لذلك صبينا على رأسهم اللعنات،

وأتصور أنني سأذهب مع نيوكومب إلى كونفيدا كمستشارين له. فإذا كان الإدريسي جيداً، كما نرجو أن يكون، فستتمكن من الاندفاع نحو دمشق ونحرم فرنسا من كل أمل لها في سوريا. إنها لعبة كبيرة، بل وتستحق أن نجرب أن نلعبها.

إن حكومة الهند لا فكرة لديها عما نحن بصدده. فلو استطعنا أن نصل إلى العسير فسوف نتمكن من إتمام بقية الأمر، أو أن نحاول أن نتمه. لذلك إذا ما كتبت لك وأخبرتك أنني راحل فستعلم إلى أين. لا يعجبك أن تكون مشتركاً في الموضوع؟ ولو أني لا أستطيع ضمان فرصتي مرة أخرى. ليت حكومة الهند تطلق لنا الحرية بالذهاب، لأن بصاص الفرنسيون بالغضب فيها لو نجحنا؟

أرجو أن تتكلّم عن هذا الأمر الآن.

لورنس

\* \* \*

### إلى دي. جي. هوغارث

1915/4/20

دائرة الاستخبارات العسكرية  
وزارة الحرب-القاهرة

أعتقد أن لن يكون هناك أي مشروع جيد في أي وقت من الأوقات، وأقل ما هناك أن كل شيء يغلي ويضطرب. ويقال لنا أن ننهيًّا لبُدا يوم الخميس من الأسبوع القادم، ثم لن يتحقق ذلك الخميس. وأخيراً ظهرت إلى الوجود قوات حلة البحر المتوسط<sup>(١)</sup>، وهي سيدة التجهيز والتهيؤ، ولا علم لها بالمكان الذي ستذهب إليه، أو بها ستواجهه هناك، أو بها ستفعله. لذلك أخذتنا الشفقة بها ووافقنا

---

(١) وهي القوات التي خطط لها أن تخوض المعركة في غاليلولي وسالونيك. المترجم.

على أن تكون لها قاعدة للاستخبارات ومصدراً للخرايط، فعلينا إذن أن نبقى هنا حتى نهاية الحملة. فذهب مع القوات كل من لويد وهربرت لمساعدتها، بينما بقينا أنا ونيوكومب في موقعنا. أما وولي فهو في بور سعيد لتدبير الأسطول الفرنسي. فالوضع كثيف إذاً، غير أنني بطبيعة الحال ينقضني التدريب كضابط ميدان، ولا أدرى إن كنت أرغب بالذهاب إلى القسطنطينية للقتال هناك. قد يكون تدبيراً سيناً حسبما أعتقد. إن المكان الوحيد الذي يستحق الزيارة هي الإسكندرية، إلا أنهما جيئاً خائفون من الذهاب هناك خشية أن يغير حوا شعور حلفائنا.

لا تزال منطقة القتال صامدة ونسينا أمرها، فإذا كان لتركيا شيءٌ من الحكمة فستغير عليها من وقت لآخر لإزعام حاميتها الكبيرة التي تفتقد المرونة حيث يمكنك أن تسمع فرقعة مفاصلها قبل أن تحرکها بشهانية ساعات. لذلك فإن من السهل الإغارة عليها بالقناص والانسحاب بسرعة قبل أن يتمكن المدافعون عنها من عمل أي شيء.

إن كل شيء يميل إلى النوم، والحرارة هذا النهار تبلغ  $90^{\circ}$  فهرنهايت في الغرفة ويشعر الواحد منا بالكسل والملل.

قبل بضعة أيام اشتريت لك ختماً، وربما سيكون الوحيد الذي سيصلك منا هذا العام، وقد تكون تلك فضيلته الوحيدة، وقد لا يكون من الممكن شراء ذلك في أي مكان آخر سوى القاهرة.

وأبعث إلى ليذر قبضة خنجر تعود إلى القرون الوسطى، أو قطعة من (جهاز الفرس) تم شراؤها في القدس مؤخراً.

أما المسكنة تركيا فلا تكاد تهأسك ببعضها، إن الناس يتهدّثون باستمرار عن انتصاراتها الأخيرة، غير أن الحقيقة هي أن الكلمات لا تستطيع التعبير عن الأسى

نحوها. إن كل أمورها تعاني من الخور، وأكاد أعتقد أن من الخير أن يتنهى أمرها، ولو أن ذلك لن يكون مناسباً بالنسبة لنا. وأرجو أن لا يكون مصير دمشق وحلب كمصير القاهرة. فليس هناك أمر من مبانيها أو أهلها المزعجين.. وكان عليَّ أن أضع فيهم ثقتي قبل ستة أشهر. أما كارجيش فهي قرية يسكنها أنظف وأبه الملاكمة. توقعت أن أجدهك بين هيئة الركن في قوات حلة البحر المتوسط، وعلى كل حال، فليس بينهم شخص معين سوى أحدهم يدعى ويذرز (وهو يجيد التركية)، والعقيد هوكر الذي كان سابقاً في قوات الجندرمة العثمانية عن استحقاق. لم يكن بحوزة قوات حلة المتوسط سوى نسختين من خرائط القسم الأوروبي من تركيا بمقاييس ربع عقدة. وأرجو أن تحصل لي على بعض الخرائط عن شمال سوريا من مجموعة بتلر<sup>(١)</sup>، وقل له أن خرائط 1905 لا خير فيها.

لورنس

[فك الجنرال طاوزند في خطبة يُقنع بها الأتراك الذين يحاصرون قواته في الكوت بفك الحصار عنها مقابل مبلغ من المال. وتبني هذه الخطبة أيضاً اللورد كشر، ونالت قبول الجنرال ليك، القائد العام في العراق. إلا أن معظم الضباط البريطانيين في العراق كانوا معارضين لها لشعورهم بأنها خطبة غير مشرفة. وعارضها كذلك السير بروسي كوكس، باعتبارها تؤذى هيبة بريطانيا أكثر من استسلام حامية الكوت للأتراك. أما لورنس ف قال عنها إنها خطبة غير عملية لأن الأتراك سيرفضونها حتى.]

غير أن الإنكليز بعثوا العقيد بيج وأودري هيربرت ولورنس إلى لفائد التركي خليل باشا لمحاولة إقناعه ليعرضوا عليه مبلغ مليون باون أول الأمر، وإن رفض فعليوني باون لكي يخليل سيل الحامية الإنكليزية المحاصرة في الكوت.

رفض خليل باشا هذا العرض باحتقار، وجلأ بطبعية الحال إلى الإعلان عن تفاصيله، مما أفاد الضرر بسمعة بريطانيا. وعند عودة لورنس إلى مصر، قدم تقريراً عن العراق وجه فيه، على حد تعبير العقيد سترلنوك، انتقاداً إلى نوعية الأحجار المستعملة في الطباعة الحجرية، ونظام رسو السفن على الأرصفة النهرية، وعدم كفاءة الرافعات التي تنفع حمولات السفن، وعدم وجود طريقة منتظمة في إدارة

(١) كان بتلر رئيساً للبعثة الأنثارية الأمريكية. المترجم.

خطوط السكك الحديدية، والنقص في التجهيزات الطبية، وعدم إدراك الميثات الصحية لحاجتهم الحقيقة من المواد الطبية. والأمر الأشد خطورة من ذلك أنه وجه انتقاداً للقيادة العليا وطريقة إدارتها لحملة العراق بصورة عامة.

وأسع ضباط الركن في مصر إلى تخفيف لمحة التقرير قبل أن يعرضوه على السير آرشيبالد موري القائد العام في مصر. لقد كانت زيارة لورنس إلى العراق وانتقاداته الشديدة بداية لمرحلة العداء الذي جعلته له حكومة الهند والسلطات العسكرية هناك، والذي استمر حتى نهاية عمله مع الحكومة. ولم تتحقق آماله بإشعاع نار الثورة بين العرب ضد الأتراك وإراسمه أسس التعاون بينهم وبين الجيش البريطاني. لقد كان آخر ما يفكر فيه الضباط البريطانيون في جيش الهند هو أن يكونوا حلفاء للعرب. كما أن إدارة الهند كانت تتطلع إلى فصل العراق. ولم يجد لورنس من يتعاطف معه في العراق سوى المسر جرترود بيل. وقد وجّه ليديل هارت سنة 1932 أسلمة كثيرة إلى لورنس من بينها الأسئلة والأجوبة التالية:

### كيف وصلتك التوجيهات عن مهمتك في العراق؟

تمكنت من إيجاد صلات بين الدوق الأكبر نيكولا (الروسي) وعدد من الضباط العرب المذمرين (في الجيش التركي) في أرضروم. وقامت بذلك من خلال وزارة المغرب وملحقتنا العسكري في روسيا. لذلك اعتقدت وزارة الحرب أن بإمكانني أن أصنع الشيء نفسه فيما يتعلق بالعراق، فأبرقت بذلك إلى كلابيتن.

### متى أصبحت برتبة كابتن؟

كنت برتبة كابتن في هيئة الأركان، ثم فقدتها بسبب ذهابي إلى العراق، لذلك دُرِّب لي هيديلي رتبة كابتن عملية.]

\* \* \*

### إلى والدته

18 أيار / مايو 1916

نحن الآن في البحر، في مكان ما قرب عدن، لذا سأحكى لك بعض ما رأيته في العراق قبل فوات الوقت. وعليك أن تغفري لي سوء الخط، لأن السفينة تهتز بشكل غير عادي. انطلقت إلى هناك في الثاني والعشرين من آذار / مارس كما

أخبرتك، على مركب يسمى رويدل جورج، وهي باخرة كندية مرمرة، فوصلنا الكويت دون أن يحدث ما يستحق الذكر. وفي الكويت، وهي مرفأً ينفتح واسعاً على البحر تحيطه كثبان رملية واطئة ويتسم بالقفر سوى المدينة التي انتظم بناؤها، انتقلنا إلى سفينة بريد سريعة (تسمى أليفانتا) ذات حمولة 6000 طن.أخذتنا هذه السفينة عبر الحاجز الطيني في مدخل شط العرب صاعداً إلى البصرة نهاراً. كان اجتماع النهر مع البحر عند الحاجز الطيني بارزاً بشكل واضح، لأن ذلك النهار كان هادئاً. كان النهر يصب في البحر بسيل رمادي - أخضر ثم يتوقف هذا السيل فجأة عند البحر الذي كان لونه غامق الزرقة. كان الحد واضحًا بين جهتي الماء بحيث يمكن للمرء أن يضع قدمًا في كل جهة من الجهتين.. ولم يكن الخط الفاصل مستقيماً حيث كانت حركة المد تدفعه من عدة جهات، كما يمكن متابعته لبعضه مثاث من الباردات على جانبي السفينة. وعمق هذا الحاجز الطيني ثانية عشر قدماً عند ارتفاع المد، إلا أنه في الحقيقة ليس سوى طبقة من الطين السائل الذي تشقه السفن عند عبورها. وبينما متظر رفاس السفينة غريباً وهو يقلب هذه المادة كأنها عجينة من الشوكولاتة.

[إجمال 49 سطراً].

لا أدرى بالحقيقة ماذا أقول عن البصرة ذاتها. إن ازدحام السفن في النهر هو الدليل على أنها وصلنا، وكذلك وجود عدد قليل من البيوت عند ضفة النهر. أما المدينة نفسها، فتقع على مسافة ميلين أو ثلاثة عن شط العرب على امتداد نهر فرعى لا يتسع عمقه إلا لقوارب صغيرة. إلا أن مقرنا العسكري يقع عند ضفة شط العرب، ثم إن هناك عادة الكثير من الزوارق الصغيرة على امتداد الساحل، غير أنه ليس هناك أرصفة أو مستودعات أو طرق أو أي شيء يدل على أن هناك ميناء، بحيث لا يستطيع المرء أن يحلم بأننا نحتل هذا المكان منذ شهور وشهور.

وعندما نزلت البر كان المطر ينهر وقد خيم الظلام. وكان الضابط الذي اصطحبني قد جاء معه بمصباح، فانزلقنا فوق شيء أشبه بالصابون الذين (أو التوف) لمسافة ثلاثة ياردات. ثم تحسن الطريق لأنهم قد وضعوا طبقة من الحجارة فوق الطين فاستطعنا أن نتصبب واجتنزا حديقة نحو دار المقر العسكري (ولا أدرى كيف تمكن حذائي أن يقاوم قوة الطين الصمغى في بداية الطريق). كانت الدار منيعة ضد المطر، وهناك وجدت المسز بيل وكامبل - تومبسون، وهكذا انتهى الأمر بسلام.

[إهال 43 سطراً].

لم أبق في البصرة سوى ثلاثة أيام، لأن القائد العام وكافة هيئة ركته كانوا في الجبهة. وأعطياني ضابط القاعدة شيئاً من البسكويت وعشرة أرغفة من الخبز وعشر علب من المربي ومثلها من اللحم ووضعيوني على متن سفينة بخارية صغيرة كانت تعمل سابقاً كعبارة في (أيرواودي). كان قسمها الأسفل مشغولاً بالمحركات وقسمها العلوي مسطحاً منسطاً تظلله سقية. وكان القسم الأمامي من السطح مشغولاً من قبل حوالي 150 جندي محلي، ووراء مدخنة السفينة كان هناك فضاء صغير جلس فيه عشرة كنت من بينهم، ولدى كل واحد منا عشر علب وغير ذلك. وعلى كل جانب من جانبي السفينة البخارية ربطت جنية (barge) حديدية طولها مائة قدم مُلئت بالخطب والعلف والأهال. وكان الغرض من ربط الجنبيتين بالسفينة أن تزيد حمولتها أولاً، ثم أن تعمل على حمولة مجاذيف دواليبها إذا ما اقتربت من شاطئ النهر.

شرعنا بالحركة بعد الظهر، وسرعان ما بدأ المطر، لذا لجتنا إلى الفراش.

[إهال 90 سطراً].

إن العرب في هذا البلد أشداء للغاية، أشد وأفقر من الناس في جرابلس، إلا أنهم مرحين وكثيري الكلام. إنهم يقضون حياتهم في الماء ولا يجدون عليهم أنهم انتبهوا إلى ذلك. سوف لن أنسى منظر الفيضان الذي غطى أرضاً سعتها عشرين ميلاً تقريباً طولاً وعرضأً بالقرب من قبر عزرا (العزيز)، حيث فاض النهر على ضفتيه إلى أبعد من مدى البصر. وفي وسط هذا الفيضان كان ثلاثة رجال يخوضون الماء إلى حد رقبتهم وهم يتلمسون بأرجلهم حافة النهر المغمور ساحبين وراءهم (مهيلة) حملة معاكسين مجرى الماء. لا بد أنهم قد سحبوها وراءهم سباحة أو خوضاً لمسافة عشرة أميال، وأقرب أرض يابسة يأملون الوصول إليها على هذه الشاكلة لن تكون أقرب إليهم من عشرة أميال أخرى.

[إنهال 33 سطراً].

وعند الجبهة وجدت مقر القيادة يعيش في باخرة نهرية ذات سقية حسنة وصالون، ومكثت معهم حوالي ثلاثة أسابيع حتى سقطت الكوت. لقد خسرنا الكثير من الرجال في بداية محاولتنا إنقاذ الخامسة المحاصرة، ثم بذلك كل جهدنا مرة أخرى. وفي النهاية أصابت التعب الجميع، ثم تحسن الطقس فخرجت أعداد هائلة من الذباب، فكانت السقية تتحول فجأة عند غريب الشمس من اللون الرمادي إلى اللون النبي عندما تخطى عليها أسراب الذباب والبعوض. وكان على أفراد الخيالة أن يسيروا أحياناً بسرعة المشاة لكتافة البعوض الذي كان يمحق عنهم الرؤية.

وذهبنا أنا والعقيد بيج وأودري هربرت (الذي كان معنا في القاهرة) لنواجه القائد العام التركي، لترتب معه إن أمكن مسألة إطلاق سراح الأسرى المصابين أثناء الحصار. رفينا من خنادقنا الأمامية رايات بيضاء ثم نهضنا ومشينا نصف مسافة الخمسة ياردة التي كانت تفصل بين خطوطنا الأمامية وخنادق الأتراك. حضر عدد من الضباط الأتراك مقابلتنا فيما بيننا لهم ما نريد. كانوا على ما يظهر قد

أصحابهم التعب من إطلاق النار، لذلك أبقونا جالسين هناك مع رايتنا البيضاء كهدنة مؤقتة، بينما بعثوا بالخبر إلى خليل، وعند العصر عصبوأ علينا وساروا بنا عبر خطوطهم مسافة حوالي عشرة أميال إلى الغرب (حتى مسافة أربعة أميال عن الكوت)، حيث مقر قيادة خليل باشا، وهو ابن أخي لأنور باشا. وكان تعرض لاندحار كبير في جهة القفقاس، لذلك بعثوه كقائد عام في العراق أملأ في أن يكتسب شهرة بذلك. ويبلغ من العمر 32 أو 33 سنة، جم النشاط والحيوية، غير أنه تنقصه البراعة والذكاء كما أعتقد. وخطابنا بالفرنسية وكان مؤدياً جداً، غير أنه بطبيعة الحال كان يمسك بجميع الأوراق فلم نستطع أن نحصل منه على الكثير. وعلى كل حال، فقد وافق على إطلاق سراح ألف أسير من الجرحى بدون أي شرط سوى إطلاق سراح عدد ماثل من الأسرى الأتراك، وهو أقصى ما كنا نطمع فيه. قضينا الليلة في معسكره وقدموا لنا أفسر عشاء على الطريقة التركية، وانسست له أنا وأويري، إلا أنه كان شيئاً جديداً بالنسبة للعقيد بيج. وفي الصباح أقبلنا نظرة على مدينة الكوت عن بُعد، ثم عدنا إلى خطوطنا معصوبين الأعين كالسابق. اصطحبنا معنا ضابطين تركيين شابين كان أحدهم صهراً لأنور باشا وعادوا بعد ذلك من معسكراً إلى الكوت على متن السفينة التي أرسلناها لنقل الجرحى.

لقد أخذ الشعور العدائي بين العرب والأتراك يتواتي بحيث لم يعد خليل باشا يثق بأي من العرب في خطوط النار. لم يعد لدينا بعد ذلك ما تفعله، فعاد ضباط ركن المقر العام إلى البصرة. وصلنا هناك حوالي الثامن من الشهر وقضيت أربعة أو خمسة أيام أرتب الأمور، حتى بدأت رحلة العودة ومعي على ظهر السفينة جنز الاسمي *Gillman* من قرب أبنكden وهو حسن الصحبة، ونحن نجلس على السطح نكتب التقارير واللاحظات طيلة النهار. كان الطقس في البصرة قد بدأ يصبح حاراً عندما غادرتها، غير أن أقصى درجة حرارة وصلناها كانت 105°.

فهربنا في الظل، ولم نصادف أي نهار أو ليل بارد لحد الآن، فمقياس الحرارة لم يبيط تحت الثنائيين وذلك ما يسرني. وأتوقع أن يكون البحر الأحمر على الشاكلة نفسها. ترى هل أخبرتك في رسالتي السابقة عن العاصفة البديةة التي صادفناها في الكويت؟ كنا على ظهر الباحثة رويدا جورج وابتدأ البرق في الثالثة عصراً، وكثير البرق بعد الغروب، ولما كانت الساعة التاسعة أخذ البرق يظهر من ثلاثة جهات بدون انقطاع تقريباً. كان الرعد قليلاً ولم يسقط المطر سوى لبعض دقائق. كان ويمض البرق كالقهاش المخرم المنثور عبر السماء بلون أخضر غامق يصحبه صوت فرقعة يكاد لا ينقطع. كان ضوء البرق يساعدنا على رؤية ما حولنا بوضوح لمسافة ميل أو ميلين. كان البريق القادر من جهات ثلاثة يترك انطباعاً بالغرابة المخيفة، لأننا تعودنا أن نرى البرق في جهة واحدة فقط. وظهرت أشباح السفن في المينا في ضوء هذا الوميض كأنها تخنق وتتحرك. ثم انتهت العاصفة بهبة مفاجئة من الرياح الجافة جعلت سفينتنا تتأرجح (وكانت ترتفع بيكلها حوالي 80 قدمًا فوق سطح الماء)، وأوشكت أن تقلبها فوق مركب شراعي صغير كان يرسو إلى الجنوب منها، كانت صاريته الوحيدة لا ترقى إلى ارتفاع سطح سفينتنا التي مالت حتى كادت تنقلب عليه وتغرق.

(كما كنا قد صادفنا عاصفة رائعة في كار جيش في إحدى الليالي، لا أدرى إن كنت حكيت لك عنها سابقاً - وكان المستر هو غارث وأل فونتنا يمكثون معنا).

كان أسبوعاً بارداً جداً فاجتمعنا كلنا بعد العشاء حول الموقد، حيث كانت النار تشتعل بحطب من أخشاب شجر الزيتون. وأرسل لنا بصراوي عازفيه حسب طلبنا. كان أحدهم شيخاً مسنّاً قضى معظم حياته راعياً للغنم، كان ذا لحية بيضاء ووجه هادئ غضّته الشمس. كان يعزف على أنبوب طوله قدمان صُنع من نوع من القصب، لكنه ظهر شيئاً بالنحاس المصقول. كانت نغمة آله ذات صوت أبجش،

إلا أنه أشبه بالفلوت وذا طبقات بد菊花. فكان يتقلل من النغمة العالية إلى الواطنة جداً وكأنه صوت الرياح وهي تلامس جوانب التلال الصخرية، ويُسمع لها حفيظ وهي تمر فوق العشب اليابس عند الوديان. أما الآخر، فكان أصغر سناً ويعزف آلة ذات وترتين [كلمة غير مفهومة ربما كانت «الريابة»] وهو يعني. كان أكثر سمرة وأنحف وجهاً وذا عينين عميقتين، واعتقدته أعمى. فهو قد لفَّ عياماً كبيرة انخفضت على جبينه فأبقيت وجهه مغموراً بظل كثيف ... وكان على كل حال يبقي عينيه مغمضتين وهو يعني. وعندما هبت العاصفة فجأة، كانوا يعزفان ويعنّيان أغانيات حب وأنشيد حرب كردية منذ نصف ساعة. وانهمرت سيول المطر يسمع لها حفيظ وأخذت تساقط مرتطمة بضريح فوق ألواح السقف في باحة الدار وكأنها وقع أقدام حشد كبير من الرجال، ثم تسمع قرقعة هدير الرعد بعد ومضات زرقاء من البرق والتي جعلت بابنا المفتوح وشباكنا يبدوان كأنهما منافذ شاحبة في الدار الحالك السوداء، نرى من خلالها ملامح المنحوتات التي كانت تلمع في الساحة تحت المطر ومضات النور. وأذكر خاصة منظر قاعدة العمود وقطرات المطر تسيل من فكيهما، وقد ظهرتا من خلال ومضات البرق وكأنهما يتساندان لنا من خلال النافذة. لم يتوقف الموسقيان عن العزف أثناء العاصفة إلا أنها صارا يرتجلان غناة له إيقاع يتناسب مع العاصفة. فكان أنغام المزمار تسرع وترتفع مع صوت الرعد ثم تنخفض وتبطأ عندما يسكن. قد لا يستطيع المرء أن يدرك أن العازفين ينشدان متفردين. فقد بدأ إيقاع غنائهما وكأنه ولد دفقات الريح والمطر فتجمع عناصر الليل لتكون أغنية عظيمة لل العاصفة. لم يطل الأمر أكثر من عشر دقائق، إلا أنني مررت آنذاك بأدوار حيادي ... وعندما هدأت العاصفة انتهى كل شيء فجأة، فلم يكن هناك ذلك الانسحاب البطيء التدريجي الهادئ الذي يعقب العاصفة.

وها أنا أكتب لك ما يكفي شهراً من الرسائل. فهذا سيصنع الرقيب عندما يجد بين يديه هذا العدد من الصفحات وهل سيطلقها؟ وأعتقد أنه سيفعل حيث لا

يوجد فيها ما ينفع أعداءنا - ولست منهم إنصافاً لكـ. ومن الآن فصاعداً سألزم ذلك المكتب في القاهرة .. وهو المكان الوحيد المقبول في المنطقة حتى يستقر أمر الشرق الأدنى. إنني لسعيد إن تتمكن من مشاهدة بلاد ما بين النهرين وقت الحرب. ولا بد أن ذلك المكان سيكون بلدـاً مدهشاً يومـاً ما، إذا ما سيطروا على الفيضانات وحفروا قنوات الريـ. غير أنه لن يكون بلدـاً يستطيع الأوروبيون أن يعيشوا فيه حـياة اعـتـيـاديـة.

أتوقع أن أجـد أمـامي في القـاهرة أـكـوـاماً من الرـسـائل التـي تـراـكـمـت خـلال شـهـرـين من غـيـابـيـ في العـلـمـ وـالـاسـتـمـنـاعـ، لـذـا أـرـجـوـ أنـ تـتوـقـعـيـ منـيـ أـخـبـارـاـ بـسـرـعةـ.

لورنس

\* \* \*

[فيما يلي مقالة خالية من التوفيق في «النشرة العربية»، لا ريب أنها يقلـمـ لـورـنـسـ].

### بلادـ ماـ بيـنـ النـهـرـيـنـ

الـشـرـةـ العـرـبـيـةـ - العـدـدـ 23

تحـدـثـ خـليلـ باـشاـ، القـائـدـ العـامـ التـرـكـيـ فيـ العـرـاقـ بـصـورـةـ حرـةـ تـامـاـ معـ الضـبـاطـ الـبـرـيطـانـيـنـ الـذـيـ رـتـبـواـ معـهـ قـضـيـةـ تـبـادـلـ الجـرـحـيـ منـ الأـسـرـىـ عنـ قـضـيـةـ مـوقـفـ الـعـرـبـ. اـقتـرـحـ أـولـ الـأـمـرـ مـبـادـلـةـ الجـرـحـيـ منـ الجـنـودـ الـهـنـدـوـ مـقـابـلـ الأـسـرـىـ منـ الجـنـودـ الـعـرـبـ، إـلاـ أـنـهـ غـيـرـ مـوـقـفـ بـعـدـئـذـ وـرـفـضـ أـنـ يـقـبـلـ تـبـادـلـ الأـسـرـىـ الـعـرـبـ إـطـلاقـاـ، وـقـالـ إـنـ مـعـظـمـهـمـ قـدـ حـكـمـ عـلـيـهـمـ بـالـإـعـدـامـ، وـإـنـ عـادـوـاـ فـسـيـنـفـذـ فـيـهـمـ حـكـمـ الـإـعـدـامـ، وـهـوـ لـاـ يـرـغـبـ فـيـ عـودـهـمـ عـلـىـ كـلـ حـالـ. ثـمـ قـالـ إـنـ 90% مـنـ الجـنـودـ الـأـتـرـاـكـ جـنـودـ جـيـدونـ، وـإـنـ 90% مـنـ الـعـرـبـ جـنـودـ رـديـتونـ، وـإـنـ كـلـ مـاـ يـتـمـنـهـ هـوـ أـنـ يـؤـخـذـوـ أـسـرـىـ حـرـبـ، وـأـنـ جـيـعـهـمـ لـاـ يـعـتـمـدـ عـلـيـهـمـ، وـلـاـ وـاجـهـ اـحـتـجاجـاـ عـلـىـ

قوله، استثنى من هذا الاتهام بعض العرب من الموصل وسوريا الذين قال عنهم إن ما لديهم من فضائل يعود لكونهم اكتسبوا ما يكفي من الطبع التركي. واتفق معه قاسم بيك رئيس أركانه على كل ما قاله، ويبدو أن الضباط الصغار الذين التقينا بهم يشاركونها الرأي. ولما ذُكرتهم بقضية سامي بيك قالوا إن الحرب الروسية سنة 1860 وعملية الدفاع عن قارس إنها هي مسألة مختلفة، حيث كان العرب ما يزالون مواليًّن للإمبراطورية العثمانية. واعتبر الملازم محمد رضا أن القبائل الكردية تشبه العرب في عدم ولائهم وعدم رغبتهم في القتال. وقد يؤيد هذا الرأي التقارير السابقة عن التذمر بين بعض فروع القبائل الكردية ضمن التحالف الملي.

ثم بحثت مع خليل باشا قضية مصير العرب من سكان الكوت. فقد أظهر هؤلاء شعور الصدقة نحونا بصورة عامة، إلا أنهم لم يُطلب منهم الاشتراك فعلياً بالعمليات العسكرية. ولما كان استسلام طاوزند قد تم بدون قيد أو شرط، قد واجه إلحاحاً قوياً بضرورة ممارسة الاعتداء، وأن يعامل سكان الكوت على أنهم وجدوا أنفسهم مجبرين على التعاون معنا بفعل القوة القاهرة، فقال إن لا نية لديه بالتشدد في هذا الأمر وبده له أن اهتمامنا بهؤلاء الناس مسألة مسلية.

غير أنه لم يلتزم بما اتفق عليه وقد شنق تسعة أفراد لحد هذا التاريخ، وهم ضابط تركي هرب من الخدمة، ومقاول يهودي، وأحد الشخصيات المعروفة في الكوت مع ولديه واثنين من مختارى المحلات واثنين من شيوخ العشائر البارزين. إن سجل حياة خليل في الخدمة العسكرية الذي يشير إلى أنه أمضى عدة أشهر يطارد الأكراد في منطقة (وان) قبل الحرب، ومذبحة شنيعة ضد الأرمن في منطقة ميلاز كرد يجعل من عمله هذا في الكوت يبدو وكأنه مليئاً بالحرمة والإنسانية. وتؤكد أخبار هذه الإعدامات من قِبَل الضباط البريطانيين الذين اشتركوا بعملية إخلاء الجرحى من الكوت. ويروى أن أحد الذين أعدموا قد رمي بمسجنته إلى أحد

الضباط الإنكليز من فوق رؤوس الأتراك عندما كانوا يقودونه نحو المشتقة. وقد يكون الرجل أحد الشيعة، وربما كان فعلاً كذلك، ورغم ذلك فإن هذه الفعلة شيء لم يسبق في المجتمع الإسلامي المعاصر.

ملاحظة: إن ملاحظات خليل عن العرب وحادثة المسجنة في الكوت قد رُويتا من قبل ضباط بريطانيين استطاعوا بفضل الأتراك أن يحضرها حيث وقعت هاتان الحادثتان، فيجب لذلك عدم إذاعتها بأي شكل من الأشكال. إنما ذكرنا هنا كدليل واضح عن نوع العلاقة بين الأتراك ورعايتهم العرب في العراق.

\* \* \*

### إلى العقيد سعيد ولسن

6/12/1916 - من بنع

عزيزي العقيد ولسن

وصلت أمس عائداً ووجدت برقتك التي تخبرني بها أن علي أن أبرق لك بسرعة عن أي أمر حرج. وحقيقة الأمر، أن الشيء الوحيد العاجل هو الحاجة إلى استطلاع جوي فوق بير سعيد وبير جابر ووادي صفرا - وإن ذلك غير ممكن حتى ينتهي العمل في المطار (عصر ذا اليوم)، لكي أستطيع توجيه الطائرات إلى مواقع هذه الأماكن. (وإذا ما صعدت معهم في الجو فسوف أدهم على الطرق). وما لم يكن لدى الطيارين خرائط أفضل أو معرفة عن المنطقة فسيكونون كمن يطير في الظلام، ولن تكون لقاريرهم فوائد تذكر. وفي الحقيقة أننا لم نسمع منهم أية أخبار لحد هذا الوقت. قد لا تكون لديهم أية أخبار أو أنهم يجهلون أننا في هذا المكان. أما بشأن الإبراق لك بسرعة فليس ذلك ممكناً من سفينة الضابط البحري الأقدم. إن الاضطرابات الكهربائية في الجو هي الآن بحالة سيئة، وأن الأسبقة تُعطي

للبرقيات التي تخص أمور البحريّة. وبطبيعة الحال، فإن لدى الضابط البحري الأقدم الكثير من البرقيات. لا أتصور أن برقتي عن الأحوال في معسكر فيصل ستتمكن من الوصول قبل بضعة أيام لكونها طويلاً جداً، وسيبقى الحال هكذا حتى تكون لنا محطة اتصال خاصة بنا. لقد أسفت لأن زورق نقل الرسائل قد توقف عن العمل، ولو لا ذلك لكان الاتصال مع رابع أسهل وأصبح عدد البرقيات أقل.

ستصل الباحرة (متو) هذا اليوم وسأبعث بواسطتها مباشرة إلى القاهرة تفصيلاً عن برقتي رقم 29 وأتوق أن يصل بأسرع مما تصل البرقية نفسها عن طريق مقركم. إن الموقف رديء بالتأكيد - ويسبب الارتباك الناتج عن تناقض التقارير والبالغات الواضحة التي تنشر هنا لا يكاد المرء يعرف الكثير. وأخشى أن معنويات قبيلة حرب قد اهتزت بشدة وإذا لم يبق أمام فيصل سوى الاعتماد على جهينة فسوف يُضعف ذلك كثيراً من هيئته وقدرته على العمل. وعلى كل حال، فحالما تصلنا الطائرات فسوف أزور المنطقة وأحاول أن أتعرف على نوايا فيصل والأتراء عن كثب. (لأن الوكلاء لم ينفعونا كثيراً). وإن فيصل يعاملني بكل لطف ويدعني أسأل وأسمع وأرى كل شيء. بما في ذلك وكلائه. ولا أزال بطبيعة الحال أُحرِّك مدعياً إني ضابط سوري، مما يجعل طريقي في التصرف غريباً بعض الشيء.

لقد كادت الأيام الثلاثة في التنقل أن تقضي عليّ تعباً. فأولاً لم أحصل إلا على ساعة واحدة من النوم في اليوم الواحد، وأتبعدنا السفر على ظهور الجمال، ويسافر لذلك قلقنا وانفعالاتنا الشديدة في المعسكر. أما عن متى سأخرج للميدان مرة أخرى، فإن ذلك يعتمد تماماً على ما مستصل إليه الأمور. فإن أوامر الجنرال كلايتون لي كانت أن أنزل إلى البر وأصنع ما أراه مناسباً ومن الصعب أن تحدد الأوامر بشكل أدق. لا أفهم تماماً ماذا يقصد السردار بأن أقوم بالإشراف على «قضية التموين». إن جميع ما يصلنا نسلمه إلى عبدالقادر، وكيل الشريف، وهو في الباحرة، يقوم بتغريمه

وخرقه. فليس أمامنا سبيل إلى التدخل في الأمر، وليس ذلك شيئاً مرغوباً حسماً أعتقد. فإذا وضعت قائمة بحملة كل باخرة متوجهة إلى بنغازي، بالإنكليزية كتبت أم بالعربية، فكل ما يتطلب الأمر هو تسليم تلك القائمة إلى عبدالقادر وأخذ إيصال منه باستلام محتويات القائمة. إن تدخلنا بالأمور التنظيمية الداخلية ليس هو ما يجب أن تشجع عليه. سألتكم أن تجعلوني على علم كل آونة وأخرى بشأن الشريف عبدالله وتحركاته. فإذا ما تقرب من مواضع الأتراك فسيكون ذا فائدة لعمليات وادي صفرا. وإن وصول معلومات كاملة إلى فيصل تمكّنه من تنسيق العمليات. وبطبيعة الحال، من الجائز أن لا تكون لديك أية معلومات. إن عزلة المرء في بنغازي وإنعدام الصلة بكل شيء تجعله عاجزاً عن معرفة أية أخبار بريدية. فهل بإمكانك أن تبرق لي كلما أستجد أمر تطلب فيه معلومات عن كذا أو كذا؟ إن أحدها ليتعدد على ما يراه حوله مباشرة فينسى أن ذلك أمر غير معروف في الخارج.

\* \* \*

### إلى العقيد سمي. نفي. ولسن

بنغازي - 22/12/1916

عزيزي العقيد ولسن

شكراً جزيلاً على قائمة التموين. فلا يمكنني أن أغضف أو أنقض منها شيئاً، إلا أن كل ما أتمناه هو أن يقبلوا هذه القائمة في مصر ويتصرّفوا بموجبها. إنني على ثقة أن ما يجب علينا أن نتجنبه هو مضاعفة عدد هيئة الركن البريطانية في الحجاز، وكذلك مدى فعالياتها.

وصلتني برقيتك ليلة أمس تفيد بأنك قد تصل إلينا في الخامس والعشرين أو السادس والعشرين من الشهر. سوف أسعى لاستقبالك، إلا أنني أتأمل أن أتصل بفيصل أولاً لكي أجعلك على علم بنوايـاه، إن كان في ذلك أي نفع.

إن المركز الاستراتيجي للعمليات التركية الموجهة ضد فيصل هو بير سعيد لأنهم يستطيعون من هناك أن يهددوا مؤخرته وقادته، وهو بالوقت نفسه لا يستطيع أن يقطع طرق وادي صفرا أو خط سكة الحديد بأي شكل مضمون ما لم يحتوي بير سعيد أو يختله. ولما لا توجد لديه أية قطعات تكفي لاحتواء الموقع، فما عليه إلا أن يتحرك ضده. فإذا احتل بير سعيد، فإن الأتراك على ما أظن سوف ينسحبون من حرا إلى الخلف. وإلى جانب ذلك فإن قطعاته ما تزال غير قادرة على العمل وهو يخمن أنه بحاجة إلى أسبوع لكي يجعل جهينة وقبيلة حرب الشهالية يعادون نشاطهم. إن الدافع الذي جعله يتحرك الآن إلى الأمام هو أنه يشعر بقلق شديد بسبب التحشد التركي ضد علي.

إنني أزود الكابتن بويل بكل ما لدى من معلومات، وربما سيكون قادرًا على أن يبين كل ما يجري هنا. أظن أن الموقف يدعو للتفاؤل إذا لم يكن لدى الأتراك قوة كبيرة في وادي صفرا. وبخلاف ذلك، فستواجه كارثة في القريب العاجل. يقول فيصل إن ليس باستطاعته إرسال جواسيس إلى الوادي، إلا أنه أتأمل أنه سيستطيع أسر بعض العسكريين ذوي الاطلاع وقد يمكننا بذلك أن نعرف ما نريد.

إن المعلومات المرفقة والتي حصلنا عليها من الفرد الذي هرب من القوات التركية قد تكون ذات فائدة للمكتب العربي في القاهرة إذا ما وصلتهم بالوقت المناسب. إلا أنه ليست هناك أية بآخرة قربة الإبحار حالياً. وليس لدى نسخة من الأوراق، إلا أنه أستطيع جمع المعلومات من خلال ما سجلته من ملحوظات.

إنني أتأمل أشياء مهمة من (ثنائي كلمات لم تذكر، وهي اسم جاسوس عربي يعمل بين القوات التركية). لقد زودناه بقائمة طويلة بالنقاط التي نريد معلومات عنها. أما بشأن التقدّم فلديّ خسون جنيهًا ذهبًا استعملها لمصروفاتي الخاصة

ولاحتياجات الاستخبارات. وستكتفي لأشهر عديدة على هذا المنوال. طلبت أن تُرسل البرقيات اعتباراً من اليوم بالشيفرة البحرية، ولما سأكون على البر فإن عبدالقادر سيرسل لي المعلومات إن كانت ذات أهمية.

المخلص لورنس

【أرسل التقرير التالي إلى العقيد ولسن، وقد طبع في النشرة العربية بتفاصيل أكثر مما ورد في كتاب لورنس «أعمدة الحكمة السبعة»】.

\* \* \*

### إلى العقيد سي. ثي. ولسن

8 كانون الثاني / يناير 1917

#### ١- مذكرة عن الطرق

غادرت ينبع يوم 2/1/1917 وسرت راكباً عبر السهل إلى بداية وادي عكيدة في خمس ساعات. ومن بداية عكيدة إلى مستجمع المياه في حوض وادي ينبع استغرقت ساعة واحدة، ومن هناك ساعة أخرى إلى نخل مبارك. قطت المسيرة كلها بسرعة أربعة أميال بالساعة. كان الثلث الأسفل للطريق الصاعد في وادي عكيدة رملياً ناعماً يعطي المسير. أما الأقسام العليا فكانت أصلب أرضاً وأحسن سيراً. وكان الخط الفاصل منخفضاً وسهلاً ويودي شرقاً إلى وادٍ واسع مفتوح يمتد من جهة اليسار تحبيطه تلال منخفضة من الجانيين (جبل عكيدة؟)، وتمر عبره الطريق تتحني برفق نحو نخل مبارك. أما «سبيل» فيقع على بعد 400 ياردة من مستجمع المياه. كان الطريق إلى نخل ييدو جيلاً للغاية هذا اليوم. لقد نبتت جراء الأمطار أعشاب في كل المنخفضات والأماكن المنبسطة، واندفعت سيقان العشب الخضراء تشق لنفسها طريقاً بين الصخور فكان المنظر من الأعلى وكأنه رهج شاحب الخضرة

يتشر هنا وهناك فوق سطوح الصخور رمادية الزرقة أو بنيّة الاحرار، وكان العشب كثيفاً في بعض الأماكن حيث كانت ترعى فيها إبل الجيش.

ووجدت فيصل قد ضرب خيامه في نخل مبارك. وكان هو نفسه في خيمته الخاصة يتهيأ للخروج لاستقبال الناس. بقيت ذلك النهار معه، ووصلت إشاعات تفيد بأن الأتراك قد أخلوا وادي صفرا. تقول إحدى الإشاعات إن المنطقة بين بير شريوفي وبير درويش قد أصبحت معسكراً كبيراً واحداً، وأن الوحدات تتوجه من هناك إلى المدينة. وتروي إشاعة أخرى أن قوة كبيرة من المشاة وراكبي الخيل شوهدت تسير شرقاً عبر خيف يوم أمس. لهذا قررنا أن نبعث عيناً إلى حراء لمعرفة الأخبار.

وفي يوم 1/3 أخذت معي خمسة وثلاثين رجلاً من المحاميد وسرنا راكبين عبر سهل مليء بأعشاب الطفاء والأشواك، عابرين بير فقير إلى بير واسط، وهو موقع أبي خلات الذي عبرته في رحلتي الأولى. وانتظرنا هناك حتى الغروب ثم ذهبنا إلى بير مرّة، حيث تركنا جالنا مع عشرة من الرجال وتسلق البقية منا فوق التلال الواقعة شمال طريق الحج إلى جبل ضفران. كان التسلق مرهقاً لأن التلال كانت من طبقات صخرية حادة السكافين. لم يكن في السطوح المتكسرة لهذه التلال مسكاً لأن طبقاتها رقيقة الشقوق، بحيث تنخلع القطع من مكانها عند مسكتها باليد، كانت قمة جبل ضفران باردة وضبابية. وعند الفجر اختبأنا في شقوق بين الصخور واستطعنا في النهاية مشاهدة ثلث خيم إلى الأسفل منا نحو اليمين خلف نتوء صخري على بعد ثلاثة ياردات عنا. لم نتمكن من الالتفاف حولها لنلقى عليها نظرة عن قرب، لهذا أطلقتنا عليها بضع رصاصات. وأدى ذلك إلى ظهور جمع من الأتراك من كل جانب قفزوا إلى خنادقهم ومواضعهم على جانبي الطريق فأصبح من الصعب إصابتهم. أظن أنه وقعت بينهم بعض الخسائر إلا أنني غير متأكد من

ذلك. كانوا يطلقون النار في جميع الاتجاهات إلا في اتجاهنا وأصبح الضجيج في ذلك الوادي الضيق شديداً، حتى أني توقعت أنه سيؤدي إلى وصول قوة الحمراء. ولما كان الأتراك يتفرقون علينا عدداً بمعدل عشرة إلى واحد فإن وصول هذه القوة سيجعل من الصعب علينا أن ننسحب خلسة، لذلك زحفنا راجعين ثم انطلقنا مسرعين إلى أسفل الوادي، حتى كدنا نندوس على اثنين من الجنود الأتراك الذين بدا عليهم الرعب الشديد، ويظهر أنها كانتا في موقع مراقبة أمامي، وقد يكونا خرجا لقضاء حاجتها. كانوا في أسوأ حالة مهلهلة رأيناها عيني واستسلما لنا فوراً. فأخذناهما معنا وأسرعنا منطلقين لمسافة 500 ياردة أخرى في الوادي. ومن هناك أطلقنا بضع عبارات نحو معسكر الأتراك الذين أخذوا يبحثون عن هذين الجنديين كما يبدو، وبذل استطعنا الوصول إلى بير مرة بسهولة عند الساعة السادسة والنصف صباحاً. كان الأسيران لا يتذكّران سوى التركية، لذا أركبناهما وأسرنا بهما إلى نخل للبحث عن ترجان. وأفادا بأن الفوج الموجود في ضفراو هي السرية الخامسة من الفوج الثاني للواء 55، بينما كانت بقية الفوج وسريتين من الفوج الأول في قرية الحمراء، وتقوم السريتان الأخريتان من الفوج الأول بحراسة درب الخباء من الحمراء إلى بير حسني وبقي الفوج الثالث في بير درويش. وكان أمراً للواء 55 هو توفيق ييك.

وعند نخل مارك وجدت رسائل من الكابتن وارن تفيد بأن زيداً ما يزال في ينبع وأن الباحرة «مزين» ستبقى تتضرر في ينبع حتى وصولي. ولما كان فيصل على وشك الحركة إلى عويس أبدلت جيلي وركبت معه ومع الجيش إلى بداية وادي مارييد عند الثالثة عصراً. كان ترتيب المسير بديعاً ويربرياً، في الوقت نفسه كان فيصل يسير في المقدمة مرتدياً البياض وشرف على يمينه تعلوه كوفية حمراء وعليه جبة مصبوغة بلون الحناء تعلوها عباءة، وعلى يسار فيصل أسير أنا مرتدياً الأبيض والأحمر وخلفنا ثلاثة رايات من حرير أرجواني تعلوها سنابك مذهبة وخلفها

ثلاثة طبالين يعزفون لحنًا للمسيرة، وخلف هؤلاء جحفل من 1200 جمل من قوات الحرس تسير مصطفة أكثر ما تستطيع اقترباً من بعضها البعض. وملابس الرجال من كل شكل ولون، وكذلك كانت الإبل في سروجها وأعفتها، وكان الجميع ينشدون بأعلى أصواتهم أغنية حرب تكريبياً لفيصل وعائلته. كان الحشد وكأنه نهر من الجمال لأننا ملأنا بطن الوادي حتى حافاته وأطلقتنا فيه كسيل طوله ربع ميل. وعند بداية وادي مساريد ودعت فيصل وأسرعت عبر السهل المفتوح نحو ينبع عند السادسة عصرًا. وكانت أمتطي ذلك الجمل الممتاز الخاص بفيصل وبذلك استطاعت أن تقطع مسافة الاثنين والعشرين ميلًا بكل سهولة. وما وصلت سرني أن أجده الباخرة دمزيان قد غادرت إلى رابع مع زيد، وبذلك وفرت على مسيرة عشرة أميال أخرى إلى شرم ينبع.

## 2- القوات العربية

كانت معظم القوات في نخل مبارك من قطعات الجمال. كان هناك الكثير منهم - وحسب معلومات فيصل فإن عددهم يصل إلى (6000) - إلا أن معسكراتهم منتاثرة عبر الوادي ورواده فلم أستطع أن أراهم جميعاً. أما الذين رأيتهم فكانوا هادئين وبدت معنوياتهم جيدة. كان قسم منهم قد أمضى ستة أشهر أو أكثر تحت السلاح، وقد فقد هؤلاء حاسهم إلا أنهم كسبوا خبرة مقابل ذلك. وما زالوا محافظين على روحهم القبلية في الاستقلال بأمرهم غير أنهم أخذوا يتخلصون من عادتهم في تبني العتاد وصار لديهم نوع من التعود على أمور التعسّر والمسير، وعندما كان الشريف يقترب منهم كانوا يصطفون وينحدرون ويمدون أيديهم إلى شفاهه وتلك كانت التحية الرسمية. كانوا لا يزبون بنا دقهم - فهم يقولون إن ذلك يجعل البنادق تبتلع بالرماي ولم يكن لديهم الزيت الكافي - إلا أن معظم بنا دقهم كانت بحالة جيدة، كما أن بعض الرجال كانوا يجيدون الرمي. لقد

أخذوا يصيرون قطعات منفصلة، بيد أنها متجانسة تحت قيادة شيوخهم، وصار حضورهم أكثر انتظاماً من السابق كلما ابتعدوا عن منازلهم. والأكثر من ذلك أئمَّهُم أخذوا يصيرون أكثر تقبلاً لفكرة مغادرتهم لديارهم، وأخذ فيصل يأمل أن يأخذ معه الجميع إلى وجه لم يكونوا يشكّلون خطراً، وهم جمّع لفقدانهم روح الجماعة والانضباط والشعور بالثقة المتبادلة. أما كأفراد فقد كانوا كأحسن ما يكون، وأرى أن كلما كانت مجموعاتهم المقاتلة أصغر حجماً كلما كانت كفاءتها أعلى. فالآلاف منهم كعصبة لا نفع فيهم تجاه ربع عددهم من القوات النظامية المدرية، إلا أن ثلاثة أو أربعة منهم وهم يقاتلون في جبالهم ووديانه كانوا أفضل من اثنى عشر جندي تركي. كانوا يصابون بالقلق ويريدون العودة إلى منازلهم إذا ما ظلوا ساكنين بدون عمل، حتى فيصل نفسه كان يريد أن يتمزق إرباً في مثل هذه المواقف. أما إذا كان لديهم ما يشغلهم، فيمضون في جماعات صغيرة لشاغلة الأتراء هنا وهناك، ثم ينسحبون دائمًا عندما يبدأ الأتراك بالتقدم، ثم يظهرون مرة أخرى من اتجاه آخر. فإن ذلك من خير ما يجيئون به، وهو ما يصيب عدوهم بالحيرة والارتباك.

كانت سرية القوة المتنقلة على البغال تبشر بالخير وكان يقودهم مولود (خلص!)، وهو ضابط خيالة قديم، ويتولى تدريبيهم وقد استطاعوا أن يثبتوا وجودهم.

أما فصائل الرشاشات فكانت مخبية للأمال. ويقال إن المتطوعين المصريين أخذوا يرفعون مستوى هذه الوحدات وأفراد المدفعية.

### 3- الحديث مع فيصل على المائدة

عند الحديث يوماً عن «اليمن» وهو اسم يطلق على كل المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مكة وجدة، وصف فيصل القبائل التي تسكن تلك المنطقة بسهولة الانقياد وصواب العقل، بالمقارنة مع قبائل الحرب وجهينة وعتيبة الساكنين

شالاً. قال إنه لا يعرف جماعة من العرب أسهل منهم انتقاداً، فإذا أراد أحد الشيوخ أن يحبس ضابطاً منهم فما عليه إلا أن يعقد خيطاً رفيعاً حول رقبة المتهم ثم ينطق بالحكم، فيقوم المحكوم عليه باتباع الشيخ حينها ذهب محتجاً ببراءته مسترجياً العفو عنه. كما أن لديهم عادة حسنة هي أنهم يطلقون على أطفالهم أسماء ضيف عزيز فيصبحون بذلك تابعين أدبياً إلى سميهم الذي يستطيع أن يأمرهم بعمل ما يشاء عدا الواجبات الأبوية؛ حتى إنهم يشاركون في تحمل مسؤولية الخصومات الدامية التي تخص من يحملون اسمه. كان فيصل قد أمضى عدة أشهر في الجنوب بين الطائف وبيرك حتى أبها، ويقول إن أعداداً كبيرة من الصبيان قد أصبحوا يحملون اسمه فأصبح يملك نفوذاً واسعاً عليهم، وحتى على آبائهم بصورة غير مباشرة. خاصة عندما قضى أربعة أشهر في مهيل لتحسينها للأتراك فارتبط بصداقه مع سليمان بن علي وعائلته. ويقول إنه لو تيسر له لدية فترة عشرة أيام للعمل على إثارة كل مقاتل في العسير ضد محبي الدين. إن أبها كما يقول ليست محصنة تجاه قوة تهجم عليها بإسناد بطرية من مدفعة الميدان. إن العقبة الحالية هي أن ناصر لا يملك ثقلاً كافياً لمواجهة الإدريسي، وإن جميع القبائل تعتقد أن الإدريسي قد يبحث أصدقائه من الشيوخ لمحااجتهم من المؤخرة إذا ما تحركوا بصورة مكشوفة ضد الأتراك. إلا أن وجود فيصل أو عبدالله قد يقضي على هذه المخاوف. يقول فيصل عن عبدالله أنه رغم سرعته في الحركة، إلا أنه يميل إلى الترف. لقد أخبر ستورزنكن (وهو قائد البعثة العسكرية الألمانية التي كانت ترافق الأتراك في اليمن) فيصلاً عندما كان في دمشق أن السلاح والعتاد ستشحن من اليمن إلى الحبشة لإشعال حرب ضد الأجانب في تلك البلاد، وأنه شخصياً سيذهب إلى شرق إفريقيا الخاضع لألمانيا.

لقد ظهر فرو نبيوس (وهو رحالة ألماني يسمى نفسه عبدالكريم باشا) ذات صباح في جدة قادماً عن طريق البحر من وجهه بعد انتهاء الحرب بقليل. وكان

فيصل في جدة فلم يدعه يذهب إلى مكة، وكذلك منعه تحركات الأسطول البريطاني من الذهاب جنوباً، لذلك وضعه فيصل في زورق وأعطيه خطاب توصية وأرسله عائداً من حيث جاء. إلا أنه عندما وصل رابع شيك حسين ميرك في أمره فاحتجزه في القلعة. واجه فروينيوس صعوبة في التخلص من الحبس وأثار اعتراضات كبيرة حول طريقة معاملته عندما عاد إلى سوريا. عندما كان فيصل في دمشق سنة 1916 أخذه جمال باشا إلى السينما هناك. كان الفيلم بين الأهرامات يرفف فوقها العلم البريطاني، وعلى الأرض يقوم جنود أستراليون بضرب الأهالي واغتصاب النساء، وفي بداية الصورة فتاة مصرية وهي تتعرض متسللة. وفي المنظر الثاني ظهرت صحراء وقافلة من الجمال وفوج من الجيش التركي وهو يسير بدون توقف. وتعود الأهرامات في المنظر الثالث وظهور الجيش العثماني بصورة مفاجئة بنظام الاستعراض ومقتل الأستراليين واستسلام الجنرال ماكسويل وسقوط هيبة الإنكليز في مصر، وغزير العلم البريطاني ورفع العلم التركي فوق الأهرامات. فقال فيصل إلى جمال: إذا كان هذا الفيلم حقيقة فلماذا تزعجوني والدي بطلب المتطوعين؟ فقال جمال: إن ذلك الفيلم يشجع الناس، وأننا لا نتوقع أن تقوم بغزو مصر الآن، وأن سياستنا هي أن نشاغل القوات البريطانية هناك بأقل جهد ممكن، وأن ألمانيا قد وعدتنا أن آخر العمليات العسكرية في الحرب ستكون غزو مصر من قبل ألمانيا وإعادتها الإمبراطورية العثمانية فوافقت على الاشتراك معها في الحرب بموجب هذه الأساس.

جاء أوينهايم إلى فيصل وهو في القسطنطينية أوائل 1915، وقال له إنه يريد إشعال نار الثورات. فسألته فيصل أية ثورات ولاي غرض؟ فأجاب أوينهايم أنها ستكون ثورات للمسلمين ضد المسيحيين. فقال فيصل إن الفكرة تبدو صائبة، وسألة أين يقترح أن يبدأ هذه الثورات؟ فأجاب أوينهايم أنها ستكون في «كل

مكان»، في الهند، في مصر، في السودان، في جاوا، وفي الحبشة، وفي شمال إفريقيا. فقال فيصل إن من المناسب أن تبدأ في الهند، إلا أن هناك مشكلة النقص في الأسلحة. فقال أوبنهايم إن ذلك ستولى أمره بعثة عسكرية ألمانية – تركية في إيران وتساءل فيها إذا كان الشريف مستعداً لأن يتعاون مع الجمعيات الإسلامية في الهند. فقال فيصل إن والده يريد أن يعرف فيها إذا سيسحب المسلمون من الهند مستقلين، أم أن الهندوس سيحكمونهم، أو أن الهند ستخضع لقوة أوروبية أخرى؟ فأجاب أوبنهايم أنه ليست لديه فكرة عن ذلك، وأن ذلك سابق لأوانه. إلا أن فيصل أجاب بأن والده لا بد أن يعرف مسبقاً هذه الأمور على كل حال. فقال أوبنهايم حسناً إذا لماذا لا نبدأ بمصر؟ يمكننا أن نجعل عائلتكم تتزعم مصر بعد أن يتم غزوها. فذكر فيصل نصوصاً من القرآن تحظى من شأن المصريين، وقال إنه قد زار مصر مؤخراً، وأن الحزب الوطني قد عرض عليه العرش هناك (حدث ذلك في ميناء بيروس اليوناني). وقال إن المصريين متقلبين ولا مبدأ سياسي لديهم سوى التذمر ولا يهتمون إلا بالاستمتاع وبالحصول على النقود. وإن أي مصري يتتحدث عن الثورة في مصر، إنما يحاول أن يأخذ شيئاً على الحساب. فقال أوبنهايم، حسناً وماذا عن السودان إذا؟ فقال فيصل أصبت في ذلك فهناك في السودان مادة لإشعال ثورة حقيقة، إلا أنك هل تعرف شيئاً عن السودان؟ ولما سأله أوبنهايم ولماذا أجاب فيصل أنهم زنوج جهله يتسللون بالرماح والأقواس والدروع، وأنه لن يكون مسلماً صحيحاً ذلك الذي يحاول إثارتهم ضد الإنكليز المسلمين بالبنادق والرشاشات. إن الرجال هناك عنصر جيد على كل حال، فإذا أعطيتني السلاح والمال والسيطرة على البحر الأحمر لمدة ستة أسابيع فسأنجح في أن أكون الحاكم العام للسودان. فلم يفتح معه أوبنهايم أي حديث بعد ذلك.

في الشهر الأول سنة 1915 راح ياسين وعلي رضا وعبدالغنى وآخرون إلى شريف مكة مقتربين إشعال ثورة في سوريا فأرسل الشريف فيصلاً إلى هناك لي Rufus

له تقريراً. وجد فيصل هناك الفرق 25 و 35 و 36 متهيئاً للثورة إلا أن الرأي العام أقل استعداداً، وأن هناك شعور في الدوائر العسكرية بأن ألمانيا ستكتسب الحرب بسرعة. فذهب إلى القسطنطينية وانتظر حتى احتدام الصراع في الدردنيل، فعاد إلى دمشق متقدماً أن الوقت مناسب للثورة، إلا أنه وجد تلك الفرق قد تناولت وأن أعيانه قد تفرقوا فاقتصر على أبيه أن يتأخروا حتى تتم مفاجأة بريطانيا بصورة صحيحة، وتكون تركيا قد أصبحت بخسائر جسيمة أو حتى إكمال إزالة الحلفاء في الإسكندرية.

\* \* \*

### إلى العقيد سبي. نبي. ولسن

وجه - 1917/3/9

عزيزي العقيد ولسن

أرجو المغفرة على الرسالة المستعجلة الآتية. وصل مكروري هنا صباحاً ووصلت أخباره فجأة. وكنت أرجو أن أوصلها إلى نيوكومب، إلا أنني لا أستطيع ذلك لأنه قادم إلينا ولم يقل عن أي طريق. وقد تفضل فتزموريس وعرض علي بحاراً تطوع لإيصال الخبر له إلا أن ذلك غير ممكن.

وفي هذه الظروف ولما كان ماك روري غير ذاهب إلى ينبع أو رايغ أقنعت فيصل بأن يعمل شيئاً. ورغم أوامر كلايتون أخبرت فيصل بعض المعلومات عن الموقف، فلم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً بمفردي بالمستوى اللازم. وعلى الواحد أن يخبر أمره الأعلى. ولقد كتب إلى الشريف علي لأن يبعث قبيلة جهينة الشرقية وقبيلة حرب مباشرة إلى بوات - حيث بأسرع ما يمكن. ستذهب الرسائل هذا العصر إلى ينبع على الباخرة (رفرشر). لم يقل فيصل في رسالته ما يكشف معلوماتنا غير أنها ستدفع علينا إلى القيام بعمل عاجل حسبياً أطن.

بعث برسول إلى عبدالله ليقول له أن يهجم ليحطم ويمزق أي شيء حياً أو جاداً ما بين بواط - محيط وحديه حتى لو تعرض ثلاث أربع قواته للدمار. غادر سعد الغنيم إلى فكير في غرب حد للهجوم على ذلك الخط بصورة مؤقتة حتى نصل إليه. وسأذهب غداً ومعي مدفع 2.95 عقدة وسرية رشاشات، وربما جلها وجئده لمحاول مسك أحد مستودعات المياه ونحطمه.

إن المشاة المنشولين على البغال قد أرسلوا، ربما إلى عبدالله للاندفاع نحو جحفل المجانة التركي الجديد. إن قوتهم 260 مقاتل مع رشاشتين وبيدون جيدين. سيتوجهون أولاً إلى فكير، وإذا ما وصلوا بوقت مناسب فسيتحققون بعبدالله، وبخلاف ذلك سيتحركون لقتال الأتراك أينما وجدوهم.

لقد ذهب الشريف علي بن حسين إلى جيدة مع ستة عشر خيراً بالتفجرات لقطع الخط ما بين العلا وطويره. وذهب عبدالله بن منها إلى مدین صالح للاستيلاء على 1400 جل أرسلت هناك من قبل ابن رشيد. وسيرسل فيصل قبيلة رفاع وقطعات أخرى إلى نقطة قرب العلا بصحبة مدفع 2.95 عقدة وبضعة رشاشات لمحاولة شن عمليات ضد الأتراك هنا ونسف الخط بأي حال من الأحوال. سيرسل الشريف ناصر مع نيوكومب مرة أخرى إلى الشهال حالما نلتقي بهم. وسيبعث رهط من قطعات التفجير إلى هناك لمشاغلة الأتراك حتى عودتهم. ستتحرك هذه الليلة شحنة من التفجرات مع بعض الخبراء إلى ضبة وسيندفع محمد علي البداوي كذلك نحو خط السكاك الحديدية قرب تبوك.

إن الخطة هي أن تبدأ العمليات فوراً ضد منشآت المياه لتوفير الوقت للتحشد. وهذا الغرض ستندفع هذه القطع الخفيفة متقدمة إلى الأمام مخاطرة بأي شيء لأجل كسب الوقت. وعندما تصل الجبال ويدأعلي بالحركة فسوف تتخذ القوات الرئيسة للإخوة الثلاث مواقعها على طول الخط من المدينة إلى العلا، وسيجدد الأتراك

صعوبة كبيرة في التحرك. س يستغرق ذلك عشرة أيام على ما أظن على فرض أن الجمال ستصل في اليوم الخامس عشر من الشهر.

أعتقد أن نقطة الضعف في الخطة التركية هي قطارات الماء والتموين. فإذا استطعنا أن نقطع خط السكة بالمستوى الذي لا يتمكن من إصلاحه أو أن نحطم قاطراتهم، فإن قواتهم ستعجز عن الحركة. فلا بد أن لن يكون لديهم ما يكفي من مواد التصلیح في المدينة، ولن يستطيعوا نقل ما يحتاجونه من حولات إلى جانب الماء والطعام. فلو استطعنا أن ثبّتهم في مواقعهم لمدة عشرة أيام فقط. وأخشى أن الموقف سيكون دقيقة للغاية.

سأخذ معي بعضاً من الألغام كارلند، ولو استطعت العثور على بعض الفتائل الآتية وتتوفر لي الوقت الكافي فسأزرع هذه الألغام أقرب ما يمكن من المدينة. وهذا هو أحد أسباب ذهابي هناك بنفسي، إضافة إلى محاولة تدمير هدifice إن أمكن ذلك. سيعمل فيصل كل ما بوسعه. إلا أن الوقت قد أدركنا.

المخلص لورنس

\* \* \*

### إلى الجنرال كلايتون

رئيس دائرة الاستخبارات والمكتب العربي في القاهرة (سري)

القاهرة - 10/7/1917

الجنرال كلايتون

غادرت وجه في أيار / مايو 1917 مع الشريف ناصر بن علي بن راضي بن حسين من أهل المدينة آمراً للقوة العسكرية ونسيب بيك البكري ضابط سياسياً لتدبير شؤون القرويين وسكان المدن (أثبت ناصر نفسه كفوءاً للغاية وجم النشاط

ومستقيماً خلال الحملة، وقد نال إعجابي وأعتقد أنه، بعد فيصل وشاكر، أفضل الأشراف الذين عملت معهم).

كانت تعليمات فيصل تنص على فتح العقبة لاستعمال قاعدة لتمويل القوات العربية ولمعرفة إمكانية العمل للقوات الشريفية في شرق وجنوب سوريا. تحركنا إلى أبي راقف حيث ارتفع عدتنا إلى 36 رجلاً، ومن هناك إلى خط السكة عند الكيلومتر 810.5 الذي نسفناه يوم 19/5. وامتد بنا الطريق بعد ذلك إلى «ميقة» في وادي سوبلان ثم إلى جرف لمواجهة نوري ونوف، ثم سمعنا أنها إلى الشمال منها، لذلك تحركنا إلى نبك (قرب كاف) في الثاني من حزيران/يونيو حيث قابلنا عودة أبو طي والخويطات. بقي الشريف ناصر في كاف لمحاولة ضم قبائل الروالة والشريفات والخويطات إلى الحملة المتجهة إلى العقبة.

سرت في الرابع من حزيران/يونيو بصحبة رجلين إلى منطقة وادي علي عن طريق برقه وسبع أبيار، ثم إلى عين الباردة قرب تدمر في 8 منه. وهناك واجهت الشيخ ضامي من قبيلة كواكب عترة وعلمت منه أن هاشم قد ذهب إلى الشمال الغربي، وبقي بن مرشد في دمشق. (كان هدفي أن أواجه قبيلة بشير وأسوى خلافاتهم مع الخويطات لأجل العمل بين حص وحلب، إلا أن الخطة فشلت. غير أن ضامي يستطيع أن يعمل وسيطاً، أو أن يبعي رجالاً لتدمير جسور أوروقتس عند الحاجة. إنه رجل جيد وهو الآن في العقبة). لذلك ذهبت غرباً مع ضامي ورجاله الخمسة والثلاثين (الذين استطعت أن أضمهم إلى قواتنا) إلى رأس بعلبك في العاشر من حزيران/يونيو، ونسفنا جسراً صغيراً هناك (كان تأثير ذلك ضئيلاً بطبيعة الحال على حركة الطريق، إلا أن قبيلة المتأولة في بعلبك قد استثارتهم العمل وكان ذلك ما أريده. وجدنا أن صوت انفجارات البارود تفعل خبر مفعول دعائي أينما حدث)، ومن رأس بعلبك توجهنا جنوباً إلى الغبان في الغورطة على بعد ثلاثة

أمياں من دمشق، حيث قابلت علي رضا باشا الرکابی في 13 حزیران/يونيو القائد الأعلى في دمشق، (وهو ضابط هندسة معروف برتبة جنرال في الجيش التركي، ويترأس فرع سوريا من الجمعية العربية السورية. أخبرني علي رضا أنه ليس لديه سوى خمسة من الجنود الأتراك وثلاثة أنواع شغيلة غير مسلحة في دمشق، وأن موقفه لا يساعد إظهار مشاعره الحقيقة بمفرده).

ومن هناك تحركت إلى المدينة حيث قابلت الشيخ سعد الدين بن علي من منطقة بلج (بحثت مع الشيخ سعد الدين خطة مؤقتة للعمل من بلج عندما تدعو الحاجة لذلك)، ثم انتقلت إلى صلخد لمواجهة حسين بيك الأطرش، (وقال لي حسين بيك الشروط التي يريدها الدروز لكي يقوموا بالثورة. وتبعد لي تلك الشروط أساساً جيداً للتفاوض).

ومن صلخد ذهبنا إلى الأزرق التقينا بنوري ونوفاف ثم عدنا إلى نبك في الثامن عشر من حزيران/يونيو (إن عمليات نوري ونوفاف تعتمد على عمليات الدروز. وأنا على يقين أن نوري لن يقوم بعمل لوحده، إلا أنه يدرك حقيقة كونه قد أصبح جزءاً من الكفاح، وهو منحاز كلباً إلى قضية العرب وموالياً للشريف. إنه الآن مهتم باستلام حصته السنوية من القمح في النقرة ويبدي الولاء إلى الجانبين حتى تظهر حاجتنا إليه). وفي نبك وجدت أن عملية ضم المتطوعين قد انتهت. ذهب نسيب بيك البكري إلى صلخد مع حسين الأطرش مع التعليمات المرفقة طيأ. (إن نسيب البكري متقلب الأهواء وقصير النظر كمعظم السوريين من سكان المدن ولن يقوم بتنفيذ التعليمات حرفيأ، غير أن لم يكن هناك وكيل آخر). ثم تحركت مع ناصر إلى باير في 19 حزيران/يونيو حيث أعدنا فتح مخابي المتغيرات. ومن باير ركبت إلى زيزا ورأيت فواز الفائز (وكان شخصاً لطيف الكلام، إلا أنه واثق من كونه موالياً للأتراك قليلاً. غير أنبني سكلهاد سيتبعون بالتأكيد كلّاً من طراد وابن زيو اللذين

كانا من أعونانا)، ومن هناك اتجهت إلى الغرب من عمان إلى أم قيس في 23 حزيران/يونيو حيث أقيمت نظرة على الجسر (ز) على وادي اليرموك والتقيت بشيوخ الشريرات وبني حسن. ومن أم قيس ذهبت إلى أفدين (وهي المفرق على الخارطة)، وهي أول محطة بالأسفل من درعا ونفت امتداداً من السكة المنحنية عند الكيلومتر 173. (استغرق تبديل السكة المنحنية ثلاثة أيام ثم استمرت قاطرة التصليح إلى الجنوب عند الكيلومتر 174 انفجر تحتها لغم كبير فسقطت من قنطرة علوها خمسة عشر قدماً في الوادي. وأدى ذلك إلى تأخير آخر لمدة يومين ريثما تم تفقد الخط).

ومن أفدين ركينا إلى الزرقاء ومن هناك إلى عطوي، حيث فشلنا في الاستيلاء على المحطة إلا أنها قتلنا ثلاثة أفراد من الخمسة الذين كانوا في الحامية واستولينا على قطع كبير من الغنم وقضينا على أربعة من جماعة التلغراف الذين كانوا يصلحون الأسلاك، كما أنها نسفنا قسماً من خط السكة.

ومن عطوي ركينا عائدين إلى باير والتحقنا بالشريف ناصر الذي كان في ذلك الوقت قد هيا قبيلة الحويطات الغربية. وفي آخر حزيران/يونيو تحركنا إلى جفر وفتحنا أحد الآبار، ومن هناك إلى الكيلومتر 479 الذي دمرنا فيه قسماً كبيراً من الخط بينما كان هناك رتل من القوات يقوم بالهجوم إلى الشمال من معان قرب عنزة. ثم سرنا باتجاه فويلع حيث كان رتل متقدم قد دمر موقعاً للجندمة التركية. إلا أنها فوجتنا بخبر قيام الأتراك باستعادة فويلع من قبل حملة الإنقاذ المتأخرة المكونة من الفوج الرابع من اللواء 174 الفرقة 59 من معان. تمكنا من القضاء على الفوج في أبي لسان في الثاني من تموز/ يوليو (ووقع في أيدينا آمر الفوج ومدفع جيلي و160 أسير) وبعثنا برتل سريع إلى الشمال، والذي تغلب على الموقع التركي في جبيشه (وهو رأس السكة الواقع على بعد خمسة أميال إلى الشرق من الشوبك) واحتل

وادي موسى والشوبك وتفيله وهو الآن بالقرب من الكرك يتهيأ للقيام بعمل هناك.

وبعد فويلاح استولينا على موقع مريغة ثم تحركتنا إلى قويرة حيث التقينا ابن جاد من حويطات العقبة، وأخذنا مائة رجل وخمسة ضباط. وسرنا من القويرة إلى الكثيرة (حيث على موقع فيه ثلاثة ضباط و140 جندي) ومن هناك اتجهنا إلى الخضراء شمال وادي عشم، حيث استسلمت حامية العقبة دون قيد أو شرط. دخلنا العقبة في 6 تموز/يوليو مع ستهة أسير حرب من الجنود وحوالي 20 ضابطاً مع ضابط صف ألماني واحد يحفر الآبار. وفي اليوم نفسه ركبت إلى السويس بصحبة ثمانية رجال ووصلت إلى الشط في التاسع منه.

وكنتيجة للرحلات والمقابلات الموصوفة أعلاه ما بين 5/6 و6/7 أرى أن بالإمكان تنظيم القوات العربية عند نهاية آب/أغسطس حسبما يظهر من المخطط المرفق وذلك إذا ما تيسر لهذه القوات المساعدات المادية اللازمة. إن هؤلاء المجندين (كما هو الحال مع بدو الحجاز) غير قادرين على خوض معارك نظامية مدبرة إلا أن القوات رقم 1 و2 و4 و5 قد تتمكن من قطع طريق السكة في مناطقهم وأن القوات رقم 6 و7 تكفي لطرد الأتراك من الواقع الكاثنة في مناطقهم واحتلال جميع خطوط المواصلات. أما القوة رقم 3 فهي قوتنا الضاربة (والتي يقارب تعدادها ستة آلاف رجل لا بأس بهم) والذين قد يتمكنون من الاستيلاء على درعا، أو على الأقل عزل الحامية هناك، وتثبيت خط المعركة في المنطقة المجاورة. إنني أقترح أن نقطع الجسر في الجمة من أم قيس بواسطة القوة رقم 2 إن أمكن (وبهذا يقطع طريق السكة التركي الوحيد إلى فلسطين) كعمل تمهيدي وإذا ما أمكن الاستيلاء على دمشق بقسم من القوة رقم 3 فسيعتبر ذلك كسباً يزيد قضية العرب قوة.

ولحسن الحظ فليس من الضروري أن تكون هذه العمليات منسقة بصورة متقنة. فإذا ما نفذت حسب تسلسلها العددي (كما هو الحال في الخارطة) فسيكون الأمر أسهل ما يمكن. إلا أنه ليس هناك أمل كبير في تنفيذ الأعمال كما يخطط لها، فإذا نفذت هذه العمليات فإن خطوط مواصلات الأترالك في منطقة القدس ستصبح مهدداً. غير أنني لا أرى من المناسب أن يبدأ العرب عملياتهم، إلا إذا قامت قوات الحملة المصرية بالهجوم على القطعات التركية المواجهة لها لغرض تثبيتها في مواقعها لمنعهم من إرسال تعزيزات كبيرة إلى منطقة حوران. تستطيع القوة رقم 3 أن تقوم بمجهود واحد فقط (ربما لمدة شهرين) وإذا ما قضى على هذه القوة فإن آمال العرب في سوريا ستكون رهينة في إمكانية نجاح العمليات بين حصن وحلب، والتي لم تختر بعد، ومن السابق لأوانه الحديث عنها الآن. طلب مني الشريف ناصر أن أبحث مع قيادة الحملة المصرية الموقف العسكري واحتياجاته وإمكانية القيام بعمل مشترك بين قواته وقوات الحملة المصرية ضد القوات التركية في فلسطين، كما مبين أعلاه.

لورنس

مقتبسات من التعليلات التي أصدرت إلى نسيب بيك البكري في كاف في

: 1917/6/18

1. رتب خدمات الاستخبارات مع وكلاء مقيمين في دمشق ودرعا وعبان لجمع المعلومات العسكرية.
2. قم بمصالحة زعماء الدروز مع بعضهم.
3. اتصل بالدروز في حاصبيا ولبنان؛ وكذلك مع المتأولة في جبل عمر وبلاط بشارة (مستعملاً اسم سيد ناصر) وطمئن الموارنة في المنطقة حول نوايا وطبيعة الإدارة الشريفية في المستقبل.

4. اتصل بجماعة الغوارنة في بحيرة الحولة ومرج عيوم.
5. أرسل زكي أفندي إلى لجة لفقد الطرق وتقوين المياه.
6. أبعث لي بتقديرات عن حاجة الدروز من المواد الخيرية.
7. أبحث مع نوري قضية تصفية المستوطنات الشركسمية في النقرة والقنيطرة.
8. اتجه نحو بعض زعماء المناولة في بعلبك لمعرفة ماذا يامكانهم عمله.
9. هم القرويين في جبل الشيخ وجبل شرقى وجبل كلمون.
10. توصل إلى اتفاق سريع مع جماعة البشير.

\* \* \*

### احتلال العقبة

النشرة العربية، العدد 59

استطعنا في 6/18 أن نضم إلى صفوفنا 535 رجلاً من طويبة (كان خمسة وعشرون منهم من الفرسان) وحوالي 150 من الروالة (يقودهم نياية عن دغمي، شفيق درزي) ومن الشرارات (بقيادة جريطان العزمي) وخمسة وثلاثين من الكواكب بقيادة ضامي. انتخبنا من بين هؤلاء حوالي المائتين ترکناهم لحراسة مخيمات القبائل في وادي سرحان. سرنا مع البقية إلى كاف عند العصر وفي 6/20 دخلنا بابر بعد مسيرة سهلة إلا أنها قليلة الماء. وهناك في بابر وجدنا أن أحد الآبار قد طُمرت وأثنين آخرين قد أصبتا بأضرار كبيرة وتركت الرابعة سليمة؛ فلقد جاء الأتراك هنا قبل قليل مع حمد العرار وحاولوا نسفها بالتفجيرات كانوا قد أساءوا استعمال قادح كهربائي في العملية وتمكنوا من إزالة بضعة حشوات من التفجيرات من جوانب البئر التي بقيت سليمة.

أجبرتنا الظروف على البقاء في بابر حتى 6/28. وقضينا الوقت في مفاوضات مع ابن جازى والفروع الصغيرة من قبائل الحويطات على طريق العقبة كما قمنا

كذلك بنسف بعض أجزاء السكة في عطوي وسلطاني ومنيفير وأماكن أخرى. كان أفراد التفجيرات من عقيل غير كفوئين وما لدينا من المتغيرات قليل المدار لذلك لم تكن التفجيرات أكثر من وخذ الإبر لم يقصد منها إلا مشاغلة الأتراك وإشعار العرب بأننا قد وصلنا. وقد قُتل موظفو محطتين للغاية نفسها. سرنا من باير إلى الجفر حيث بقينا إلى ١/٧. وهناك كانت عمليات الأتراك ضد آبار الماء أكثر نجاحاً، فواجهتنا صعوبات في حفر أحدها، وكان ما فيها من الماء، إن حصلنا عليه، يكفي لإرواء حوالي ثلاثة رجال وبغير. كانت بناءات المحطات في كل من معان والحرم، بادية للعيان من الجفر، على بعد حوالي أربع وعشرين ميلاً. إلا أن الأتراك لم يدركوا أننا قد جثنا بقوة كبيرة، وذلك بسبب العمليات قرب عمان التي نفذتها قوة سريعة الحركة من مائة رجل بقيادة شيخ زاعل. وجعلتهم ذلك يعتقدون بأننا ما زلنا في وادي سرحان. وفي الثلاثين من حزيران/يونيو أرسلوا قوة من 400 خيال وأربعة رشاشات مع نواف بن شعلان دليلاً لهم للحركة من درعا إلى كاف للعمور علينا. وعلى ما يبدو، أن الأتراك لم يستطيعوا أن يميزوا بين الأخبار الصحيحة والكاذبة من بين ذلك السيل من المعلومات التي كان العرب المحليون يأتونهم بها بدون تدقيق. ومن الجفر انطلق رتل خفيف راكباً إلى فويلح على بعد سبعة عشر ميلاً إلى الجنوب الغربي من معان. وبالتنسيق مع حويطات الضمانية (الشيخ قاسم هاجم الموقع التركي على طريق السيارات إلى العقبة. وخلال المعركة هجم بعض الأتراك على مجموعة من خيام عزاء للحويطات فقتلوا عجوزاً وست نساء وسبعة أطفال هم ساكنوها الوحدين. ونتيجة لذلك أباد جنودنا العرب كافة أفراد الموقع التركي إلا من استطاع منهم الهرب إلى معان.

وصلت هذه الأنباء إلى معان عند الفجر يوم ٧/٦ فصدر أمر إلى فوج من اللواء ١٧٨، الذي كان قد وصل إلى معان من زنقلا قبل يوم، بالحركة فوراً إلى

فويلح لإنقاذ الموقع التركي. وفي عصر اليوم نفسه، نزلنا إلى خط السكة عند الكيلومتر 479 قرب غدير الحج وقمنا بتفجيرات واسعة للخط حتى الغروب، وبعد ذلك توجهنا غرباً بنية المبيت في البراء. إلا أننا التقينا أثناء الطريق برسُل من قواتنا في فويلح أخبرونا عن وصول قوة تركية جديدة من معان، لذلك غيرنا وجهتنا نحو الشمال وسرنا معظم الليل حتى تمكننا عند الفجر من احتلال بعض قمم للتسلل المنخفضة المغطاة بالعشب التي تحيط بجانبي طريق العقبة قرب عين أبي اللسان. كان الأتراك قد وصلوا إلى فويلح فلم يجدوا سوى النسور لتلتهم الجثث فنحركوا إلى أبي اللسان على أربعة عشر ميلاً من معان ليقضوا عليهم. كانت عين الماء هناك قد بني حوالها بناء ونصبت أنابيب ويكتفي ما ذكرها لإرواء ألفي شخص تقريباً، ولو أن حجمها قد صغر عنها كان عليه قبل الحرب. كان الفوج التركي قد عسكر قرب العين متجمعاً في بطん الوادي، لذلك استطعنا أن نحتل الأرض المرتفعة (على مسافة 400 إلى 600 ياردة) بدون صعوبة.

بقينا في موقعنا وأخذنا نترافق مع الأتراك طيلة يوم 7 وأوقعنا فيهم بعض الخسائر. ورد الأتراك علينا بإطلاق قذائف من مدفعهم الجبلي. أطلقوا علينا عشرين قذيفة كانت كل ما معهم. كانت قذائفهم تمر قرية من قمة التل ثم تنفجر بعيداً في الوديان الخلفية. وعند حلول المغيب جمع عودة أبو طي الفرسان الخمسين الذين معنا في واد يبعد 200 ياردة عن الأتراك، وبإسناد منا قاموا بغارة بهجوم عنيف فاجتوا به الأتراك، وهم يطلقون النار من على ظهور الخيول. ويظهر أن هذه الحركة غير المتوقعة قد أوقعت الارتباك في صفوف الأتراك (وقوتهم 550 رجل)، وبعد تبادل الرمي تفرقوا في كل جانب. كان ذلك إشارة لنا بالهجوم فاندفعنا بقوتنا (حوالي 350 رجل) هاجمين نحو الوادي بأسرع ما تستطيعه حالنا. كانت جميع القوة التركية من المشاة، وجميع القوة العربية راكبة، فصار اختلاط ألف من المقاتلين

يطلقون النار بجتون شيئاً رهيباً. وبعد أن تفرق شمل الأتراك أصبح وضعهم ميئوساً منه تماماً، وما حدث خلال خمس دقائق لم يكن سوى مذبحة. استطاعت بعد كل شيء أن أحصي من الأعداء ثلاثة قتيل في الموقع الرئيسي، وقد يضاف لهذا العدد بعض الذين هربوا وقتلوا على بعد من ذلك، مع أن معظم رجالنا قد ذهبوا إلى المعسكر التركي لينهبوه قبل أن تحمد نار المعركة. وصل عدد الأسرى إلى 160 (بينهم ثلاثة ضباط)، أسر معظمهم من قبيل ومن قيل الشريف ناصر، لأن العرب في منطقة معان كانوا متحاملين على الأتراك وعازمين على قتل من يقع في أيديهم. ولم يهم بعض العذر في ذلك بسبب المذبحة التي وقعت بين النساء والأطفال المذكورة أعلاه. وبسبب إعدام الشيخ عبد الرحمن في وقت سابق، وهو أحد البلغاويه من الكرك. كان شخصاً محباً ومعادياً للأتراك إلا أن الحكومة قبضت عليه وشدد حسده بين أربعة بغال قطعته حتى مات. كان ذلك ختام عدد من الإعدامات في الكرك، تركت ذكرها شعوراً بالعداء لدى الرأي العام في المنطقة. كانت خسائر العرب في المعركة مقتل رجلين (أحدهما من الروالة والأخر من الشرارات) وجراح بضع رجال من بينهم الشيخ بنيا بن دغمي. وبالنظر إلى الارتكاك الذي حدث، ومقدار ما أطلق من الرصاص، وضيق المكان، وحجم خسائر الأتراك، فإن العرب قد خرجوا من المعركة موفوري الحظ. فلقد أصيب عدد من الخيول في الهجوم، ونجا عودة نفسه (والذي كان في المقدمة طبعاً) من الموت بأعجوبة، فلقد أصابت طلقات ناظرته ونفذت أخرى من غلاف مسدسه وأصابت ثلات طلقات سيفه المغمد، كما أن حصانه قُتل تحته. وكان عودة مسروراً للغاية بالعملية كلها.

ولسوء الحظ فقد كان الكثير من الأسرى الذين وقعوا في أيدينا مصابين بجروح، ولم يكن لدينا الكثير من الجمال الفائضة عن الحاجة. فمن كان منهم قادرًا على التهاسك أركبناه خلف أحد رجالنا فوق الجبال الاحتياطية، إلا أنها اضطررنا إلى

ترك من كان متهم بلبلة الإصابة في أبي اللسان. وقد مات خسون أسيراً من بين الذين أخذناهم معنا، وذلك بسبب الحر والجوع والعطش في الطريق إلى العقبة. كان الحر شديداً للغاية بين الحسمة ووادي عتم، وكمية الماء بين العقبة وفريلح لا تكاد تكفي لما تي رجل وحيواناتهم. أما بشأن الطعام فقد أخذنا معنا أنا وناصر تمرين شهرين من وجه، وهو نحن قد قضينا شهرين في حركتنا. وكان مع البدو طعامهم الخاص بهم في حقائب سروجهم، إلا أن غذاء الأعراب لا يلائم الجنود الآتراك، كماً ونوعاً. وقد عملنا ما نستطيعه تجاه الأسرى إلا أن كل واحد منا كان بحالة عوز.

ومن أبي لسان سرنا إلى قويرة (22) ميل) بعد أن بعثنا رتلاً استطاع تدمير مريقة وهي أقرب موقع تركي إلى معان، في الطريق إلى العقبة. واستسلمت لنا حامية قويرة (تعدادها حوالي 150 رجل)، يتوسط لهم حسين بن جاد الذي انضم إلينا هنا في 7 / 4 (كان الشيخ بن جاد يتبع في القويرة سياسة التوازن لينضم إلى الطرف الأقوى، ولما أصبحنااليوم ذلك الطرف الأقوى جاء ذلك الثعلب العجوز إلى صفوفنا). كان طريق السيارات قد عُبد من معان حتى سفح نقب الستار، إلا أنه لم يبلط في أي جزء منه. ولما كانت التربية صلبة بعض الشيء فأظن أنها تصلح لحركة السيارات الخفيفة. أما النقب فكانت فيه انحدارات شديدة وانحناءات صعبة في الطريق ويحتاج إلى إصلاحات. وكانت أرض الحسمة ذات رمل أحمر ناعم، يرتجي على امتداد الأثر، إلا أنه أكثر صلابة في قعر مجاري الماء الذي يسيل من سفوح النقب إلى القويرة. ومن القويرة مشينا على امتداد وادي عتم إلى كثيرة (18 ميل) حيث اكتسحنا موقعاً تركياً من سبعين جندي من المشاة وحسين من الراكبين، حيث أسرنا معظمهم (وقد منحنا شرف تلك العملية إلى ابن جاد ورجاله الذين لم يكونوا قد أنبهوكوا، ونصحناه أن يقوم بالهجوم عند الظلام. وحاول التملص معتذرًا ببعض

الصعوبات ومحتجًا بأن القمر بدر. إلا أنها قطعنا عليه احتجاجاته واعدين إياه أن بعض الوقت من هذه الليلة سيكون مظلماً فقد كانت مفكرتنا تشير إلى حدوث الخسوف. حدث الخسوف في موعده ونجح العرب فياحتلال الموقع دون خسائر من جانبهم، بينما راح الجنود المعتقدون بالخرافات يطلقون الرصاص ويقرعون صهون النحاس لإنقاذ القمر الذي يهدده الحوت بالابتلاع). ومن هناك ذهبنا إلى القرب من خضرة على السد الصخري القديم في وادي عتم (15 ميل) حيث حصل التهاب مع حامية العقبة (300 رجل). كان رجال الحامية قد انسحبوا إلى موقعهم هذا من قرية العقبة نفسها (على بعد حوالي ستة أميال)، لكنه يكونوا بعيدين عن ساحل البحر وعلى امتداد خط الانسحاب نحو معان. كانت أخبار معركتنا في فويلح قد وصلت بسرعة إلى العقبة فأدى ذلك إلى ثورة قبائل عمران والدراوشة والمهايات وفروع قبائل الحويطات قرب العقبة وتجمعوا حول موقع الخضرة وأحاطوا بها، إلا أن المدافعين عن الموقع صدوه من خنادقهم موقعين بهم خسائر طفيفة لمدة يومين. وعندما لاح ناصر وقواته ازداد حساس وهياج العرب وصاروا يتهدّأون للقيام بهجوم فوري. إلا أن ذلك لم يناسب خططنا لأننا أردنا أن يتمشّر الخبر بأن العرب يقبلون الأسرى (لتشجيع الطرف الآخر على ذلك). لقد كان جميع الأتراك الذين صادفناهم مستعدّين بكل سرور للاستسلام، فكانوا يرفعون أسلحتهم ويصيحون «مسلم، مسلم» حالما كانوا يروننا. وكانوا يعبرون عن استعدادهم ورغبتهم في محاربة الأجانب والمسيحيين حتى الموت. لا أن يجعلوا مسلماً واحداً آخر يحارب في صفوف أعدائهم. ولأجل إنقاذ حامية موقع الخضرة من مذبحة مؤكدة، جاهد الشريف ناصر منذ العصر حتى الفجر ونجح أخيراً بتحقيق هدفه (أننا ذهبنا بأنفسنا نعترض خطوط النار بين الطرفين)، وأصبح لدينا بعد ذلك سهانة من الأسرى مشينا بهم نحو العقبة صباح السادس من تموز / يوليو. كانت دهشة الخبر الألماني (الذي كان يحفر الآبار في الخضراء) كبيرة ومضحكة. لم

يُكَنْ يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ وَلَا التَّرْكِيَّةَ وَلَمْ يَسْمَعْ بِالثُّوَرَةِ الْعَرَبِيَّةِ. كَانَ مَوْقِفُنَا فِي الْعَقْبَةِ خَطِيرًا مِنَ النَّاحِيَةِ الْاِقْتَصَادِيَّةِ. لَمْ يَكُنْ لَدِنَا طَعَامٌ وَبَيْنَ أَيْدِنَا سَهَانَةُ أَسِيرٍ وَيَلُوحُ فِي الْأَفْقِ الْمُزِيدِ مِنْهُمْ. كَانَ الْلَّحْمُ وَفِيرًا حِيثُ كَنَا نَذْبَحُ بَعْضَ الْحِمَالِ عَنْدَ الْحَاجَةِ. وَكَانَ فِي الْبَسَاتِينِ تَمَرٌ لَمْ يَنْضَجْ بَعْد. وَخَفَفَ هَذَا الْعَنْصَرُ كَثِيرًا مِنَ الصَّعْوَبَاتِ، إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ يَسِيبَانِ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَتَاعِ بَعْدِ أَكْلِهَا، وَلَمْ تَشْعُرِ الْقَوَافِتُ فِي الْعَقْبَةِ بِالْأَرْتِيَاحِ إِلَّا بَعْدِ وَصْوَلِ سَفِينَةِ صَاحِبِ الْجَلَالَةِ «ضَفَرِين» يَوْمَ 13/7 وَهِيَ تَحْمِلُ لَنَا الطَّعَامَ مِنَ السُّوِسِ. وَقَبْلِ وَصْوَلِ الْبَارِخَةِ أَرْسَلْنَا قَوَافِتُ عَرَبِيَّةً شَهِالًا لِلْاِحْتِلَالِ التَّلَالَ فَوقَ وَادِي مُوسَى (الْبَرَاءَ) عَلَى بُعْدِ حَوَالِيْ سَتِينِ مِيلًا مِنَ الْعَقْبَةِ، وَأَخْرَى جَنُوبًا لِلَّانْصِمَانَ إِلَى بَنِي عَطِيَّةَ وَلِيَسْتَطِلُّوْنَا الْمَنْطَقَةَ لِغَرْضِ شَنِّ هَجُومٍ عَلَى خطِ السَّكَةِ جَنُوبَ مَعَانِ.

\* \* \*

### إِلَى الْكَوْلُونِيَّلِ سِي. فَي. وَلِسْن

الْعَقْبَةَ - 2/9/1917

عَزِيزِي الْكَوْلُونِيَّلِ وَلِسْن

كَانَ عَلَيَّ أَجِيبُ عَلَى مَذْكُورِكُمُ الرِّيقَةَ قَبْلَ هَذَا الْوَقْتِ، إِلَّا أَنِّي شَغَلتُ بِقَضَايَا التَّمْوِينِ وَالْأَمْوَارِ الْأُخْرَى عِنْدَمَا أَبْحَرَتِ السَّفَنُ الْمُتَجَهَّةُ جَنُوبًا. كَانَتْ عَمَلِيَّاتُ الْحِجَازِ طَرِيقَةً ثَمَامًا، لَمْ يَحْدُثْ لَهَا مِثْلٌ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَيْسَ بِامْكَانِ أَحَدٍ لَمْ يَأْلِفْهَا أَنْ يَعْرِفَ صَعْوَبَيْهِ إِدارَتِهَا. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَقَدْ سَارَتْ هَذِهِ الْعَمَلِيَّاتِ كَمَا يَجِبُ وَسِيَّسَجَلَهَا التَّارِيخُ نَصَارًا، غَيْرَ أَنِّي آمَلُ أَنَّ الصَّعْوَبَاتِ الَّتِي كَانَ عَلَيَّ تَذَلِّلُهَا سَتَكُونُ بِالْدَّرْجَةِ نَفْسَهَا مِنَ الْوَضُوحِ. إِنَّ ذَكْرِيَّاتِي عَنْهَا لَجْمِيلَةُ (وَالْفَضْلُ فِي ذَلِكَ لَكُمْ بِطِبْيَّةِ الْحَالِ)، وَإِذَا مَا وَفَقْتُ فِي إِصْدَارِ كِتَابٍ عَنْهَا فَسَأَحْاولُ أَنْ أَجْعَلَ النَّاسَ الْآخَرِينَ يَدْرُكُونَ تَلْكَ الصَّعْوَبَاتِ. فَهُمْ لَا يَظْهَرُونَ كَمْ يَقْدِرُ دَائِمًا أَنَّنَا فِي ذَاتِ

الوقت الذي كنا فيه ننتقل من مكان لأخر ندمر سكة حديد أو موقعاً عسكرياً ونتمتع بما نصنع. كان هناك شخص آخر ملزم بالبقاء في الجزء الخانق في جدة معنى بإدامه التركيز على مهاجحة خطوط السكة. وقد يدرك أن تسمع ما يقوله فيصل والآخرون عنك في بعض الأوقات. وعلى كل حال فلي طلب لديك، إن الشريف غير راضٍ عن مجبي « جعفر ولم يوطن نفسه على قبول ذلك [إن جعفر باشا العسكري هو ضابط عراقي في الجيش التركي أخذ أسيراً من قبل القوات البريطانية بعد اندحار قوات السنوسى، فنطّر للالتحاق بالثورة العربية وأصبح رئيساً لأركان قوات فيصل، ثم أصبح بعد ذلك واحداً من أهم الوزراء في العراق حتى قُتل غيلاة ]. لقد قام جعفر بأعمال عظيمة وتمكن من جمع شمل الضباط وأعترف به زعيماً لهم. إن ذلك سوف يعمل علم السحر في رفع مستوى الانضباط في القوة كلها وخاصة لو تمكن من كسب عدد آخر من الضباط، وقد ذهب الآن إلى مصر لهذا الغرض. فهل تتصور أن بإمكانك أن تحصل من الشريف على رسالة يوجهها له يشكّره على جهوده ويتحدث معه عن الآمال المشتركة في المستقبل؟ إن جعفر يشعر بحاجة لذلك وستمنحه هذه الرسالة الثقة بنفسه.

أتصور أن الحصول على مثل هذه الرسالة ليس سهلاً كما يبدو، ولكنك إذا ما لقيت اللحظة المناسبة أو كلفت صديقاً حصيفاً فقد تنجح في ذلك، لأن طلباً مباشراً بهذا الشأن من الريف يبدو غير مناسب. آمل أن أذهب إلى المدورة خلال ثلاثة أيام. فقد عطلني احتياجي إلى المال.

\* \* \*

### إلى القائد العسكري في أكبر

الازرق - 13/11/1917

عزيزي جويس

أرجو أن تقول لفيصل أننا ذهبنا إلى الجفر ووجدنا زاعل وأباطي خائفين من المجيء علينا. وقد حاول كل من الشريف علي وعودة كل جهدهما لخنهما على

١٠

المجيء، ولكن بدون جدوى. إن أباطيء يكاد يتمدد على عودة ولا أظن أننا سنجد منها أي نفع، فلقد عاملناها بأحسن مما يلزم.

ومن هناك ذهبنا إلى باير حيث وجدنا مفلح بن زبن فذهب معنا، وكذلك فعل فهد وأدحاب بن زبن، وكانتا على أحسن ما يرام. أعتقد أن هؤلاء الثلاث من أحسن الشيوخ العرب الذين التقى بهم. وكان فهد قد أصيب في وجهه في عملية القطار وأرجو له أن يشفى. ومن باير ركبنا إلى الأزرق حيث التقينا بجماعة السراحين، ثم ركب معنا الشيخ مفلح بن بالي حتى الجسر، وقام بواجبه خير قيام، غير أنه وقبيلته ليسا على وفاق معبني صخر، وجاء معنا إلى الأزرق الأمير عبدالقادر حيث وضعنا خطبة الهجوم على الجسر الذي في تل الشهاب، ووعدنا بأنه سيأتي معنا ولم نشعر أن في الأمر ما يريب غير أنه فارقنا في اليوم نفسه (دون أن يخطرني أو علياً أو أيّاً من العرب الذين معنا) متوجهًا إلى صلخد حيث لا يزال مقيداً هناك. فقل لفيفصل أنني أظنه خائفاً، فهو يقول كثيًّا ويفعل قليلاً، ولم تصدر مني ولا من علي أية إساءة له.

إن في تل الشهاب جسراً بدبيعاً يستحق التدمير، إلا أن هؤلاء الناس من السراحين قد ألقوا عنهم كل ما يحملونه من التفجيرات التي أملكتها حالما بدأ إطلاق النار فلم أستطع عمل شيء، فإذا لم يقم الأتراك بتعزيز الحراسة عليه فقد نقوم بالعملية بعدهن، إلا أن فقدان المتفجرات بمثل هذا العمل الغبي قد آلمني جداً. إن البدو لا يستطيعون الاستيلاء على الجسر، إلا أنهم يستطيعون الوصول إليه. أما المندوب فيستطيعون الاستيلاء عليه إلا أنهم لا يستطيعون الوصول إليه.

ومن تل الشهاب قفلنا عاثدين إلى خط السكة جنوب درعاً ودمرنا قاطرتين. كانت عملية خطرة جداً، إلا أنها انتهت كما يحب، فلا بد أننا قد قتلنا حوالي مائة

تركي كذلك. إن علياً الصغير هذا رجل شجاع، وكان يهب لنجدتي بكل جرأة كلها دعى الأمر لذلك. فمن لم يبق مصاحباً في سفره لشخص ماهر وحذر مثل فلسوف يلاقي حتفه بالتأكيد. فهو في الوقت الذي يلقي بنفسه في أية معمدة تحدث يبقى محتفظاً بسيطرته الجيدة على العرب أثناء المسير، وكان لطيفاً للغاية معي - وأظنه في المقدمة بين الأشراف - إلا أن عليه أن يأخذ الأمور بالهدوء، وإلا فسألط شخص آخر ليرافقني في جولاتي. أرجو أن تسلم فيصلاً (وسناك أيضاً) أية فقرات تشاء من التقرير المرفق المرسل إلى كلايتن، وأخبره أن جميع بلاد فلاحي حوران أخذوا يميلون إلى صفة، وكل ما يحتاجونه هو المال والأسلحة وأمراً يحركهم للعمل. ليس باستطاعتنا الحصول على أخبار ما حدث في غزة. أظن أن التقرير المرفق يصلح للنشر في الصحف، وأن علياً يستحق أن يذكر بشأنه فهو شاب غير اعتيادي. أما طلباتي الشخصية فستصلك في خطاب آخر.

المخلص لورنس

[أدناه التقرير المرفق بالرسالة]

«في الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر قامت مفرزة من الجيش الشهابي للشريف فيصل، تحت قيادة الشريف علي بن حسين بن الحارث بمهاجمة سكة الحديد وقطارات نقل الجنود بين درعاً وعمان، تم تدمير قاطرتين وعدد من العربات تماماً، ونصف أحد الجسور، وخسر الأتراك عدداً كبيراً من القتلى والجرحى وخسر العرب سبعة مقاتلين».

\* \* \*

[أدناه تقرير لورنس عن معركة سيل الحسا الذي نشره في العدد 79 من النشرة العربية].

## معركة سيل الحسا

الطفيلة - 1/26/1918

[النشرة العربية، العدد 79]

في يوم 19/1/1918 تحركت إلى محطة قلعة الحسا قوة تركية مؤلفة من الفوج 151/3 والفوج 152/1 وفوج مرتب من اللواء 150 مع سرية من الجندرمة ومفرزة من مائة خيال ومدفعين جبلين سريعي الرمي من نوع نمساوي وثلاثة وعشرون مدفعاً رشاشاً، كانت كلها بقيادة حيد فخرى بيك وكيل قائد الفرقة 48. غادرت هذه القوة مدينة الكرك 1/23 لاحتلال الطفيلة. كانت هذه القطعات قد جُمعت على عجل من قيادات المناطق في عمان وحوران، واتجهت إلى هدفها من الكرك وهي تعاني من نقص في التجهيزات، تاركة وراءها في الكرك قليلاً من الأفراد وبدون طعام. حدث أول اتصال بين هذه القوة ودورياتنا في سيل الحسا يوم 1/24 بعد الظهر، وعندما حل الليل استطاعت القوة التركية أن تجبر دورياتنا على الانسحاب إلى الطفيلة. كان ضباط القوة الشريفية قد رتبوا موضعًا دفاعياً على الضفة الجنوبية من الوادي الكبير الذي تقع عليه الطفيلة، وتحرك الأمير زيد متوجهًا إلى هذا الموضع عند منتصف الليل، ومع ستون من الجنود النظاميين وأربعين من الجنود غير النظاميين (من عقيل وبيشة ومطير)، الذين كانوا قد جاءوا معه من العقبة. وفي الوقت نفسه تحركت القوة الشريفية الرئيسة منسحة إلى بصيرة، وظن الجميع أننا كنا في حالة هزيمة، وأعتقد أتنا فعلاً كذلك.

لقد أصاب الرب سكان الطفيلة بطبيعة الحال، ولما كان الشيخ ذياب العوران قد أوصل لنا أخباراً مزعجة عن التذمر والغدر لدى السكان القرقوين خرجت من داري قبيل الفجر وذهبت إلى الشوارع المزدحمة لأسمع ما يقال. كان الناس يوجهون النقد إلى الشريف بصورة علنية، وكان فيه الكثير من عدم

الاحترام، إلا أنه يخلو من مظاهر عدم الولاء. كان جميع الناس يصرخون ذعراً وكانت الأمة تخرج من البيوت وتكدس في الطرقات التي اختفت بالرجال والنساء. وكان بعض العرب يسرعون على خيولهم في الشوارع وهم يطلقون النار في الهواء بصورة طائشة ووما ينفع التركية يظهر من بعيد عند أطراف التلال في مضيق الطفيلة.

وعند الفجر تماماً أخذت طلقات العدو تساقط في بساتين الزيتون فذهبت إلى الشريف زيد وأقoute أن يبعث عبدالله أفندي (أصغر الضابطين اللذين كانوا معنا وأمر قوة الرشاشات) ومعه اثنين من الرشاشات لكي يسندهم الفلاحين التي ما زالت تحفظ بالتلل الشمالي، وقد أدى وصول عبدالله أفندي إلى تشجيع هذه القوة على القيام بهجوم مقابل استطاعوا فيه أن يطردوا الخيالة التركية التي انسحب عبر سلسلة التلال الغربية والسهل الصغير بعدها، حتى المرتفعات التي تؤدي إلى وادي الحسا. واستطاع عبدالله كذلك أن يحتل هذه السلسلة من التلال وأن يحافظ بها بينما تركز القسم الأكبر من القوة التركية في المنطقة التي تقع بعدها مباشرة. واشتدت حدة القتال بين زخات غزيرة من نيران الرشاشات التركية وقصص مدفعيتهم الكثيف. أخذ زيد يتردد بشأن إرسال تعزيزات للأمام لذلك ذهب إلى موقع عبدالله أفندي (على بعد سبعة أميال شمالي الطفيلة) لمعرفة الموقف. وفي طريقه إلى هناك التقيت به راجعاً بعد أن قُتل خمسة من رجاله في المعركة، وتعطلت إحدى رشاشاته ونفذ عتاده. على أثر ذلك بعثنا برسائل عاجلة إلى زيد لأن يرسل إلى الأمام مدفعاً جبلياً وما تيسر من الرشاشات وما يستطيع جمعه من الرجال، ليحتلوا موضعًا احتياطيًا يقع في الطرف الجنوبي من السهل الواقع بين وادي الحسا ووادي الطفيلة، وهذا السهل عبارة عن أرض مثلثة الشكل وطول ضلعه ميلان وله فتحة من جهة الشمال وهو مر منخفض يمر من خلاله طريق الكرك الذي كانت القوة

التركية تأتي عبره. وعلى جانبي السهل المثلث سلاسل من التلال المنخفضة استطاع عبدالله أفندي بهجومه أن يحتل كل التلال الغربية.

وبعد مغادرة عبدالله ذهب إلى الجبهة فوجدت الموقف صعباً إلى درجة كبيرة. كانت القوة التي تدافع عن الموضع عبارة عن ثلاثين فارساً من جماعة حويطات ابن جزي وحوالي ثلاثين فلاحاً. كان الأتراك يعملون في الممر وسلسلة التلال الشرقية ويصبون نيراناً مركزة من حوالي خمس عشرة رشاشة على جبهة ومحنة المرتفع الصغير البارز الذي كنا نقاتل فيه. كان الأتراك في تلك الأثناء يقومون بتصحیح نيران مدفعتهم التي كانت تمر قربة من قمة التل وتتفجر عند السهل، وقد بدأت شظايا قنابلهم تقطي جوانب وقمة التل بزيارة. كان مقاتلونا يعانون من نقص في الذخيرة. وبدا أن مسألة احتلال الأتراك للتل إنها هي مسألة دقائق، ثم ظهرت في الجلو طائر تركية مما جعل موقفنا أكثر صعوبة. أعطينا جميع ما استطعنا جمعه من الإطلاقات إلى الفرسان من قبيلة المطالقة ودفعنا الرجالين عبر السهل. وكنت من بينهم لأنني كنت قد وصلت من الطفولة مباشرة عبر المرتفعات ولم تكن قوة الحيوانات التابعة لي قد لحقت بي بعد. استطاع الرجال الراكون أن يصمدوا لمدة خمسة عشر دقيقة أخرى ثم عادوا إلينا دون أن يمسهم أذى.

جمعنا قواتنا في الموضع الاحتياطي وهو سلسلة ارتفاعها حوالي ستين قدم وترشّف بصور جيدة على السهل. كان الوقت حوالي الظهيرة وقد بلغت خسائرنا خمسة عشر رجلاً وبقي معنا ثمانون رجلاً تقريرًا غير أن بعد بضعة دقائق التحق بنا حوالي مائة وعشرون رجلاً من عقيل ووصل رجالٍ مع رشاشة طوعية نوع هوجكس ورشاشتين مثلهما مع لطفي العسلي. فاستطعنا بذلك أن نصمد في موقفنا بسهولة حتى الساعة الثالثة عصرًا عندما وصل الشريفان زيد ومستور ومعهما راسم وعبدالله وبصحبته مدفع جبلي (2.95) عقدة من أسلحة الجيش المصري

ورشاشتين فيكرز ورشاشتين كبيرتين هوجكس وخمس بنادق طوعية مع عشرين رجلاً من المشاة راكبي البغال وثلاثين خيالاً من المطالقة وحوالي مائتي رجل من القرويين. كان الأتراك يحاولون قصف موقعنا بالمدفعية والرشاشات إلا أنهما وجدوا صعوبة في تقدير المدى.

كانوا قد احتلوا خطنا الجبهوي القديم وكان مداه عن موضعنا (3100) ياردة بالضبط حيث كنت قد حسبت المسافة بالخطوات عند عودتي من الموضع (إن من الصعب جداً تقدير المسافات بالعين في هذه المنطقة الجبلية). حشنا كل معداتنا على السلسلة التي نحتلها بينما، أخذ راسم كل الأفراد الراكيين واتجه بهم إلى اليمين (وعدددهما الآن حوالي الشهرين) ليقوم بعملية التفاف حول السلسلة الشرقية، وتمكن من التقدم دون أن يلاحظه العدو حتى استطاع أن يقترب إلى مسافة 2000 ياردة من مجنبة القوات التركية. ومن هناك قام بهجوم راجل بقوة عشرة رجال وخمس بنادق طوعية مبقياً خيله في الاحتياط. وفي هذه الأثناء كان لدى الأتراك من الأسلحة فقط خمسة مدافع ماسكيم وأربع رشاشات طوعية على الكتف الغربي من المر فتحوا منها نيرانهم على مركز موضعنا. ردنا على نيرانهم برشاشاتنا الفيكرز والهوجكس وألقينا اثنين وعشرين طلقة مدفع على جبهة المرتفع. ثم وصلتنا تعزيزات بقوة مائة رجل من عيمة (كان هؤلاء قد رفضوا أمس أن يخدموا في القوات الشرفية بسبب خلافات حول الرواتب، إلا أنهم تركوا ذلك جانبًا عندما جاءوا أزمة مشتركة) فدفعنا بهم مع ثلاثة رشاشات هوجكس إلى جناحنا الأيسر فاستطاعوا أن يزحفوا خلف السلسلة الغربية حتى وصلوا إلى مدى مائتي ياردة عن موضع الرشاشات التركية دون أن يلاحظهم العدو في الوقت نفسه الذي قمنا فيه بشن هجوم جبهوي بقوة ثمانية عشر رجلاً ورشاشتي فيكرز رشاشة هوجكس تقليتين.

كانت أرض الموضع التركي من حجر الصوان فلم يستطيعوا أن يتخندقوا فيها. مثلما لم نستطيع نحن أيضاً في الصباح، وكان تنططر الإطلاقات على الصخر مربعاً. خسر الأتراك العديد من الرجال واستطاع رجال جناحنا الأيسر أن يهجموا على موضع الرشاشات التركية وهم يصوبون عليه صلبات كثيفة من نيران أسلحتهم واستطاعوا إبادة القوة والاستيلاء على أسلحتها. ثم هجمت قوتنا الراكرة على القوة التركية المنسحبة عند جناحنا الأيمن بينما دفعتنا إلى الأمام قوات المشاة والرياحات إلى قلب الموضع. استطاعت قواتنا أن تختلي خطوط الأتراك عند الغروب ثم طاردت العدو عبر مواضع أسلحته حتى بطن وادي الحسا، حيث وقفت قواته الخيالة بوجه قواتنا المتقدمة التي لم تتمكن منمواصلة اندفاعها حتى حلّ الظلام. وعند هذه النقطة تخلّ معظم رجالنا عن مواصلة عملية المطاردة (لم يكن لدينا طعام منذ يوم أمس وكان البرد قاسياً)، إلا أن رجال البدو من الكرك واصلوا غاراتهم على العدو المنسحب طوال الليل.

بلغت خسائرنا حوالي خمسة وعشرين قتيلاً وأربعين جريحاً. ويدرك أن رجال ابن جازي الحويطات بقيادة حمد العرار قد أبلوا بلاءً حسناً، كما كان القرويون جيدين ومضبوطين.

\* \* \*

### إلى الميجر آر. أج. سكوت

[أبا اللسان]

1918 / 8 / 28

عزيزي سكوت

إنني شديد الأسف لإزعاجك غير أنني أجد تغييراً في خططي الشخصية وأفقد وسيلة للتنقل. ولهذا اتصلت بك اليوم تلفونياً ورجوتك أن تطلب من

الشريف يوسف أن يبتاع لي (على نفقة عمليات شهالي الحجاز) أربعة من إبل الركوب الجيدة كاملة بعدها وأن يستأجر لي خادمين من قبيلة عقيل ويعطيهما ما يكفيهما لشهر من الدقيق والرز وعشرة باونات ثم يبعثهما لي إلى أبي اللسان على وجه السرعة. آنذاك سأبدأ مهمتي. إن حرسي الخاص يتشر كالعادة عبر ألف ميل في بلاد العرب. وأرجو أن يقوم يوسف بها أطلبه دون آية مضايقة لك. فإذا غادر هذان العقبة يوم 28 فإنها سيصلان هنا يوم 29 وسيكون ذلك خير تدبير. إن فيصل يريد ألفي باون نقداً فهلا بعثتها له إن تسرت لديك وتحسب ذلك على حساب المنحة الخاصة؟ فإذا كان ذلك صعباً فأرجو أن تضيفها إلى حسابات شهر أيلول/سبتمبر، انتظاراً لموافقة القاهرة (التي قمت بطلبيها) حول تقديم هدية لفيصل مقدارها اثنا عشر ألف باون.

أما حول مادة التفجير (الجلاتين) فإن آخر شحنة كانت من نوع الجلكنات وذلك غير ما أردت. فهل بإمكانك أن تتأكد إن كان هناك مقدار من النوع القديم، فإن وجدت منه أن تخبرنا في أبي اللسان عنه؟ آنذاك سأبعث لك بجملين لنقلها. كما ستصل في يوم 30/8 إلى العقبة قافلة صغيرة أرسلتها لاستلام رشاشات لويس وأشياء أخرى. إن الحيرة لتعمرنا ونحن نهيم في متاهات لا نهاية لها ولست على يقين من أننا سنصل في النهاية إلى حيث ندري أو أننا نستطيع أن نعمل شيئاً ما. إن رأسي يدور في دوامة.

بلغ تحياي إلى النخبة.

المشخص لورنس



## تحطيم الجيش الرابع

[النشرة العربية، العدد 106]

بفضل الألфи بعيد التي بعثها إلينا الجنرال اللبناني في شهر تموز / يوليو، أجرينا حساباتنا وتوصلنا إلى أننا نتمكن أن نبعث إلى منطقة الأزرق حملة عسكرية للقيام بعمليات في منطقة درعا تتألف من قوة هجامة من أربعينان وخمسين بعيداً من الجيش العربي النظامي وأربعة رشاشات فيكرز عربية وعشرين رشاشة هوجكس عربية وبطارية جبلية من أربعة مدافع فرنسية عيار 0.65 سريعة الرمي وطائرتين بريطانيتين وثلاث مدرعات بريطانية مع ما يلزم من مقطورات الإمدادة وسرية هندسة نصف من فيلق الهجامة المصري وفصيل من هجامة الكورة. وإلى جانب ذلك كان لدينا أنا والشريف ناصر أفراد الحراسة الشخصية من العرب راكبي الجمال. وصل جموع قوتنا بذلك إلى ألف رجل وبدا لنا أن فرص النجاح أمام الحملة كبيرة جداً. إلا أن مشكلة التموين كانت كبيرة جداً وخاصة فيها يخض الوقود والعتاد وكنا ندبر أمورنا يوماً بعد يوم دون احتياطي من هذه المواد، غير أننا لم نكن في يوم من الأيام في حالة عوز خطير.

بدأ القوة بمعادرة أبي اللسان في أوائل أيلول / سبتمبر على شكل مفارز وأخذت بالتحشد في الأزرق مستهدفة أن يتم ذلك في الثاني عشر من الشهر. كانت المسافة بين العقبة والأزرق مائتين وتسعين ميلاً، واستعملنا في طريقنا آبار المياه في جفر وبابر وعماري. كانت نيتنا أن نعمل في الأزرق على تجميع قبيلة الروالة ثم تتجه بكامل قوتنا إلى منطقة حوران، وشنن هجوماً مباشراً على درعا التي لم يكن يدافع عنها أكثر من خمسين مسلح. إلا أن هذه الخطة قد أفسدتها علينا الهيجان المفاجئ لملك الحجاز ضد جعفر باشا والضباط الكبير في الجيش الشهابي. لأن الأزمة التي أثارها قد أثرت بصورة سلبية على أمزجة الناس في المنطقة، وأدت إلى تأخيري في

أبي اللسان حتى الرابع من أيلول / سبتمبر. وكتيبة لذلك لم تنجح خطة تجميع الروالة واضطربنا إلى تغيير خططنا. وفي نهاية الأمر عزمنا على شن هجوم خاطف على خطوط السكة الحديدية الشهالية والغربية والجنوبية في درعا بواسطة قواتنا النظامية وخالية الروالة الذين بقيادة خالد وطراد شعلان وأي عدد من فلاحي منطقة الحوران من لديهم الشجاعة الكافية لأن يعلنوا لأنهم لنا.

وأنباء مكونتنا في الأزرق وضعنا خطة كاذبة ظاهرها المجموع على عمان. أرسلنا إلى مثقال بالأموال والتعليميات السرية للغاية بأن يشتري لنا وللإنكليز ذخيرة من الشعير لأغراض حملتنا العسكرية المشتركة ضد عمان والسلط في الثامن عشر من الشهر، وأوعزنا إلىبني شكر أن يتجمعوا في زيزا المعاونتنا. إن انتشار هذه الإشاعة إلى جانب الإشاعة عن نيتنا في المجموع في الوقت نفسه على درعا، والتي عززتها أيضاً إشارات وصلت لهم من فلسطين، أبقيت انتبه الأتراك مشدوداً إلى منطقة الأردن وما إلى الشرق منها، حيث خطوط مواصلاتهم طويلة جداً وبحاجة إلى عدد كبير من الرجال لحرابتها، وما تزال بحالة واهنة تجاه قوة بمستوى قوتنا من الحجم وقابلية الحركة، رغم كل ما بذلوه من جهود لحرابتها. غادرنا الأزرق في اليوم الثالث عشر وسرنا على امتداد وادي (جيان الخنة) إلى داخل منطقة جبل الدروز المملوقة بأحجار البازلت المتباشرة. وسيقت وحدتنا القوة المصرية وقوة الكركمة غرباً لقطع طريق عمان عند المفرق، إلا أنها لم تصلا هناك أبداً بسبب صعوبة التفاهم مع الأدلة. ولكن الطائرة العائدة لنا من نوع بريستول فايتر أسقطت في اليوم نفسه طائرة ألمانية ذات مقعدين قرب أم الجمال، لذا فإن كل شيء على ما يرام.

وفي الخامس عشر من الشهر وصلنا أم طي على بعد ثلاثة عشر ميلاً إلى الشرق من درعا. فكانت هذه المنطقة (ومنطقة أم سراب المجاورة لها) قاعدتين متقدمتين لنا، لكونهما محاطتان بعدد من أحواض المياه المتجمعة من أمطار السنة الماضية. وفور

وصولنا التحق بنا الرجال من سكان القرى القريبة، وكذلك جاءنا الشيخ طلال من طافاس، وهو أفضل مقاتل في حوران، وكان قد جاءني في الأزرق سنة 1917. وافق طلال على أن يكون لنا دليلاً وسار معنا حتى وافته المنية في درعا، بعد أن قدم لنا المساعدة ليل نهار، وكان خير راعٍ وسند لنا في كل قرية مررنا بها. ولو لا نشاطه وشجاعته وأمامته لواجهتنا صعوبات كبيرة في معظم الأوقات.

كان ما يزال من اللازم علينا أن نقطع خط السكة بين درعا وعمان، ليس فقط لكي نضفي على عملياتنا طابع الإثارة، بل لكي نقطع الطريق على التعزيزات التي ترسل من درعا إلى الجنوب. كانت خطتنا أن نتمرّكز بين درعا وفلسطين لكي نجر العدو على أن يرسل التعزيزات من فلسطين إلى درعا. ولو كنا قمنا بمجرد تحريك القطعات من عمان إلى درعا لجعلنا موقف الأتراك في فلسطين أفضل، ولا تنهينا ربيها إلى الهزيمة والوقوع في الأسرا.

ولما كان القسم الأكبر من قوة الجيش ملزمة بالحركة إلى الأمام على الفور فإن القطعة العسكرية الوحيدة التي تيسر لدينا للقيام بعملية قطع السكة كانت وحدة العجلات المدرعة والتي ليست ملائمة تماماً لهذا النوع من الواجب. ومع ذلك تحركنا بجميع العجلات التي تيسر لدينا متوجهين نحو خط السكة، واستطعنا بصورة مباغطة أن نستولي على موقع تركي بدا على جنوده الذهول عندما جعلتهم المفاجأة يتذمرون في إدراك حقيقة أنها قطعات معادية لهم. كان الموقع مسؤولاً عن حماية جسر ذي أربعة أعمدة (عند الكيلومتر 149) يبلغ طوله حوالي خمس وعشرين متراً وارتفاعه ستة أمتار وعليه قطعة جبلية من المرمر نقش عليها اسم السلطان عبد الحميد. قمنا بنصف كل ذلك الهيكل بواسطة شحنة من المتفجرات ذات مائة وخمسين كيلوغرام وقمنا بما استطعنا أن نفعله تجاه المحطة.

وفي طريق عودتنا تعرضت إحدى سياراتنا إلى حادث وكان الطريق وعرًا، لذلك لم نستطع اللحاق بقطعات الجيش إلا بعد الفجر في اليوم السابع عشر، وهو في طريقه قرب تل عرار على بُعد خمسة أميال إلى الشمال من درعا. وفي طريقنا قضينا على موقع تركي صغير وبعض الخيالة الأكراد، وبادرت جماعات التغريب عملها على خط السكة. واستطاع الفرنسيون أن ينسفوا قسماً من الجسر وخرب المصريون ستة زوج من قطع الخط الحديدية باتجاه محطة الغزالة قبل أن يبلغ الفجر. وفي هذه الأثناء، تسلقنا إلى قمة تل عرار الذي كان يشرف تماماً على درعا على مسافة أربعة أميال، واكتشفنا أن هناك تسع طائرات معادية في المطار. كانت طائرتنا قد تعرضت لإصابات قللت من فعاليتها، لذلك لم تعد طائرات العدو تخشى منافساً واستطاعت لوقت ما أن تفعل بنا ما تشاء بقتابتها ورشاشاتها. لقد حالفنا شيء من الحظ واستطعنا أن نستعمل مدافعتنا الجبلية ورشاشاتنا ما وسعنا ذلك، إلا أنها عانينا من نشاط طائرات العدو، حتى ظهرت في المساء طائرتنا الوحيدة التي بقيت تعمل، وهي من نوع (بي ثي 12)، جاءتناقادمة من الأزرق وسرعان ما انساقت في خضم المعركة. صرنا نتفرج على المهرجان الجنوبي بشعور مزيد من الخوف والأمل، لأن الطائرات التركية الأربع ذات المقدعين، وأربع أخرى نوع سكاوت كانت أكثر من ندٌ لطائرتنا الوحيدة في الجو. غير أنها بفضل الحظ المناسب، أو نتيجة للمهارة، استطاعت أن تشتبك مع طائرات العدو وتدفع الجميع غرباً ثم طاردهم إلى الغزالة، بينما جلأنا نحن إلى الاستفادة من هذه الفرصة لأن نرتب ونبعث برتل مختلط إلى مزيريب لقطع خط مواصلات فلسطين. وبعد أن تم ذلك مباشرة ظهرت في المساء مرة أخرى طائرتنا الوحيدة ومعها سرب الطائرات المعادية. وبعد أن أشار طيارنا أن وقود طائرته قد نفذ، هبط بها على أرض قريبة منها وتسببت وعورة الأرض في أن تقلب الطائرة على ظهرها، ثم جاءت إحدى الطائرات المعادية وأجهزة عليها بقنبلة حقت فيها إصابة مباشرة. لم يصب طيارنا بأذى في الحادث، واستطاع بعدئذ أن

يستعمل رشاشة طائرته نوع لويس وينصبها على سيارة فورد ويحول بها قرب درعا ليقطع خط السكة الحديد لغرض أن يتعرض أية إمدادات على الطريق.

وصلنا بحيرة مزيريب حوالي الواحدة بعد الظهر. وعند الثانية استطعنا أن نستولي على المحطة الفرنسية ونهبها. إلا أن المحطة الرئيسة على خط فلسطين كانت صعبة المثال، فانتظرنا حتى الثالثة ريثما تصل قوة راكبي الميال والمدافع. فقمنا بشن الهجوم عليها بصورة نظامية،تبع ذلك حملة صولة بعد بضع دقائق. ولما كانت جماعات النصف ما تزال تواصل عملياتها على خط دمشق لم يكن بمقدورنا أن ن فعل الكثير من أعمال التخريب، إلا أنها طهروا المحطة وأحرقوا العديد من المركبات وسيارتي لوري وكسرنا بعض النقاط وزرعنا عدداً لا يأس به من شحنات التفجير في خط السكة. وأكثر ما سبب الضيق للأتراك كان تقطيع خطوط التلغراف بين فلسطين وسوريا، هنا وفي تل عرار.

قضينا ليتنا في مزيريب وانضم إلينا المئات والآلاف من مزارعي منطقة الحوران. وتحرك عدد منا خلال الليل مقتربين إلى مسافة ثلاثة ياردة من تل الشهاب بنية الهجوم عليه، إلا أنهم فوجئوا بأن كولونيلاً ألمانياً مع بعض المدفع والتعزيزات كان قد وصل إلى هناك لتوه. وكان مما شجعنا أن نعلم أنها قد قمنا بالوقت المناسب يوم الثامن عشر من الشهر، فقد حركتنا الكتبية الاحتياطية في العفولة لكي تنضم إلينا وأرضينا أنفسنا بأننا قد نسفنا خط السكة إلى الغرب من تل الشهاب، وفي زيزون إلى الغرب من ذلك.

وفي الصباح التالي قمنا ببعض الأعمال البسيطة في مزيريب ثم تحركنا عبر المرثأ حتى العصر عندما وصلنا إلى موضع يقع إلى الغرب من محطة نسيب. وبعد مقاومة ضارية وقصف مدفعي تمكنا من القضاء على موضع العدو عند الجسر الكبير الكائن شمالي المحطة ومن نصف ذلك الجسر. كان ذلك بالنسبة لي الجسر

الناسع والسبعين الذي أقوم بنفسه. كان لهذا الجسر ثلاثة أقواس يعرض سبعة أمتار لكل منها، وارتفاعه حوالي خمسة وعشرين قدمًا، وله أعمدة سُمكها خمسة أقدام، فكان بذلك واحداً من أبدع الجسور التي نسقناها.

قضينا الليلة في نسيب وتحركتا جذلين ف بالصبح نحو أم طية، يجد في أثربنا قصف من مدفع كان قد جاء إلى نسيب بواسطة القطار، فكان يصب قذائفه بعنف في مؤخرة رتلنا. والتقيينا مع العجلات المدرعة في أم طية، والتي كانت قد عادت مباشرة من تل عرار بعد حمایة عمليات النسف، ولما كنا قد شاهدنا ذلك الصباح طائرة معادية تهبط بالقرب من خط السكة الحديدية إلى الغرب من أم طية، أخذنا سيارتين مدرعتين وذهبنا فوراً لللنقي نظرة عليها. وهناك شاهدنا ثلاث طائرات ذات مقعدين، إلا أننا لم نستطع اجتياح أرض المطار بسبب وادٍ عميق حال بيننا. قامت طائرتان منهن بالإقلاع فوراً وأخذتا تصبان نيراها علينا إلا أننا استطعنا أن نصب ألفاً وخمسمائة إطلاقة على الطائرة الثالثة ونقضي عليها. وفي طريقة عودتنا عادت إلينا هاتان الطائرتان بعد أن حُلتَا بالقتال من درعا وأغارتا علينا أربع مرات، غير أن القصف لم يكن دقيقاً واستطعنا الإفلات بدون إصابات تقريباً. كان قتال العجلات المدرعة من الطراز الأول، إلا أنها كانت هدفاً سهلاً للطائرات التي تقاد جيداً. وانقضى بقية النهار ونحن في أم طية نعاني من القصف الشديد من طائرات العدو. وفي تلك الليلة (ليلة الناسع عشر من الشهر) تحركت عجلة مدرعة مع الوحدة المصرية ووحدة الكركرة باتجاه سكة الحديد عند الكيلومتر 154 وقامت بنسف عدة قطع من الخط. كان الغرض هو أن نعرقل أعمال فرق التصليح التي كانت تسعى بجد لإصلاح الجسر الذي نسقناه في السادس عشر من الشهر عند الكيلومتر 149 (وكان بعض قطع المدفعية والرشاشات والمشاة تقدم لها الحمایة) واستطعنا أن نشاغل قطار التصليح من مدى ثمانين ياردة فقط ونجعله يسرع عائداً

إلى المفرق. وفي اليوم التالي ذهبت إلى الأزرق، ومن هناك ذهبت بالطائرة إلى الرملة، ورجعت في اليوم الثاني والعشرين مصطحباً معه ثلاثة طائرات نوع بريستول فايتر. وفي الصباح الباكر استطاعت هذه الطائرات أن تخلق مرتين في الجو ونجحت في اصطياد طائرة تركية ذات مقعدين وثلاث طائرات سكاوت. وبعد ذلك لم يستطع الأتراك التأثير علينا من الجو. وبعد الفطور ذهبت مرة أخرى إلى الأزرق ثم رجعت عند المساء إلى أم السراب مع فيصل ونوري الشعلان لرؤية الطائرات نوع هاندلر بيج. وكانت قد قلبت الكفة لصالحنا في جميع منطقة الحوران.

وفي اليوم التالي ذهبت القطعات النظامية باتجاه الجسر عند الكيلومتر 149، حيث كانت عملية إصلاحه على وشك الانتهاء وبعد قتال عنيف استطاعت أن تطرد قوة الحياة التركية، ومن بينهم بعض الألمان الذين كانوا يقاتلون بعناد برشاشاتهم. استطاعت قواتنا أن تدمر المزيد من خط السكة وأحرقت الميكيل الخشبي الذي نصبته الأتراك على الجسر بجهد دؤوب استغرق منهم أسبوعاً من العمل المتواصل. كان عمل قطعات المدرعات والمدافع الفرنسية ممتازاً جداً ذلك اليوم، وكذلك كان رجال الخيالة من قبيلة الروالة بقيادة نوري الشعلان شخصياً. ونوري شعلان رجل هادئ ومنكمش على نفسه، قليل الكلام إلا أنه عظيم العمل. ذكي واسع الاطلاع وحامض الطبيع. وأحسن شيوخ العرب الذين التقى بهم على الإطلاق. كانت قبيلته طيبة في يديه وكان عيرف ما ينبغي أن يفعله في فعله.

أصبحت القوات البريطانية في هذا الوقت (الرابع والعشرين من أيلول / سبتمبر) متقدمة إلى موقع أجبر الأتراك على سحب الجيش الرابع إلى الخلف للدفاع عن درعا ودمشق مع أنها كانت قد اعتربنا هنا الجيش صيداً من نصبينا. ويسرب استعجالهم في الانسحاب، ولكننا سيطرنا على خط السكة الحديد فقد تخلى الأتراك عن فكرة الانسحاب من عمان بواسطة القطارات وبashروا تنقلهم على الطريق

متوجهين نحو موقعنا بكل مدفعيتهم وساقط نقلهم، فحركنا نحوهم قطعاتنا الخالية التي أجبرتهم على التخلي عن مدافعهم وعرباتهم في الموقع ما بين المفرق ونبيب، وقدوا كذلك الكثير من الرجال وأصبح ذلك الجيش المتنظم المسيرة كأنه جمع مضطرب من الفارين الذين لم تتع لهم الفرصة لأن يعيدوا تنظيم سيرتهم مرة أخرى. وبدا لنا أن باستطاعتنا أن نجسر على التمركز بين درعاً ودمشق (في مكان، في شيخ سعد على سبيل المثال) لأجل أن نجبر الأتراك على الانسحاب فوراً من درعاً، فيكون مكناً حيثند أن نقوم بها يجب ضد هذه العصبة من الجيش التركي الرابع عند انسحابها من درعاً، وكذلك ضد بقية جيش فلسطين المهزومة عن طريق إربد وسمخ. وعلى هذا الاستناد تحرك قطعات المجنحة والمدفعية والرشاشات متوجهة نحو الشهال في الخامس والعشرين، وعند عصر اليوم التالي تمكنت من الوصول إلى خط السكة ما بين الغزالة وعزرا.

بوغت الأتراك تماماً بهذا التحرك (وهم على ما هم فيه من الرعب). كان خط السكك قد أعيد تصليحه وفتحه لحركة القطارات في اليوم السابق، (بعد تلك التخريبات التي أحدثناها في في السابع عشر من الشهر)، إلا أنها قطعناه مرة أخرى في حركتنا هذه فاحتجزنا في درعاً ستة قطارات، أصبحت بعدئذ من غنائمنا، واستولينا على غزالة وجندوها المائتين وعلى المدفعين فيها. وبعدها موقع عزرا الذي كان يدافع عنه عبدالقادر الجزائري، وهو مسلم مت��ب للدين وموالي للأتراك، وكذلك مقداراً كبيراً من المعدات، وبعد ذلك خرkenاً وقضيناً ليتنا قرب شيخ مسكنين.

أخذت تصل إلى الأتراك أخبار مبالغ فيها عن قوتنا فأصدروا الأوامر بالانسحاب فوراً من درعاً على الطريق البري بينما قام الألمان بإحراء الطائرات الخمس المتبقية لديهم هناك. وبذلك بلغ عدد الطائرات التي تسبينا في تدميرها

إحدى عشرة طائرة منذ الثالث عشر من أيلول / سبتمبر. وعند الفجر في اليوم السابع والعشرين وصلنا إلى الشيخ سعد في الوقت المناسب، حيث أسرنا سريتي رشاشات تركيتين كانتا في طريقهما إلى القنطرة للوقوف بوجه القوة البريطانية التي كانت تتقدم على ذلك الطريق، ثم توقيتنا أعلى التل فيشيخ سعد وأخذنا نراقب المنطقة من هناك، فإذا ما شاهدنا رتلاً صغيراً للعدو أسرعنا في إيقاعه بالأسر. أما عندما نشاهد رتلاً كبيراً فكنا نختبئ عن أنظاره. عذرنا في ذلك ما أصابنا من إجهاد، كما أنها لم نكن سوى تسعة آلة رجال فقط. في هذه الأثناء، ألقى علينا الطائرات رسالة تفيد بوجود رتلين من القوات التركية يتبعان باتجاهنا. واحد من درعا بقعة ستة آلاف جندي والأخر من مزيريب بقعة ألفين. صار قرارنا أن نتصدى للرتل الثاني لكونه يتناسب مع قوتنا فيعثنا بقواتنا النظامية للتصدى له إلى الشمال من طافاس، بينما بعثنا خيالة حوران لمشاغلة أطراف الرتل الكبير، وكلفنا بعض الرجال من قوة الفلاحين الراجلين لحماية جسر تل الشهاب الذي كان الأتراك يحاولون نسفه.

تأخرنا في منع الرتل القادم من مزيريب من الوصول إلى طافاس (بسبب دخول قواتنا في اشتباك ناجح مع فوج من المشاة التركي عندما كانت في طريقها إلى الواجب). تمكّن الأتراك من تحصين موضعهم في طافاس، وعند دخول ترعة، وهي آخر قرية يدخلونها، انصرفوا إلى اغتصاب جميع النساء اللواتي تمكّنوا منها. وعندما واصلوا حركتهم بعد ذلك هجمنا عليهم بكل أسلحتنا وأجبّرناهم على تغيير وجهتهم رجوعاً إلى تل عرار. وعندما أطّلعوا شريف بك، أمر قوات الأتراك في مؤخرة الرتل، على ما حدث أمر بقتل جميع سكان القرية، كان من بينهم نحو عشرين طفلاً (قتلوا بالحراب والبنادق) حوالي أربعين امرأة، وقد لاحظت بصورة خاصة امرأة حامل غرسٍ فيها حربة بندقية. ولسوء الحظ كان الشيخ طلال، وهوشيخ طافاس معي ومع عودة أبو طي في المقدمة عندما شاهدنا هذه المناظر. كان هذا

الشيخ قلعة شاحنة من القوة بالنسبة لنا منذ بداية العمليات، وكان واحداً من أرزن وأشجع الفرسان الذين صادفthem على الإطلاق. وعندما شاهد طلال هذه المناظر أطلق صرخة مرعبة ولف كوفته على وجهه وهز حصانه واندفع بأقصى سرعته مقتحاً مؤخرة الرتل التركي المنسحب فسقط هو وفرسه مضرجاً بدمائه وسط حراب الجنود الأتراك تمزق جسمه إطلاقات الرشاشات.

تمكننا بمساعدة عودة أنقطاع رتل العدو إلى ثلاثة أقسام، استطاع القسم الثالث منها أن ينجو من الهلاك بعد أن خسر عدداً غير قليل من رجاله، وذلك بفضل المقاومة الرائعة لفصائل الرشاشات الألمانية، وكان من ضمن القوة الناجية جمال باشا بسيارته. أما القسسان الأولان فكان مصيرهما الهلاك بعد قتال مريض. وأصدرنا الأمر بالقضاء على أفراد العدو بدل أسرهم وأطاع رجالنا هذا الأمر. عدا أن سرية الاحتياط أسرت ماتين وخمسين رجلاً أحياء (من بينهم الكثير من الجنود الأتراك). وشاهد رجالنا بعدئذ أحد جنودنا مصاباً بكسر في فخذه وقد قتله العدو بعد ذلك بطعنات قاتلة من حراهم ففتحنا أفواه رشاشاتنا نحو أسرى العدو وقضينا عليهم أجمعين دون أن ينتظروا بشيء. إن الوهم الشائع من أن الفرد التركي مقاتل نزيه ورحيم قد جعل بعض أفراد القوات البريطانية يوجهون النقد إلى طريقة العرب في التعامل مع خصومهم الأتراك - غير أن هؤلاء البريطانيين لم يدخلوا قرية ترعة أو طافاس، أو سبق لهم أن شاهدوا كيف يقوم الأتراك بقذف الجنحى من الأسرى داخل عربة قطار محترقة، كما حدث لأفراد الجيش العربي في جردون. أما القرويون من العرب فقد سحقهم وسحق أجدادهم طغيان هؤلاء الأتراك لمدة خمسين سنة.

ثم بعثنا رجال الخيالة من قبيلة الروالة إلى درعا مباشرة مع أوامر لتمزيق آية تشكيلات تركية يصادفونها في طريقهم ثم احتلال المنطقة. اشتباكوا في طريقهم

بمعزتين أو ثلاث ثم تمكنوا من احتلال محطة درعا بهجوم كاسح قافزين فوق الخندق فقضوا على عناصر العدو التي حاولت الدفاع عن الموضع. وفي صبيحة اليوم التالي، جاءونا بثلاثمائة أسير من راكبي البغال وحوالي مائتين أسير من جنود المشاة ومدفعين. وقد استطاع الأتراك والألمان أن ينسفوا جميع ذخائرهم قبل أن تنبع جماعتنا في الاستيلاء عليها. أضفت قواتنا النظامية تلك الليلة في شيخ سعد، ولم تكن ليلة مريرة. لم نكن نعلم بعد أننا قد كسبنا المعركة، فقد كان هناك خوف مستمر من أن تكتسحنا موجة كبيرة من قوات العدو المنسحة. ثم ذهبت لفقد خيالتنا من الحوران عند الشيخ مسكن، حيث كانوا يرصدون بعناد الرتل التركي الكبير القادم من درعا، وكانوا يخسرون أكثر مما يربحون. وعند منتصف الليل رجعت إلى شيخ سعد، فوجدت ناصر ونوري على وشك الحركة إلى درعا، ووجدنا أنفسنا نتسابق، فاستطاعت قطعاتي راكبة الجمال أن تسبق خيالة المقر والتحقت بقوات طراد الشعلان في درعا عند الفجر. وكان أمامنا بعض الأعمال التي لا بد منها لترتيب الشؤون المحلية اللازمة هناك.

وركبت بعد ذلك متوجهًا غرباً حتى التقيت بطلائع الفرقة البريطانية الرابعة فصرت دليلاً إلى درعا. بقيت هذه الفرقة ليلة واحدة فقط هناك وتحركت يوم التاسع والعشرين نحو دمشق بعد أن كلفتنا بواجب حماية جناحها الأيمن. وبناءً على ذلك، سرنا على امتداد خط الحجاز، وكان ذلك ملائماً جداً لنا فلحقت قوات الخيالة الثلاثمائة من الروالة وأبي طي بقوات خيالة حوران التي كانت تشاغل رتل درعا التركي قرب مسمبة، ومن بعدهم لحقت قوات المجنحة التسعمائة من الروالة.

كانت تقارير طائراتنا تفيد بأن هذا الرتل بقوة ستة آلاف رجل. وفي اليوم التالي في شيخ مسكن ظهروا بقوة خمسة آلاف. ثم ظهروا بقوة ألفي رجل في كسوة عندما ساقتهم خيالتنا نحو لواء الجنرال كريكورى. كان الفضل في هذا الناقص

المستمر في قوة الأتراك يعزى لنشاط قواتنا غير النظامية، لأن الجيش العربي النظامي الذي لم يكن يجيد ركوب الجبال في المعركة، كان يسير بسرعة لا تزيد إلا قليلاً عن سرعة الخيالة البريطانية، كما أنه لم يستتك بأي قتال بعد درعا.

جرت المعركة في كسوة على ما يرام. كانت القوات التركية تحرك على امتداد وادي خط الحجاز برتل طويل متناثر، وتتوقف عن المسير كل بضعة أميال لفتح نيران مدفعها على القوات العربية. وعلم ناصر أن اللواء الأمامي من الفرقة الرابعة البريطانية يقترب من خان ذنون، لذلك أسرح بخيله وعيده ومعه نوري الشعلان وعيده، حيث بلغ مجموعهم حوالي الثلاثين وأخذوا يعترضون الرتل التركي بين جبل مانع وغابة الأشجار في حياته، ثم جأ إلى الأشجار ليشاغل الأتراك ويؤخرهم هناك ريثما تصبح القوات البريطانية مستعدة لقتالهم. لم يكن البريطانيون قد شاهدوا هذا الرتل التركي أو سمعوا به فكانوا يتحركون بنظام المسير، إلا أنه حالما علموا بما يتظار لهم أرسلوا خيالتهم إلى الشمال والغرب والجنوب من القوات التركية وفتحوا عليها نيران مدفعتهم. بدأ هذه المعركة عند غروب الشمس. وقبل أن ينضم الظلام أصبحت القوات التركية شذر مذر وتسلقت شاردة السفوح الشديدة بجبل مانع وهم يجهلون أن قوات ولد علي وأبي طي تنتظرون هنالك بكامل قوتها وهكذا انتهت قصة الجيش الرابع التركي.

أما عودة، الذي أصابه الكلل من كثرة ما ذبح من أفراد العدو، فقد قبض على آخر ستة أسير منهم، وبلغ مجموع من قتلناهم حوالي خمسة آلاف فرد من العدو وأسرنا حوالي الشهانية ألف (كنا عندما نأسيرهم نزع عنهم سلاحهم وأمتعتهم ونبعث بهم إلى أقرب قرية حيث يسخرون للعمل في الأرض حتى إشعار آخر) وبلغ ما غنمته حوالي مائة وخمسين رشاشة وما بين خمس وعشرين وثلاثين مدفعاً.

دخلت خيالتنا ذلك المساء إلى دمشق (30 أيلول / سبتمبر) وكانت الحرائق التي أشعلت في أكداس العتاد قد قلبت الليل نهاراً. وحتى في كسوة كانت أصوات الانفجارات شديدة فلم تستطع النوم. وفي مدينة دمشق أعلن شكري الأيوبي وبقية أعضاء المجلس البلدي عن سلطة ملك العرب ورفعوا العلم العربي حلماً غادر المدينة كل من مصطفى كمال وجمال باشا. وقد كانت معنيات الأتراك والألمان هابطة إلى درجة أنهم ساروا خارجين من المدينة والعلم العربي يرفرف فوقهم دون أن يتلفظوا بكلمة احتجاج، وكذلك كان مستوى السيطرة في المدينة جيداً، بحيث لم يحدث شيء من النهب أو وقع القليل من فقط.

وفي صبيحة الأولى من تشرين الأول / أكتوبر دخلنا المدينة أنا وناصر ونوري والميجر ستلنوك وقوبلنا بتحيات منقطعة النظير من قبل مسلحي المدينة.

اعتقد أن عليَّ أن أسجل على الورق كلمة عما حدث بعد استيلائنا على المدينة. وجدت في بناء مجلس المدينة كلاً من الجزائريين محمد سعيد وعبدالقادر، اللذين كانوا قد استلما زمام الحكومة المدنية المؤقتة لعدم وجود من يستطيع مقاومة قوات الحراسة المغاربة لديهم في دمشق. إنهم مجانين وموالين للأتراك ومتعصبين للدين إلى درجة مزعجة. وبينما على ذلك، بعثت بطلبيها وأعلنت أمام مجلس البلدية وشيخ المحاريات أنني بصفتي مثلاً للملك فيصل أعلن عن تنصيب شكري الأيوبي حاكماً عسكرياً عربياً (كان علي رضا غالباً وهو الشخص الذي أريد تعينه حاكماً)، وعن حل الإدارة المدنية المؤقتة لهؤلاء الجزائريين. صعب ذلك الأمر عليهما واضطربنا أن نصرفهم إلى أهلهما. في ذلك المساء استدعي عبد القادر أصدقاءه وبعض الدروز البارزين وألقى فيهم خطبة مؤثرة معلناً أن شريف مكة ما هو إلا ألعوبة بيد الإنكليز ودعاهم إلى توجيه ضربة إلى نظامه في دمشق. وفي الصباح انهارت هذه الدعوة ولم يبق منها غير أعمال النهب والسلب فقمنا باستدعاء القوات العربية

ونصينا بعض الرشاشات حول الساحة المركزية في المدينة، واستطعنا أن نفرض حالة الأمان خلال ثلث ساعات بعد أن أصبنا حوالي عشرين رجلاً.

لعب الدروز دوراً دينياً معنا. لم نكن نتوقع منهم أن يضموا إلى قوات الشريف، لذا استثنيناهم من حسابات قواتنا. وبعد انتصار البريطانيين في فلسطين صاروا يظلون أنفسهم رهباً لم ينحازوا إلى الطرف المناسب، لذلك عندما تقدمنا إلى درعا للمرة الثانية تجمعوا حول سلطان الأطروش وحسين أبو نايف، وهو صديقاناً المعتمدان في جبل الدروز. وهم يتضامنون بالخدمة العسكرية. صدق سلطان أدعائهم وسار بألف وخمسة وعشرين خيالاً منهم إلى الغزالة لينضم إلى صفوفنا. إلا أنهم بقوا مسترين وراء خيالتنا ولم يشتتكوا بأية معركة وانتظروا حتى أخذنا دمشق. وأنذاك استعرضوا قواتهم أمام الشريف ثم بدأوا بعدها بنهب السكان. وبعد أن أوقفتهم القوات العربية عند حدّهم وأخرجتهم من المدينة إلى جرمانا جاءوا إلى وقالوا إن مشاعرهم الحقيقة هي مع الإنكليز. لم يكن من السهل تصديق ذلك فهم كانوا الوحدين الذين طفّعوا للقتال ضد مصر سنة 1914 لذلك لم أبُد لهم ما يرضيهم. إنهم قوم طهاعون أدعياه لا يلبثون أن يختنعوا إذا ما جوّبوا بالقوة.

ت. تي. ال

\* \* \*

### إلى الميجر آر. أج. سكوت

1918/10/14

فندق كراند كونستال - القاهرة

عزيزي سكوت

شكراً جزيلاً على برقيتك، دخلنا دمشق كما كنا نأمل، وكان عليَّ هناك أن أفارق العرب - من المؤسف أن أذهب عنهم، كما أن بقائي معهم لم يكن من الحكمة

في شيء، وأشعر كمن ألقى عن عاتقه حلاً كبيراً - إن ظهري ليؤلمني عندما أحارو  
أن أمشي متتصباً.

إنني راحل. بعيداً عن مصر، وهذه الحرب على وشك أن تنهي، ولم تعد هناك  
فائدة مني. أخشى أنك ستأخر هناك طويلاً لتنظيف كل ما تركناه وراءنا من  
مشاكل وحاجات.

تركت ورائي في العقبة شيئاً واحداً أعتز به، هي بندقتي الإنكليزية المنقوشة.  
فأرجو منك أن تعمل على إيقافها إلى القاهرة سالمة. تحيا إلى جميع الزملاء وشكراً  
جزيلاً لهم ولك. لقد كنا حقاً عصبة غريبة الشكل، وأحسب أننا قد غيرنا تاريخ  
الشرق الأدنى. ولا أدرى كيف سيكون موقف القوى الكبرى من العرب.

المخلص لورنس

[أدناه وصف كتبه لورنس لتلك البندقية عندما قدمها هدية للملك جورج الخامس، وهو الآن  
معرض مع تلك البندقية في المتحف الإمبراطوري الحربي].

«هذه البندقية قصيرة نوع لي أني فيلدت غنمتها الأتراك في معركة غاليبولي وأرسلت  
إلى القسطنطينية كجائزة. وقامت الحكومة التركية بنقش العبارة التالية على البندقية  
بحروف من ذهب باللغة التركية (غنية من معركة جناق قلعة) ثم قدم أنور باشا  
هذه البندقية هدية إلى الأمير فیصل (وكان آنذاك من الرعايا الأتراك وضيفاً على  
جال باشا في دمشق). ونقش على البندقية عند ماسكة المربة ما يلي باللغة التركية  
«هدية أنور باشا إلى الأمير فیصل» أرسل فیصل هذه البندقية إلى مكة. تحالف  
العرب بعدئذ مع البريطانيين واكتشف فیصل أن الذخيرة التي يجهز بها جيشه  
تناسب بندقية أنور. لذلك صار يحملها معه منذ شهر حزيران/يونيو حتى شهر  
كانون الأول 1916 عندما أعطاها إلى الكولونييل لورنس قرب المدينة. حل  
الكولونييل لورنس هذه البندقية حتى تشرين الأول/أكتوبر 1918 عندما تم  
الاستيلاء على دمشق. إن البروز الكبير قرب مخزن البندقية يمثل ضابطاً تركياً».

أهديت بندقية مماثلة من الحكومة التركية إلى الأمير عبدالله شقيق فيصل، (إلا أنها خالية من نقش أنور) وهي الآن بحوزة رونالد ستورس.

\* \* \*

[كتب لورنس التقرير التالي للأغراض اطلاع الوزارة البريطانية عند عودته إلى إنكلترا. وقد استطاعت استنبطه ونشره في هذا الكتاب رغم أنه يعتبر وثيقة سرية. ويتمكن القارئ الذي يود الاطلاع على الاتفاقيات التي أبرمت مع العرب ومع الفرنسيين أن يراجع رسالة لورنس إلى محرك جريدة [التايمز].]

### إعادة تكوين بلاد العرب

1918/11/4

إن رغبة آخر جيل من رجال السياسة البريطانيين في أن ننسحب من مواقعنا الإمبريالية في الشرق الأوسط (كما عبروا عنها بوسائل كثيرة إلى جانب ما جاء في اتفاقيات خط سكة حديد بغداد والمفاوضات بشأن الإسكندرية عام 1915) قد جعلت من المرغوب فيه أن نجد طريقاً غير مباشرة للمحافظة على منطقة نفوذنا المتفق عليها بموجب مبدأ مومنرو. وهي تلك المساحة المربعة من الأرض ما بين مصر والإسكندرية وببلاد فارس والمحيط الهندي. وعندما اشتعلت نار الحرب أضفت لتلك المصالح حاجة ملحة في تقسيم الأمة الإسلامية وحلنا أنفسنا على البحث عن حلفاء بدلاً من تابعين بين أهل المنطقة. لذلك استثمرنا التذمر الذي يشعر به السكان الناطقون بالعربية تجاه حكامهم الغرباء عنهم. والميل الذي كان يظهره الرعايا الشريقيون والذي أخذ يتضح يوماً بعد يوم للمطالبة بنصيب متزايد من مشاكل الحكم. فسعينا إلى خلق نطاق من الدول التابعة التي تصر هي نفسها على حاليتها لغرض الوقوف بوجه أية قوة غريبة تحاول إنجاح خططها في أرض الأنهر الثلاث. إن العقبة الكبرى أمام أية حركة عربية من الوجهة الحربية إنها هي نعمة كبرى لنا وقت السلم - تلك هي فقدان روح التضامن بين مختلف الحركات

السياسية العربية. إن مشكلة التناقض بين الزعماء في كل من سوريا وبلاد الرافدين والجزيرة العربية ومصر جعلت من العسير علينا أن نعرف الجهة التي نبدأ التعامل معها. كانت هنالك محاولات فاشلة للتعاون مع السيد طالب (النقيب) ومع عزيز المصري قبل أن يستقر أمرنا على أن نركز على التعاون مع شريف مكة. تم انتخاب شريف مكة في نهاية الأمر بسبب الانشقاق الذي يستطيع أن يحدّه في الأمة الإسلامية ولأن موقفه الجغرافي يمنّه فرصة كبيرة في البقاء ولأن منزلته الكبيرة بين العرب تتمدّ على المكانة العائلية وهي اعتبار لا يمكن التعرض له رغم كونه اعتباطياً واستبدادياً.

بدأت المفاوضات بين الشريف والسير هنري مكماهون الذي خولته الحكومة البريطانية أن يعقد مع الشريف اتفاقاً يضعه في جانبنا. ولسوء الحظ لم يكن السير هنري مطلاً على اتفاقية سايكس بيكو التي كانت آنذاك موضوع الاختبار. ولم يخطر للشريف أنها كانا كنا نريده أن يكون مجرد رئيس صوري، فقد كان في جميع مراسلاته يتكلم بصفته الوصي على أمر العرب - يقصد بذلك كل من يتكلم اللغة العربية من هم تحت الحكم التركي.

لم يحالقه الحظ في جولته الأولى في الثورة على الأتراك ولم تتحسن فرصته في النجاح عندما تم استبدال السير هنري مكماهون بالسير أرجيالد موري ومستشاريه كل من السير ريجنالد ونكت والكولونييل بريموود. ومع ذلك تمكّن في نهاية الأمر أن يضم إلى صفوفه جميع بلاد العرب اعتباراً من مكة وشمالاً حتى احتلال العقبة من قبل فيصل في آب/أغسطس 1917، عندما وصلت العمليات العسكرية الشريفية إلى خاتمتها.

تولى الآن فيصل عن والده (الذي تقدّم بالعمر) مهمة تحرير البلاد السورية. كانت منزلته التي مكتّبه من تحقيق ذلك هي كونه أحد زعماء الجماعة الثورية

السورية. كان فيصل قد بقي على صلة مستمرة في سوريا غير المحررة، يعاملهم كزملاء. وشكل فيصل جيشاً من السوريين وال العراقيين لتنفيذ عملياته، وأعاد إلى الحجاز جميع جنوده من سكان الجزيرة العربية. ويجدر بي أن أذكر أن عدد الحجاج الذين شاركوا في الدخول إلى دمشق كان ثمانية فقط.

لم يكن بمقدور فيصل أن يستقل بعملياته العسكرية، فجعل من نفسه تابعاً للجنرال اللبناني وقادته عاماً حليفاً له. وأتمنى لو أنها عندما ستقسم الغنائم لن نهبط إلى مستوى التعامل التجاري في تحديد حصص الشركاء من القطعات البريطانية أو الفرنسية أو الهندية أو العربية أو اليهودية أو الأرمنية. إن التحالف مع العرب ممكن القائد العام البريطاني أن يزوج بقطعات الخيانة في مطاردة الأتراك من يافا إلى حلب في أراضي معادية لنا أساساً، إلا أنها في حقيقة الأمر موالية لنا. قامت هذه القطعات بعملية المطاردة دون تأمين خطوط مواصلاتها أو اتخاذ تدابير الحيبة والخذر الاعتيادية، كل ذلك بفضل تحالفنا مع العرب. لذلك غير الجنرال اللبناني السياسة القديمة تجاه العرب وصار يساعدهم بكل ما يستطيع من المادة والرجال والرأي. فله يعود الفضل في تقديمهم السريع.

انتهت الآن المهمة العسكرية للعائلة الحاكمة في مكة، ولا يستطيع أحد أن يشكك في شجاعة الملك حسين الذي انضم إلى صفوفنا بُعيد سقوط مدينة الكوت، رغم نصيحة فيصل بأن لا يفعل، ورغم ما شاهده بنفسه من المصير الذي أحاق بأصدقائنا الصغار الآخرين. كما أن من السهل إدراك مقدار المحنة الأخلاقية التي ابتليت بها أقدم العوائل العربية وأقواها وأكثرها قدسيّة (بين أناس يقدسون أكثر من غيرهم قيم العقيدة وأصالتها النسب) عندما جلأت إلى التخلّي عن الأصدقاء والمخلصين الذين لازموهم طيلة حياتهم، وإلى أن تكون عرضة لشتائم لا حد لها من مسلمي الهند وتركيا وأفغانستان ومصر، بسبب دفاعهم عن حريةهم القومية.

ويجب أن يسجل للأمراء الأربع ما تعرضوا له من أخطار ومعاناة أثناء المعارك الصعبة التي خاضوها في السنوات 1916-1918. إن الإخلاص الذي أبداه الملك وأولاده لخلفائهم، ولما تعهدوا لهم به، يجب أن يكون مثالاً ساطعاً عن ماهية القوة التي أقنعتهم بإعلان الثورة، في الوقت الذي كانت مستعدة لأن تسلمه للأتراك مقابل شروط بخسفة<sup>(1)</sup>، وهو لا يدرى بذلك، وتسليم معه جميع الناس الذين وقف مدافعاً عنهم، وهم الذين رفضوا عروضاً متكررة من الأتراك بمنحهم الحكم الذاتي في الجزيرة العربية مرة، ومرة أخرى الاستقلال للجزيرة والحكم الذاتي لسوريا، ومرة ثالثة سلطة الخلافة والاستقلال في الجزيرة والحكم الذاتي لجميع بلاد العرب الأخرى.

### النوايا الحالية للحكومة العربية

1 - ينوي شريف مكة أن يكون الزعيم في بلاد العرب، ويقصد بذلك أرض شبه الجزيرة. أما في اليمن فليس للشريف مقاصد محدودة واضحة. وقد جرت اتصالات بينه وبين ابن رشيد وأهل الكويت. أما في نجد فليس من العسير إيجاد حل للموقف الناتج عن الخلاف غير المباشر بين سلطات الهند والسلطات البريطانية في مصر حول ابن سعود والإدريسي. لقد حاول الإدريسي أن يطعم العقيدة المثلية لبلاد العرب بعناصر من الطقوس البدائية الإفريقية، إلا أنه فشل في ذلك، ويمكن اعتبار قضية اختفائه عن مسرح الأحداث مسألة بضع سنوات من الزمن. أما ابن سعود فهو يحاول الآن أن يجدد من قوة النهضة الدينية المتزمتة التي أخذت تصبح أقوى مما يحتمل. فإذا انساق معها، وهاجم الأماكن المقدسة، فسيتكلف المسلمين الراشدون بأمره كما تكلفو أسلفه. أما إذا تحken من السيطرة

(1) يشير لورنس بذلك إلى المفاوضات السرية بين بريطانيا وطلعت. راجع رسالته إلى وليم بيل وملاحظات بيل عنها. المترجم.

على هذه الحركة، فسيبقى أميراً لجدة بعد أن يكون الفشل في عملياته العسكرية قد أنذره بأن يعترف بشرف مكة كزعيم له - أعتقد أن ابن سعود يحمل لنا شعوراً بالصدقة وبأنه الوحيد الذي يقف هذا الموقف في سلطنته.

أود أن أشير إلى أن خبرة السنوات الأربع الماضية قد بيّنت عدم صواب فكرة أن نترك بلاد العرب تحت سيطرة واحدة أو أكثر من السلطات الحاكمة حالياً في القاهرة أو بغداد أو دمشق أو سملا (المهد). لقد كانت نظرتنا للأمور قصيرة الأمد، إن لم تكن ضيقة الأفق.

2- تعتبر الحركة العربية في سوريا مهمة في الحقيقة، لأن الأصل فيها أن تمنع سيطرة أية قوة في القارة الأوروبية من السيطرة على قوتها البشرية أو الفوائد الاستراتيجية لذلك البلد. وهذا الغرض بالذات، فإن العرب يحتاجون إلى الحصول على حقوق متساوية لحقوق أية قوة أخرى في كل من خليج الإسكندرية والخط الساحلي من الإسكندرية إلى طرابلس، وفي ميناء طرابلس والخط الحديدي بينها وبين حمص، وفي منطقة البقاع من حمص حتى بحيرة الحولة، وأن يكون لهم منفذ إلى ميناء حيفا وجميع الأرض شرق هذا الخط ونهر الأردن. وفضلاً عن ذلك، ينبغي أن يكون فيصل ممتعاً بالسيادة ضمن منطقته، وأن يكون لديه مطلق الحرية في اختيار ما يشاء من المستشارين الأجانب ومن أي بلد يرتئيه. و يجب أن يكون هؤلاء المستشارون جزءاً من الحكومة العربية، يستمدون صلاحياتهم التنفيذية منها وليس من حكوماتهم. وقد يكون من الممكن أن يضمن اعتراف العرب بالديون التركية مقابل نصيب عادل في الواردات الجمركية لكل من مينائي بيروت وحيفا. وأخيراً، فإن فيصل لن يعتبر نفسه ملزاً بأية اتفاقية لم يكن هو طرفاً فيها.

3- وفي فلسطين يأمل العرب أن يبقى البريطانيون مسيطرة على المناطق التي احتلوها. إنهم لن يوافقوا على أي استقلال يهودي لفلسطين لكنهم سيوافقون جهد

إمكانهم على ما يمكن من التسرّب اليهودي إليها. على أن يتم ذلك وراء واجهة بريطانية وليس وراء واجهة عالمية. وإذا ما جرت أية محاولة لتنفيذ عملية السيطرة العالمية التي اقترحت في اتفاقية سايكس-بيكو، فإن فيصل سيطالب بالحاج بحق تقرير المصير للفلسطينيين ويقدم التأييد المعنوي لفلاحي فلسطين، ويقاوم عملية مصادرة أملاكهم.

4 - وفي العراق يتنتظر العرب أن يحافظ البريطانيون على سيطرتهم هناك. ويأمل الشريف أن تكون في العراق إدارة عربية اسمية، استناداً إلى ما اتفق عليه معنا.

5 - أما في منطقة الجزيرة فهناك جماعات نشيطة من القوميين العرب إلا أنهم في منطقة ذات موقع جغرافي غير ملائم، إلا إذا تم إقناع قسم من الأكراد الرُّحل والمستوطنين بالتعاون مع الحكومة المحلية التي يراد تكوينها هناك.

أود أن أقترح بأن تبقى المنطقتان (4) و(5) منفصلتان الواحدة عن الأخرى، على الأقل من الناحية الإدارية. إن مشاكل العراق تتعلق بتنفيذ المشاريع العمرانية الكبرى والزراعية المتقدمة. بينما تتعلق بمشاكل الجزيرة بوجود الكثير من القرىين الجبلين المشاغبين والقبائل نصف المتقطنة.

يمتحن أن تظهر القضية الكردية بشكل أكبر كثيراً وأصعب مما ظهرت عليه القضية الأرمنية.

إذا ما سمح لممثلي الأمم الصغيرة بحضور مؤتمر السلام، فيحتمل أن ترتفع الأصوات مطالبة بحق تقرير المصير، وسيُنظر بارتياح شديد إلى الاتفاقيات شبه السرية التي أبرمت سابقاً بين القوى الكبرى. ولهذا السبب، أقترح عدم إصدار أية نسخة ثانية من معاهدة سايكس بيكون. إن التفاصيل الجغرافية غير المعقولة لهذه

الاتفاقية ستكون مثار السخرية، ويكون آنذاك من الأولى بنا أن نوفر على أنفسنا المزيد من الجهد في هذا الباب. وإذا لم نفعل ذلك فعلينا، على الأقل، أن نعرف بكون العرب أحد أطراف النزاع بصورة رسمية وأن نعتبرهم طرفاً في أي قرار يُتخذ بشأن المنطقة التي احتلوها بأنفسهم.

الكولونييل تي. في. لورنس

[الحق لورنس تقريره أعلاه بمقتراحات عددة تبيّنها البرقية التالية التي صدرت من وزير الدولة لشؤون الهند، السيد أدوبن مونيكوي]

برقية، من وزير الدولة لشؤون الهند إلى وزارة الخارجية ودهلي، مكرر بغداد

[مؤرخة 18/11/1918، استلمت 19/11/1918]

وزير الخارجية

قدم الكولونييل لورنس، الذي عاد إلى الوطن الآن من سوريا في إجازة، مقترحات إلى حكومة صاحب الجلالة حول حل شامل للقضية العربية. إنه يدعو لتشكيل ثلاث حكومات لدول عربية خارج الحجاز وتواضعه وهي: (1) بلاد الرافدين السفلى (2) بلاد الرافدين العليا (3) سوريا. توضع كل واحدة تحت حكم كل من عبدالله وزيد وفيصل، أولاد الملك حسين. يبقى حسين حالياً كملك للحجاز ليحل بعدها ابنه الأكبر علي مكانه، ولن يتمتع بأية سلطة دينية في هذه الدول الثلاث المذكورة أعلاه، سوى ذكر اسمه في صلاة الجمعة كأمير للمؤمنين.

يقترح لورنس أن يمر خط الحدود بين بلاد الرافدين العليا والسفلى من ملتقي نهرى دجلة والزاد على أعلى حتى مدينة عانة على الفرات. ومن عانة يسير خط الحدود مع نهر الفرات حتى بيرة جلك ليشكل الحدود الغربية لدولة بلاد الرافدين العليا. أما حدودها الشمالية فتتم من أورفة إلى ديار بكر حتى دجلة وتكون عاصمتها مدينة الموصل أو راس العين. ومن المفهوم بطبيعة الحال أن الدولتين

(الشَّهَيْتِينَ) ستكونان خاضعتين للنفوذ البريطاني، وتكون دولة الرافدين السفل تحت السيطرة الفعلية البريطانية.

إنني أدرك أن هذه المقترفات التي تتضمن فصل الموصل فعلياً عن بغداد تتعارض مع التوصيات التي وردت في برقة بغداد رقم 8745، ومع ذلك فإن الحدود بين الدول المقترحة لا تبدو متعارضة مع تلك التي اقترحت في برقة بغداد رقم 8744، كما أن المجيء بعبدالله إلى بلاد الرافدين سيكون معارضة مباشرة لـ (.....) [لم يذكر الاسم، لكنه ربما يقصد ابن سعود]. إلا أنني سأكون مسروراً لو أعدتم النظر في القضية كلها، على ضوء الظروف السائدة، وأن تعلموني بأرائكم في مقترفات لورنس بأسرع ما يمكن.

[أستمد الحقائق التالية من كتاب ليدل هارت «لورنس، في بلاد العرب وما بعد ذلك»:]

هبط بيكيو يوم السادس من تشرين الثاني / نوفمبر في بيروت، بصفته المندوب السامي الفرنسي في سوريا وأرمينيا. وفي اليوم الرابع عشر أبرق إلى باريس بما يلي: «طالما بقيت القوات البريطانية تحتل البلاد، فلن تكون هناك ثقة في مشاعر السكان، مفضلين أولئك الذين يخاصمنا. إن العلاج الوحيد هو في إرسال عشرين ألف جندي إلى سوريا والطلب من البريطانيين تسليم البلاد إلينا».

ُدعى فصل لزيارة لندن من قبل الحكومة البريطانية. سافر على متنه بارجة بريطانية وكان لورنس في استقباله في مارسيليا. واعتراض رحلتهم عبر فرنسا ظهور بريمووند في مدينة ليون في 28 تشرين الثاني / نوفمبر.اكتشف لورنس أثناء العشاء أن بعض ممثل الحكومة الفرنسية كانوا في طريقهم إلى لندن، للباحث في بعض الشؤون السورية في غيابه، فعاد في تلك الليلة إلى لندن، وعبر القناة على الباخرة نفسها التي يعبر عليها الفرنسيون دون أن يشعروا به. وفي التاسع من كانون الأول / ديسمبر، استقبل لورنس فيصلًا على سلم الباخرة التي أخذته إلى إنكلترا، بعد أن كان الفرنسيون قد أخذوه في جولة في ميدان المعارك لكي يبقوا بعيداً عن طريقهم.]



## من يوميات مؤتمر الصلح

[فيما يلي الصفحات الأولى من يوميات مؤتمر الصلح التي لم يتواصل لورنس كاتبها لسوء الحظ. إن معظم أعمال لورنس في هذه الفترة كانت تتم بمقابلات شخصية فلم أتمكن من العثور على الكثير من المواد الوثائقية].

كانون الثاني / يناير 1919

ابتدأت التسلية عندما ذهب (....) إلى باريس، وبصحبته سبعون سيدة من الكاتبات على الآلة الطابعة، وطبيب يعمل أخصائياً في التوليد في شارع هارلي وأخذهم إلى قصر ماجستيك. وقد تعجب الجميع كيف أدرك فلان أن المؤقر سيستغرق تسعه أشهر.

كانت قضية تعين الوفد مسألة دقيقة، خُصصت للبرازيل ثلاثةأعضاء لأن فيها مصالح عديدة للألمان، وسعى المشرفون على المؤتمر عن طريق إشراكها بصورة كاملة فيه إلى إغراقها باتخاذ إجراءات شديدة هناك. إن ذلك ليبدو غير جدير بما تدعوه المبادئ الأميركية.

أبدى البرتغاليون عدم رضائهم التام. فذهب الفرنسيون إلى وزيرهم وعبروا له عن أسفهم عن عدم ملائمة حجم الوفد البرتغالي بسبب تشدد الإنكليز. فجاءنا البرتغاليون غاضبين أكثر مما هم متأنين وقدموا احتجاجهم. فلجاً السير أير كراو إلى اقتطاع مقتبسات من المحاضر الرسمية للمناقشات وإرسالها لهم بصورة سرية، ليعلموا أن الاعتراض على العضو الزائد في الوفد البرتغالي جاء من الفرنسيين.

نبي المستر بلفور كلّياً إحضار ممثلي الحجاز في الجلسة الأولى، فأقفت كلّاً من مالت وتيرل وسيسيل بالاحتجاج على ذلك، ثم ذهبت لأقابل إريك دراموند وعبرت عن موقفي بقوة. حاول أول الأمر أن يقنعني بأننا لسنا مؤهلين لذلك، غير أنه عاد بعدها وتعهد بأن يبذل جهده. تعشّيت مع المستر بلفور وحصلت على وعد

منه بأن يفعل الشيء نفسه، وزودته بكل ما يمكن من المعلومات. وحاول فيليب كير الشيء نفسه مع لويد جورج بناءً على نصيحة ليونل كرتس، بينما أخبرت فيصل بأن ليس هناك من تخيز ضد قضيته، وكل ما في الأمر أن المسألة تأجلت ليوم واحد ريثما يتم إعداد الوثائق اللازمة.

وفي اليوم التالي، طرح بلفور قضية الحجاز، فاحتاج بيشون على ذلك. قيلَ كليمينصو حضور مندوب واحد، إلا أن بيشون عاد يجتمع بأن ليس بالإمكان قبول مندوب آخر، لأن العرب ما زالوا أمة لم تولد بعد، ولم يصبحوا دولة مستقلة بعد. وردة كل من بلفور ولويد جورج بشدة مصرحين بأن بريطانيا وفرنسا قد اعترفتا باستقلالهم. وبناءً على ذلك، قبل موضوع حضور مندوبي عن الحجاز.

وفي هذه الأثناء قام جان كو (وهو أحد الفرنسيين الذين يدعون بشدة إلى الاستعمار الفرنسي لسوريا) بزيارة فيصل ليقول له إن تجاهله كان مقصوداً، وإن الإنكليز يخدعونه. كما قال له إن فرنسا دولة قوية، وإن من الأفضل لفيصل أن لا يصغي إلى دعوة الشر في بلاد الراشدين وسوريا الذين يعملون ضد مصلحة فرنسا. فهو لا يعرفون بوجود جيش عربي في سوريا، وأن النبي يكذب إذا ما أدعى خلاف ذلك. أدرك فيصل بذلك أن مسألة حضوره المؤتمر كانت موضوع جدال، فقضى ليلة تعيسة بسبب ذلك، فقد وجدته يتتجول في أرجاء الفندق في الساعة الثانية صباحاً. وعندما كسبنا المسألة اعتبر ذلك بشري حسنة عن جميع المعارك القادمة وأمتلا سروراً. وفي الجلسة الأولى استمتع فيصل عندما طرح كليمينصو على المؤتمر، بصفته رئيساً مؤقتاً للمؤتمر، مسألة تثبيته في مركزه هذا فصوت فيصل مع بقية المؤتمرين إلى جانب الاقتراح. وصرح لويد جورج وهو يناصر المقترح أنه شخصياً كان ما يزال صبياً في المدرسة عندما كان كليمينصو يحتل وظيفة في الدولة.

وتسير بنجاح الدعوة التي تستهدف حل أميركا على التعاون في أمور الشرق من أجل ضمان تطبيق المثل التي تدعو إليها، وقد تغلب حاس كبلنك على دبلدي تلك الليلة في إنكلترا. ونشر أليس مقالته السادسة في جريدة نيويورك هيرالد تدعو كلها إلى ذلك الاتجاه. وقد ناصرته المسز إ يكن، وكذلك فعل ماكلور. أريد أن أخيف أميركا من حجم تلك المسؤولية، ثم أقنعها بأن تكفلنا بتمويل ذلك نيابة عنها. لقد ملّ الأميركيون من فرنسا، فإن «ذكريات الإمبراطورية الثانية» تعتبر في نظرهم أمراً مبتذلاً. ووجه ولسن سؤالاً إلى وايزمان عن علاقته مع البريطانيين، فأجابه بأنه يستحسن تلك العلاقة إلى درجة أنه طلب منهم أن يتولوا أمر الوصاية على مصالحة. ثم سأله كذلك عن علاقته بالفرنسيين فأجاب أنه يتقن اللغة الفرنسية، إلا أنه لم يستطع أن يفهم الساسة الفرنسيين، ولا أن يجعلهم يفهمونه. فرداً عليه ولسن بأن ذلك «هو نفس ما وجده تماماً».

[ملاحظات عن حديث تم بين الكولونييل هاوس والأمير فيصل في أوتيل دي كريون في 29 آذار / مارس في السادسة مساءً وكان الكولونييل لورنس يقوم بالترجمة].

قال الأمير فيصل إنه جاء بطلب الإذن من الكولونييل هاوس لأنه سيعود إلى سوريا بعد بضعة أيام، وسأله الكولونييل هوس عن رأي الأمير فيصل في خطة إرسال بعثة إلى سوريا<sup>(١)</sup>.

أجاب الأمير فيصل أن تلك الفكرة أحسن ما سمعه في حياته، وقال إن قومه قد أرسلوه ليطلع على مختلف الأمم الأوروبية، وختار من بينها الأكثر صلاحاً لتولي أمر الانتداب، وإنه قد أُعجب كثيراً بالإنكليز، وبعد ذلك تعرف على الأمير كان

(١) رفض الفرنسيون تسمية عضو يمثلهم في اللجنة الدولية لتفصي الحقائق، والتي تضامل حجمها في آخر الأمر إلى مندوبي أميركيين، هما كذلك وكرين، اللذين زارا سوريا خلال الصيف، وبينما أن فكرة الانتداب الفرنسي تكون مرفوضة تهائياً، وأوصيا أن تكلف الولايات المتحدة بمهمة الانتداب، ولم يكن للتقرير الذي رفعاه أي نفوذ يذكر. المترجم.

ويود أن يعلم فيها لو كانت الولايات المتحدة ستقبل بفكرة تولي الانتداب على سوريا، لأنه يجد اختلافاً بين بريطانيا العظمى وفرنسا حول الموضوع.

قال الكولونييل هاوس إنه يشك تماماً فيما إذا كانت الولايات المتحدة ستقبل بـتولي أمر الانتداب. قال الأمير فيصل إن العرب يفضلون الموت على أن يقبلوا بالانتداب الفرنسي.

وبيّن الكولونييل لورنس أن لو قبل البريطانيون بـتولي أمر الانتداب على سوريا فسيتهمهم الفرنسيون بالتفاق.

وسأله الأمير فيصل الكولونييل هاوس عن موقف الولايات المتحدة تجاه أرمينيا فأجاب هاوس أن ذلك سؤال لا يستطيع الإجابة عليه.

وبيّن الكولونييل لورنس أن العرب في سوريا يرغبون بـانتداب بـبريطاني بينما يرغب العرب في الولايات المتحدة بـانتداب أميركي، وهو يأمل أن يستهان رئيس اللجنة لكونه أميركيًّا وأن يجذب في تقريره فكرة الـانتداب الأميركي على سوريا بعد أن يقتضي برغبات السكان. وأضاف أنه وجد معارضة شديدة في بعض الدوائر في باريس لـفكرة إرسال لجنة جديدة.

[بعث لورنس في 8/9/1919 رسالة إلى جريدة التايمز حذف رئيس تحرير الجريدة قسماً منها. ونشر القسم الآتي في عدد يوم الخميس 11/9 ونشر مع الرسالة مقالاً افتتاحياً يكشف إلى أي مدى من الجهل كانوا قد أبقوا الجمهور البريطاني فيما يخص التزاماتنا في الشرق الأوسط].

\* \* \*

### إلى رئيس تحرير التايمز

سيدي

أشار مؤخراً مراسلكم في سوريا عن الـوعود البريطانية إلى كل من العرب والـفرنسيين. عندما كنت أعمل كواحد من هيئة موظفي الأمير فيصل، تكنت من

الاطلاع على الوثائق موضوعة البحث، وبصفتي ربها الأولي الوحيد الذي له الاطلاع على الموضوع، أرى أنه من المناسب أن أساعد في إلقاء الضوء عليها. إن عدد هذه الوثائق أربع:

#### الوثيقة الأولى:

تعهد بريطانيا إلى الملك حسين، تاريخه 24 تشرين الأول / أكتوبر 1915. ينص التعهد - مشروطاً بشورة العرب على تركيا - على الاعتراف بـ «استقلال العرب» في الأرض الواقعه جنوب خط العرض 37 درجة باستثناء ولايتي بغداد والبصرة حيث تستدعي المصالح البريطانية إجراءات خاصة من السيطرة الإدارية، وكذلك باستثناء المناطق التي لا تستطيع بريطانيا أن تتصرف فيها بدون الإضرار بالصالح الفرنسي.

(ملاحظة: لم يطالب حسين بمركز شخصي ولا بأية حكومة أو حكومات معينة).

#### الوثيقة الثانية

اتفاقية سايكس بيكون التي أبرمت بين إنكلترا وفرنسا في أيار / مايو 1916. تقسم هذه الاتفاقية الولايات العربية التي تحكمها تركيا إلى خمس مناطق، وهي على وجه التقرير:

1. فلسطين، من نهر الأردن حتى ساحل البحر المتوسط. تكون منطقة «دولية».
2. حيفا وأسفل وادي الرافدين من قرب تكريت وحتى الخليج. تكون منطقة «بريطانية».
3. الساحل السوري من صور إلى الإسكندرية ومنطقة سيليسيا ومعظم أرمينيا الجنوبية من سيواس إلى ديار بكر، يكون منطقة «فرنسية».

4. المنطقة الداخلية (تشمل ولايات حلب ودمشق وأورفا ودير الزور والموصل)

تكون دولة عربية مستقلة خاضعة إلى نوعين من النفوذ:

أولاً: المنطقة المحصورة بين الخط الواصل بين العقبة والكويت، والخط الواصل بين حيفا وتكريت، لا يحق للفرنسيين أن يحصلوا على «نفوذ سياسي» فيها، بل يحصل البريطانيين على أسبقيّة سياسية واقتصادية، ولم الحق في تقديم (المُستشارين الذين يرغب العرب بهم).

ثانياً: المنطقة المحصورة بين الخط الواصل بين حيفا وتكريت والحدود الجنوبيّة للمنطقة الفرنسيّة في أرمينيا أو كردستان، لا يحق لبريطانيا العظمى أن تحصل على (نفوذ سياسي) فيها. بل تحصل فرنسا على أسبقيّة سياسية واقتصادية، ولها الحق في تقديم (المُستشارين الذين يرغب العرب بهم).

ملاحظة: إن التقسيمات الجغرافية لهذه الاتفاقية لا تمت للواقع بصلة كما أنها تعتمد على علم الاقتصاد عندما تنص على أن ليس بالإمكان إكمال بناء سكة حديد بغداد حتى يتم بناء خط سكة حديد الفرات.

### الوثيقة الثالثة

التصریح البريطاني لسبعة من رجال سوريا في القاهرة بتاريخ 11/6/1917.  
يؤكد هذا التصریح لهم أن الدول العربية الموجودة قبل الحرب والمناطق التي يحررها سكانها بالعمليات الحربية أثناء الحرب ستكون مستقلة استقلالاً تاماً.

(ملاحظة: إن هذه التأکيدات باطلة وقد تتناقض مع الوثيقة الأولى أو الوثيقة الثانية، إلا أنها صيغت محلیاً بواسطة ترتیبات بين اللبناني وفيصل، تم بموجبها أن يقاتل الجيش العربي في ما يقرب من جميع المنطقة التي أُعطيت إلى العرب في الوثيقة الثانية)..

## الوثيقة الرابعة

التصریح الفرنسي - البريطاني المشترک في 9/11/1918. ينص هذا التصریح على أن بريطانيا العظمى وفرنسا تتفقان على تشجیع الحكومات الوطنية في كل من سوريا وبلاد الرافدين، وأن تضمنا بدون تلاعې، أن تعمل مثل هذه الحكومات حسبما يريد الناس أنفسهم.

(ملاحظة: كان تفسیر الناس في الشرق هذه الأقوال على أنها استبدال الحكم المباشر البريطاني والفرنسي لکل من المنطقتين (2) و(3) في الوثيقة الثانية بمناطق نفوذ).

(صيغة الوثيقة الأولى من قبل السير هنري مكماهون. وصيغت الوثيقتان الثانية والثالثة من قبل السير مارك سايكس. أما الوثيقة الرابعة فقد صاغها اللورد روبرت ميسيل. إن جميع هذه الوثائق قد صدرت تحت ضغط الحاجة العسكرية الملحة لدفع العرب إلى القتال إلى جانبنا).

إنني لا أرى تنافر أو تناقض بين هذه الوثائق الأربع ولا أعلم أحداً يرى فيه ذلك.

قد يتساءل إذاً علام هذا المهرج والمرج بين الإنگليز والفرنسيين والعرب؟ إن السبب الرئيس هو أن اتفاقية 1916 (الوثيقة الثانية) غير قابلة للتطبيق، خاصة وأنها لم تعد تتلاءم مع رغبات الحكومتين الفرنسية والبريطانية. ولما كانت هذه الوثيقة تعنى ما يشبه الميثاق للعرب تتحمّهم دمشق وحمص وحما وحلب والموصى ليحكموها بأنفسهم، مع ما يحتاجونه من مستشارين حسب رغبهم، فإن التعديلات الضرورية على هذه الاتفاقيّة ستكون مسألة دقيقة.

ومن الصعب جداً أن تنفذ بكل مناسب من قبل إنگلترا وفرنسا، بدون مراعاة لرأي الطرف الثالث الذي وضع من أجله، وهو العرب.

ني. ني. لورنس

[تمكنت من تكوين نظرة غير متحيزة عن الموقف بمساعدة وثائق وضعها تحت تصرف البروفسور ولريم بيل من جامعة نيويورك الأمريكية، الذي كان عضواً في الوفد الأميركي لمحاضرات السلام (في مؤتمر الصلح) والذي لعب دوراً منهاً في محاولة الوصول إلى حل للمشكلة، إلا أن الحكومة الأمريكية لسوء الحظ لم تقر ذلك.

كان عند بيل إطلاع واسع على الأحوال في سوريا، وكان على صلة بأوساط الرأي الفرنسي، وأدرك على ضوء ذلك، احتفالاً أن يحدث في سوريا انفجار مهلك من حوادث العنف، نتيجة لوجود جيش عربي كبير متصرّر ليس من المتوقع منه أن يخضع بخونع إلى قرارات تُتخذ في فرساي. كان هناك اعتباران دفعاه إلى أن يقرر عمل ما يستطيعه لمساعدة القضية. أولهما إدراكه أن ليس بإمكان البريطانيين أو الفرنسيين أو العرب التوصل إلى حل للقضية دون مساعدة طرف ثالث. فهم، كما ذكر في تقريره، أشبه بثلاث هرمة ينفع كل واحد منهم في وجه الآخر. لذا يجب إيجاد أرضية مشتركة يمكن أن يلتقا فيها، وأن الولايات المتحدة هي الوحيدة القادرة على جمع هؤلاء الثلاثة معاً.

والاعتبار الثاني هو أنه لم يعد هناك وقت يمكن ضياعه حيث عقد كل من لويد جورج وكليمانتو اتفاقاً في 13 / 9 على عليه بيل بيل:

إن الاتفاقية التي أبرمت بين المسبو كلينانتو والسير لويد جورج، والتي بموجبها تسحب القوات البريطانية في 11 من سيليسيا وسوريا وجبل لبنان، تجعل علها قوات فرنسية في سيليسيا وعلى امتداد الساحل السوري، وقوات عربية في المدن الأربع دمشق وحمص وحما وحلب، إنها هي اتفاقية خبيثة للغاية.

في ظاهر الأمر لا تعتبر هذه العملية تحركاً سياسياً، بل مجرد تغيير في الموقف العسكري في أراضي العدو المحتلة. أما في حقيقة الأمر، فهي ليست فقط تعرّض للخطر المستقبل السياسي للبلدان العربية، بل تشكّل كذلك خطراً على السلم في الشرق الأوسط.

إن تنفيذ هذه الاتفاقية يعني تكريس السيطرة الفرنسية عسكرياً وإدارياً على جميع مناطق الساحل السوري وبجميع سوريا وأرمينيا الصغرى، وتعني أيضاً السيطرة المباشرة البريطانية عسكرياً وإدارياً على جميع منطقة وادي الرافدين. وتعني كذلك أن سيرك للعرب أمر السيطرة على أربع مدن كبيرة، هي دمشق وحمص وحما وحلب، دون الاعتراف بهم كحكومة مستقلة بصورة مشروطة.

عن جميع الذين يعرفون الحقائق عن كتب سواء أكانوا بريطانيين أو فرنسيين أو أميركيين، مفتعمون تماماً بأن تنفيذ هذه الاتفاقية كما هي، وب بدون التوصل مسبقاً إلى حلول محددة للشمال المتعلقة بها، سيؤدي إلى حدوث اضطرابات عملية خطيرة، يتفق الجميع على أنها ستتمتد إلى كردستان وببلاد الرافدين وتفلسطين، وربما إلى جميع العالم الإسلامي.

لن يقبل العرب بهذه الاتفاقية، وسيحدث صراع مع الفرنسيين على امتداد الساحل والمحدود الوهبة بين الداخل السوري والمنطقة الساحلية. سيكون هناك خطير جسيم في حدوث متابعة في أهل البلد من الكاثوليك في كل من دمشق وحمص وحما وحلب. إن جميع المراقبين المطلعين يتفقون على أن هذا الصراع سيؤدي إلى بلاد الرافدين؛ ويُعتقد أن العرب آنذاك سيلجأون إلى التحالف مع الشوار الأتراك، ولن ينتهي وقت طويل قبل أن يصبح الشرق الأدنى بأجمعه مشتكاً في صراع مع الحلفاء.

وفي 27/9 ذهب بيل إلى لندن ليكتشف بنفسه الحد الأدنى لطلاب البريطانيين والعرب والصهاينة. أجرى مقابلات مع كل من السفير دينس؛ وورستم حيدر الممثل السوري لحكومة الحجاز؛ والكلوبيونيل كريبيون من هيئة أركان الاستخبارات البريطانية؛ والمستر وكهام ستيد رئيس تحرير جريدة التایمز، والأمير فيصل، والكلوبيونيل كورنو أليس، والكلوبيونيل ستارلوك، والدكتور غاستر وهو أحد الصهاينة المتعارضين، ودي. جي. هوغارث، وجول كامبون، السفير الفرنسي، والكلوبيونيل لورنس، وأفيفيلد مارشال اللورد اللنبي، والجنرال نوري السعيد مع رستم حيدر، والكلوبيونيل واتسون.

وفيها يلي أبرز النقاط التي وردت في هذه المقابلات: قال الكلوبيونيل غريبيون من هيئة أركان الاستخبارات في وزارة الحرب: «إن الحكومة البريطانية سوف لن تغير أي اهتمام لأية وعود قدّمتها الكلوبيونيل لورنس للعرب». وواصل البروفسور بيل تعليقاته قائلاً:

«أخبرني المستر ستيد رئيس تحرير التايمرز أنه كتم القسم الأخير من رسالة لورنس الأخيرة إلى الجريدة، والتعلق بالاتفاقيات بين البريطانيين والعرب. وقال المستر ستيد إن لورنس قد كتب يقول بأن الحكومة البريطانية قد جعلته يؤمن بأنها سوف تبني بوعودها إلى العرب، وأنه بناء على إيهانه ذاك، فقد عمل على تشجيع العرب، وأنه يرغب في أن يقول للعرب وللجمهور البريطاني بأنه نادم على ما فعله، لأن الحكومة البريطانية، على ما يدرو، لا تبني أتفى بالوعود التي خولته تقديمها للعرب».

قال فيصل إنه لن يقبل بأية تغييرات في الروضع العسكري في سوريا، وإذا ما قامت بريطانيا بسحب قواتها من هناك، فسوف يشنّ معركة أمريكا. وإذا ما رفضت أميركا القيام بأي معونة، فسيعود إلى سوريا ليقود شعبه في عمليات مقاومة مسلحة ضد الاحتلال الأجنبي. ورفض أن يعبر عن الحد الأدنى من الشروط التي يقبلها، إلا أنه صرح بأنه سيقبل بأي حل تفرضه الولايات المتحدة.

وقال الدكتور غاستر إن الصهيونية قد أصبحت مسألة لا معنى لها، وإن الحركة العربية قد اتسعت إلى درجة أصبح منها من المستحيل إيجاد دولة يهودية، وبأنه لم يعد بالإمكان اعتبار منطقتي حوران وشرق الأردن جزءاً من فلسطين، وبأن البريطانيين والصهاينة قد عقدوا صفقة حصل فيها الصهاينة على النصيب الأسوأ.

وناقش هوغارث الروضع النفطي فأشار بيل إلى أنه يرى أن الحكومة الأميركية لن تساهل تجاه احتكار بريطانيا لحقول نفط وادي الرافدين، وأن ذلك قد يؤدي إلى تهديد العلاقات الطيبة بين بريطانيا والولايات المتحدة.

فيما يلي ملاحظات بيل عن مقابلته مع لورنس:

### الأربعاء - الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر. الكولونيل لورنس

«زارني الكولونيل لورنس وتحدث بإسهاب عن القضية العربية. قال إنه قد أخبر لويد جورج بكل وضوح أن على الحكومة البريطانية أن تسمح للعرب أن يشكلوا حكومة عربية في بلاد الرافدين. وقال إنه قد بين بكل وضوح لكل من لويد جورج واللورد كيرزن بأن الحكومة البريطانية لن تستطيع، بدون استخدام قوات كبيرة، من البقاء في بلاد الرافدين إذا لم تف بوعودها في تأسيس حكومة عربية هناك.

ثم أخبرني بأن اللورد كيرزن قد تبني مؤخراً وجهة نظر أكثر ليبرالية بشأن سيطرة بريطانيا على بلاد الرافدين، وأنه أصبح يميل إلى منع العرب ما يريدونه. وأضاف لورنس بأن الجنرال ولسن<sup>(١)</sup> قد استدعي من منصبه في العراق، لأنه قد مارس هناك سياسة الاستعمار التي طبّقت في الهند. وبأن خليفة الجنرال ولسن قد تلقى التعليقات بتتنفيذ سياسة الحكم الذاتي المحلي.

واطلع لورنس على حل المقترن ووافق عليه قليلاً، وقال إنه يمكن العرب أكثر مما تخبرنا هو نفسه بالطالبة به لهم. وألح على بضرورة مواجهة اللورد اللنبي ولويد جورج. أخبرت لورنس أنني أتّرك على مسؤوليتي الخاصة، ولا أستطيع أن أطلب مقابلة هاتين الشخصيتين بدون علم وموافقة حكومتي».

يرى اللورد روبرت سيسيل بأن ليس هناك من سبب يمنع منع العرب في شمال بلاد الرافدين قدرًا كبيراً من الاستقلال، وتساءل عن السبب الذي يدعوه لفرض سيطرة بريطانية مباشرة في جنوب وادي الرافدين. وقال السير هنري مكماهون إن مقترنات بيل تتفق مع الاتفاقيات التي أبرمها مع الملك حسين وألح على بيل بأن يقابل اللورد اللنبي. وأظهر غارفن أنه على اطلاع واسع بمسألة النفط.

بعث اللورد اللنبي بطلب بيل قائلاً إنه يريد الاطلاع على مشروعه الذي سمع عنه من الكولونيل لورنس. وقال بيل إن الفرنسيين يرفضون أن يكونوا متشاركين مع العرب في سوريا، أكثر مما يتساءل الإنجليز منهم في العراق. وأضاف: «إن اللورد اللنبي بدا أكثر تفهمًا لذلك، وأنه يفضل سياسة متشاركة للغاية في بلاد الرافدين».

كان اللورد اللنبي ودوداً للغاية ومتّحضاً للتوصّل إلى حل يرضي الفرنسيين ويُفرج العرب.

(١) المقصود هو الكولونيل آرنولد ولسن، الذي استمر في منصبه وكيلًا للمحاكم العام في العراق بعد فشل مشروع بيل. المترجم.

قال نوري السعيد ورسم حيدر إنها يستطيعان قبول حل مثل الذي اقترحه بيل في مقال نشره في التايمز خلوا من الاسم، وأن فيصل سيقله كذلك عندما يحين الوقت. كان الحل الذي اقترحه بيل للقضية كما يلي:

تبقى فلسطين تحت الانتداب البريطاني وسُمّح للصهاينة بتنفيذ خطتهم. يكون جبل لبنان وحدة سياسية منفصلة تحت الانتداب الفرنسي. تكون سوريا من معان والعقبة حتى حلب وميناء طرابلس واللاذقية دولة مستقلة مشروطة تحت حكومة عربية تُمثل سكانها. تكون هذه الدولة العربية تحت الانتداب الفرنسي. تقسم بلاد الرافدين إلى منطقتين تضم الشهالية منها الولايات العثمانية السابقتين، بغداد والموصى، وتضم الجنوبية منها ولاية البصرة وإمارة المحمرة. تكون المنطقة الشهالية متمتعة باستقلال مشروط وتحت حكومة عربية تُمثل سكانها وخاصة للاحتداب البريطاني. أما المنطقة الجنوبية فتُمنع حكمها ذاتياً عملياً تحت الانتداب البريطاني. ويشكل مجلس إتحادي يتكون من نواب يمثلون كل من المناطق العربية الأربع على أن يعقد اجتماعاته في قرارات معينة.

إن النقص في هذه الترتيبات كان في مفهوم «الاحتداب»، والذي وصفه لورنس في رسالته إلى بيل في تشرين الأول / أكتوبر 1929 بما يلي: «... ومن طريق خدمة الاحتداب استولى البريطانيون والفرنسيون على كل شيء».

وبطبيعة الحال لم يدرك بيل، ولا أي شخص آخر في ذلك الوقت، إلى أي مدى يمكن أن تغير معاني عبارة «الاحتداب».

علم بيل فجأة من الكولونييل واتسن بأن مجلس الحرب البريطاني قد تبني خطة بيل، فعاد فوراً إلى باريس لكي يعرض خططه على الساسة الفرنسيين الذين كانوا على صلة بهم، وهم الميسو بيرتل والمسيرو روبرت دوكينز والمسيرو جان كو والمسيرو هيربت رئيس تحرير جريدة «الوقت».

\* \* \*

[عثر على مسودة الرسالة الآتية بين أوراق لورنس بعد وفاته موجهة إلى لويد جورج. وأظن أنها كُتبت بعد أن تبنت الوزارة البريطانية خطة بيل، وأن لورنس كتبها في لحظة ابتهاج. غير أن ليس هناك دليل على أنه أرسلها له. وقد علمت من سكرتير اللورد لويد جورج بأن اللورد لا يحفظ بأية مذكرات أو أوراق تعود إلى لورنس].

## إلى المستر لويد جورج

الخميس أيلول / 1919

ينبغي علي أن أعترف بأنني كنت أعتقد من كل قلبي بأنك ستخيب أمل العرب في نهاية الأمر، وهذا أجده صعوبة كبيرة في أن أعرف كيفأشكرك. إن هذه القضية تخصني شخصياً لأنني كنت أؤكد للعرب خلال المعركة أن وعودنا لهم صادقة الكلمة، وكانت أعزز هذه الوعود بكلماتي التي أتعهد بها، على مقدار ما تحمله من قيمة. والآن أجده عن طريق اتفاقيتك حول سوريا قد حافظت على كل وعودنا لهم وأعطيتهم ربياً أكثر مما يستحقونه، وهذا فإن سوري لعظيم، لأنني استطعت أن أخرج من هذا الأمر نظيفاً. أرجو أن تخبرني إن كان هناك أي شيء تريديني أن أقوم به لك.

إن أول دليل على امتناني هو أنني سأكون طبعاً لوزارة الخارجية ولو زارة الحرب ولن أر فيصل ثانية<sup>(١)</sup>.

لورنس

[كانت نشوة لورنس هذه سابقة لأوانها. عندما عاد بيل إلى باريس وأوضح لرؤسائه في الوفد الأميركي إلى مفاوضات السلام ماذا كان قد صنعه، رفضوا أن يسمحوا له بعرض خطته على الفرنسيين، والسبب هو أن الرئيس ولسن، عندما عاد إلى الولايات المتحدة، لم يخوهم صلاحية اتخاذ أي قرار أو القيام بأي عمل. لقد ظهر بذلك موقف فريد من نوعه. وجذ جميع أطراف التزاع أنفسهم في ورطة، وهي أن كل واحد منهم مستعد للقبول بأي حل يقترح شرط أن تقوم، قوة خارجية بفرضه عليه، إلا أن الأميركي كان لم يكونوا مستعدين لفرض أي حل على أي من الأطراف.

لقد أوضحت خطة بيل بشيء من التفصيل، لأن ذلك يلقي ضوءاً من الخارج على حالة الورثة التي كانت تسود الموقف آنذاك، وعلى العوامل المؤثرة فيه. وينبغي أن يُذكر إن من أهل هذه العوامل أن الولايات المتحدة كانت شديدة الحرارة على منع البريطانيين من احتكار نفط بلاد الرافدين، لأن ذلك يهدد بالقضاء على بمحمل الوضع الاقتصادي لصناعة النفط الأمريكية، إذا ما استحوذت بريطانيا على

(١) ظهرت هذه الجملة في مسودة الرسالة مضافة إلى السطور بقلم الرصاص. المترجم.

أسواق الهند والصين، التي تستهلك المنتجات التغطية الأميركية. وفي الجانب الثاني، هنالك عامل آخر، تعيز عنه وجهة نظر ييل التالية:

«هنالك عناصر قوة داخل الحكومة البريطانية لا ترغب في التنازل عن السيطرة المباشرة على بلاد الرافدين، أو تسامح بأية امتيازات للعرب هناك. ويعتقد أن شركة النفط الإنكليزية الفارسية (Anglo Persian O.C) والبحرية البريطانية، وربما حكومة الهند أيضاً، هي التي تمارس هذه الضغوط».

\* \* \*

[لقد سُمح لي أن أستنسخ الوثائق السرية الآتية التي كتبها لورنس، وأن أنشرها في هذا الكتاب. وكانت هذه الوثائق في الحقيقة في مرحلة الكتابة أو الماقشة، أثناء ما كان ييل يفكر في القيام بزيارة إنكلترا].

### مذكرة إلى وزارة الخارجية

١٩١٩ / ٩ / ١٥

رقم ١٢٩٤٠٥

لأجل أن نتخلص من هيجان الفرنسيين علينا أن نوافق على الجلاء عن كل من حلب ودمشق ودرعا وعمان، ونسحب إلى «المنطقة الدولية» المعنية في اتفاقية سايكس بيكو. وقد نستطيع كذلك إيقاف معونتنا المالية إلى فيصل، غير أن ذلك أمر أكثر صعوبة، حيث إنه يعني بأن الفرنسيين سيقبلون قروضنا على أنها مسؤوليات، وربما يعني أيضاً استبدال القيادة الحالية للمرشال اللنبي بقيادة عسكرية فرنسية على الساحل السوري، وتحديد منطقة الحدود الفرنسية - العراقية، ثم اتخاذ القرار حول الجهة التي ستكون مسؤولة عن الأكراد على سبيل المثال.

وفي كل الأحوال ستقوم الحكومة البريطانية بالطلب رسميًّا من فيصل بأن يقبل معونة عن المنطقة (ب) (درعا - العقبة). وقبول مستشارين بريطانيين عن تلك المنطقة.

يجب أن تعمل ترتيبات مؤقتة لعمليات الاستيراد والتصدير للمناطق العربية (أ) و(ب) عبر موانئ حيفا وبيروت وطرابلس والإسكندرية.

علينا أن نحصل على تأكيدات من كل من الفرنسيين والعرب بأنهم سوف يحترمون معاً حدود المنطقة الفرنسية من اتفاقية سايكس - بيكيو (والتي وقعتها فيصل بالحرف الأولى عن حكومة دمشق). ويجب أن يكون مفهوماً أن حدوث الاضطرابات في أي من المنطقتين سيعتبر من جانبنا على أنه من اهتماماتنا حتى يتم إبرام الصلح مع تركيا.

يجب أن يذكر في هذا لخصوص، بأن وقوع الأعمال العدائية بين العرب والفرنسيين ستؤدي إلى توقف نقل المواد الغذائية من الأرض السورية إلى المنطقة الساحلية، ويجب أن يفهم الفرنسيون بأننا لن نقوم بتجهيز المواد الغذائية ولا وسائل النقل إلى أي من الطرفين في حالة وقوع مثل هذه الحوادث.

فإذا تصرف الفرنسيون بحكمة وتجاهلو العرب لفترة اثنى عشر شهر تقريباً فسوف يتسلل العرب بالفرنسيين طالبين منهم المساعدة. أما إذا لم يطبقوا الآن صبراً، فسوف يدفعون بالعرب إلى الاتحاد ضدتهم. فإذا ما قامت القطعات الفرنسية بتجاوز حدودهم المشتبة في اتفاقية سايكس - بيكيو بدون موافقة العرب على ذلك، فسيؤدي هذا العمل إلى حدوث انفجار في الموقف.

إن من مصلحتنا فوق كل شيء، أن نمنع حدوث مواجهة بين العرب والفرنسيين. فإذا أخفق العرب في الجولة الأولى فستعتمد جذوة الصراع، غير أن العرب يمسكون بزمام المبادرة، وإذا ما حققوا نصراً في بداية الصراع، فقد يؤدي ذلك إلى اتحاد جميع مسلمي سوريا ضد القوات الفرنسية. إن مثل هذا العمل سيجبرنا ربما على الرجوع إلى خطوطنا في بغداد والقدس كإجراء وقائي، وقد يؤدي إلى إعلان تفاهم بين فيصل ومصطفى كمال تجاه منطقة سيلسيا<sup>(١)</sup>.

(١) أود أن أقول إن ليس هناك وجود لاتفاقية بين فيصل ومصطفى كمال، غير أن رجال العرب من «حزب العرب الفتى» يرجون بذلك، وإذا ما وجد فيصل نفسه في ضائقة فسوف يقبل بأية مساعدة. لقد تجدد اهتمام يهود فرانكفورت بشؤون تركيا مؤخراً، ووصلت إشارات إلى لندن بشأن ذلك.

إن مصطفى كمال قلق بشأن عمليات الفرنسيين هناك، وهو في الوقت الراهن موالي للبريطانيين، كما يظهر من الثقة التي يوليهما للبريطانيين المتعاطفين مع تركيا (وهم كل من مونتاكيو وسي. أيمرى وأوبري هربرت)<sup>(١)</sup>. غير أنني آمل أن يلفت النظر إلى تقدم البلاشفة في تركستان<sup>(٢)</sup>. من الممكن ظهور نسخة إسلامية من البشيفية شبيهة بالحركة الروهانية، وسوف يعرّضنا ذلك للأذى بالمقدار نفسه تقريباً في كل من العراق وإيران<sup>(٣)</sup>. إننا نمهد الطريق لهذا الأمر بساحتنا لتوسيع نطاق مغازلة الأكراد<sup>(٤)</sup>.

إنني أعتبر الموقف في بلاد الرافدين مثيراً للقلق بالدرجة نفسها. وما لم نصوّب مسلكنا فعلينا أن تتوقع الثورة حوالي شهر آذار / مارس القادم<sup>(٥)</sup>.

لأجل تنظيم شؤوننا في أرجاء الإمبراطورية التركية السابقة، وبجعل قواتنا الضعيفة هناك في وضع يمكنها من تقديم المساعدة العاجلة لبعضها البعض في الحوادث الوشيكة الواقعة، يبدو أن من الأفضل أن توحد قياداتنا العسكرية تحت

(١) ليس هناك خطر من مصطفى كمال على الأرمن في قفقاسيا، إلا إذا قاموا بالهجوم على أرض رومانيا. إن مفتاح الحل لقضيتهم سيعتمد ربما على التاريخ السياسي لسلفي تركستان في الأشهر الستة القادمة.

(٢) ليس بمُستطاع مصطفى كمال أن يقر أمره بين سيليسيا وسميرنا من وجها العمليات، ولن يقوم بعمل ما إلا في ظروف يائنة أو ملائمة للغاية.

(٣) لا أعتقد أن العناصر التي أبرمت معنا الاتفاقية الإيرانية تتمتع بأي رصيد في إيران، وأن أي نجاح للبلاشفة في منطقة مشهد حرفي بأن يحدث تغييراً جذرياً في موقف الإيرانيين.

(٤) إن الفلاقل التي يثيرها الأكراد مؤذية للغاية. إن الأكراد لا يملكون شعوراً مشتركاً، وليس لديهم الأهمية لحكم أنفسهم أو للوحدة القومية. ويعتقد مصطفى كمال أننا نتخذ هذا الموقف من الأكراد من باب التعاطف معه.

(٥) إن تذمر العراقيين مما يتركت في المدن على الأكثر، وسوف يزداد فاعلية عندما يظهر اهتمام أولي الأمر منهم، فيخرجوا إلى الأرياف للاتفاق مع السكان هناك على العمل.

قيادة واحدة<sup>(١)</sup>. إن المارشال النبي مؤهل من حيث القدّم العسكري لقيادة جنرالاتنا في آسيا الصغرى وببلاد الرافدين، وسوف لا يجد صعوبة في القيام بذلك، إذا ما ألقى بمسؤولية الإدارة المباشرة في مصر على عاتق أحد مرؤوسيه.

في. في. لورنس

\* \* \*

### إلى اللورد كيرزن

1919 / 9 / 27

وزارة الخارجية. رقم 134231

عزيزي اللورد كيرزن

أضع هذه المذكرة على شكل رسالة شخصية لأجل أن تكون حراً في أن تصرف بها كيفما شاء.

لو طلب مني أن أقنع فيصلاً بصورة معقولة بقبول اتفاقية باريس للأسبوع الماضي، فسأين له ما يلي: رغم أن هذه الاتفاقية ذات طابع مرحلي تماماً، إلا أن بإمكانه أن يعمل على ترسیخ بنودها في سوريا، بحيث تصبح أساساً لتسوية دائمة.

أ- سأقول له: لكي تكون الاتفاقية موافقة تماماً لرغباته، فهو بحاجة إلى بعض التفسيرات وإضافة بعض النقاط، وأقترح عليه أن يطلب من حكومة صاحب الجلالة تأكيدات تفيد بأن تعهداتنا بشأن الطابع العربي لحكومة وادي الرافدين ما تزال قائمة، وأننا لأجل تخفيف الموقف الراهن (ريثما تصدر قرارات مؤتمر الصلح)

---

(١) بودي لو أعرف فيها إذا كنا قد فكرنا في استئصال طلعت للقضاء على أنور. إن مذكرات طلعت قد تكون ذاتفائدة لنا، وأن مصطفى كمال يلوح باسم أنور كالراية بين يديه في حركته. وبطبيعة الحال، فإن مصطفى كمال أكثر كفاءة من صاحبه، إلا أن ما ينقصه هي الجاذبية الشخصية التي عند أنور.

يكلف السير برسى كوكس بواجب الحكم العام هناك مرة أخرى، ويستخدم نائبه الحالى بوظيفة خارج المنطقة.

إن فيصلًا لا يتوقع من السير برسى كوكس أن يقدم على إجراء أية تغييرات معينة. إن ما يطلب ليس تغيير الحقائق، بل تغيير روحية الحكم. وفي الوقت نفسه، فإن إحدى النتائج التي تترتب على لجنة ملنر قد تكون تغيراً في علاقة مصر مع الحكومة في الداخل، والت نتيجة الأخرى المطالبة بجعل وضع بلاد الرافدين يسير على نهج الدستور المصري الجديد.

إن طموحى الخاص هو أن تكون بلاد العرب أولى بلدان الدومينيون السمراء التابعة لنا، وليس آخر مستعمراتنا السمراء. إن العرب يتلقون خذل إذا ما حاولت أن تسوّقهم عنوةً. فهم عنيدون كاليهود. إلا أنك تستطيع أن تقوّدهم دون اللجوء للقوة إذا ما سرت معهم يداً بيد بصورة شكلية.

إن لبلاد الرافدين مستقبل عظيم إلى درجة أنها إذا استطعنا أن نكسب البلاد قليلاً فستتمكن من السيطرة على جميع الشرق الأوسط معه.

بـ- ثم أقترح على فيصل أن يطلب من موظفي حكومة جلالة الملك أن يقنعوا الفرنسيين بقبول ما يلى:

1. عند إتمام الجلاء تصبح الإدارة العربية الحالية إدارة مدنية، وأن يقوم مجلس منتخب من النطقتين (أ) و(ب) بالتصديق على هذه الاتفاقية وعلى منصب فيصل. (بطبيعة الحال ستكتب هذه الاتفاقية في باريس وتوّقع من قِبَلنا ومن الفرنسيين ومن قِبَل فيصل).

2. يتم حينئذ الاعتراف بهذه الحكومة المحلية الجديدة، كما تعهدنا به في الإعلان الإنكلو فرنسي في تشرين الثاني/نوفمبر 1981 (شيء بها صار بشأن بولندا وسلوفاكيا).

3. تمنع حكومة صاحب الجلال الإدارية العربية منطقة حرة في ميناء حيفا ويعيدها الفرنسيون منطقة حرة، إما في طرابلس أو في الإسكندرية. (إننا بواسطة تقديمنا التسهيلات في حيفا سنجر الفرنسيين على الشيء نفسه، إن طرابلس والإسكندرية هما ميناء المستقبل لبلاد الرافدين).

4. يتم وضع الاتفاقية الالزامة لخط السكة الحديد لإعطاء قيمة عملية لامتيازات المناطق الحرة في الموانئ.

5. يتم الجلاء عن المنطقتين (أ) و(ب) بصورة كاملة. (لا يرغب في ذلك لا البريطانيون ولا الفرنسيون. فنحن نريد إبقاء حامية في درعا ويريد الفرنسيون الإبقاء على قواتهم في دمشق. غير أنني أعتقد أن على الفرنسيين أن يدفعوا ثمن ذلك الامتياز).

وإذا ما أصرّ الفرنسيون على رفض وجود كورنو ليس في دمشق كمستشار للمنطقة (أ)، فعلينا أن نذهب إلى سوريا وننقل فيصل وكل الحكومة السورية إلى درعا في المنطقة البريطانية، وبالمقابل تمنع حكومة صاحب الجلاله بقاء مقيم فرنسي في المنطقة (ب)، آنذاك سيعلم الفرنسيون أن عليهم أن يكونوا معقولين في تصرفاتهم.

أظن أن فيصل سيقبل بهذه الشروط إذا ما أوضحتها له بتفصي، إن هناك المقترفات الصهيونية وراءه، ولو أنني أقترح أن تبقى حكومة صاحب الجلاله على جهل بها.

ج- بإمكاننا أن نجعل المحادثات الحالية فرصة مناسبة لتنظيم المعونات التي تُقدم للحجاج. بوادي أن أرفع هذا العبء عن عاتق وزارة المالية الإمبراطورية، وأجعلها تسدد من فائض الحكمتين المحليتين في كل من سوريا والعراق، فتقسمان العبء حسب ما تتفقان عليه، وتقدران الحصة بموجب ميزانية الحجاج التركية سابقاً.

ولكون الإدارتين في سوريا والعراق ما زالتا حالياً لم تتمكنا مالياً، فعلى القوى الكبرى التي تتولى أمورهما أن تضمن دفع معونة الحجaz نيابةً عنهم، في الوقت الحاضر يقتسم هذا الالتزام في سوريا مناصفةً بين الحكومتين البريطانية والفرنسية اللتان توليان دفع المبلغ سنوياً إلى حكومة سوريا لكي تحوله إلى الحجاز. أما حكومة بغداد فتبعث بالمبلغ مباشرة إلى مكة.

يبدو لي أن من المحتم أن تكون المرحلة التالية في الحركة العربية بأن ترتبط المدن الحجازية بدمشق بمستوى العلاقة نفسه التي كانت في العهد التركي (مثلاً ستكون المرحلة الثالثة ارتباط كل من مكة ودمشق بحكومة بغداد عندما ترتفع كافة السكان في العراق إلى مثيلتها في مصر). إن المرحلة الثانية خطر دخول نفوذ فرنسي كبير إلى مكة، غير أنها إذا ما دفعتنا نصف تكاليف الحجاز مباشرة إلى مكة ودفعتنا حصة أخرى مباشرة إلى حكومة سوريا فسوف نتمكن من القبض على زمام الأمور بدرجة معقولة عند حدوث أي طارئ.

- أما بشأن المنطقة الساحلية الفرنسية في سوريا فقد قَبِلَ الفرنسيون «الفرنسيون في سوريا مثلما البريطانيون في العراق»، لذلك طالما كان أكثر ليبالية (مثل الجناح اليساري في المفهوم البرلاني) فسنكون نحن الذين نحدد الموقف. إن امتزاج العلاقة بين الإدارات العربية والبريطانية والفرنسية على امتداد بلاد العرب ستكون حالة غريبة تماماً، وليس لدى أي شك في أن الطرف الأوسط (دمشق) سيلفت نظر كل واحد منا إلى ما يتمتع به الطرف الآخر من حسنان. إن علاجنا وسياجنا أن نبقى دائماً إلى «اليسار». أظن أن مثال إنجازاتنا البناءة في بلاد فارس قد يساعدنا فعلياً في بلاد الرافدين.

قي. ثي. لورنس

[لا ريب أن هذه الرسالة المبنية أعلاه هي التي أشار إليها لورنس في مقابلته مع البروفسور بيل بعد بضعة أيام.]

فشل مشروع بيل لأنه لم يكن هنالك من يعمل على فرض الأمر المقبول، وأكثر ما ينفي الأمل أن الحكومة البريطانية رجعت إلى اتفاقية لوريد ورج - كلينصو. ولما وجد فيصل أن البريطانيين قد تخلوا عنه، وأن جميع الوعود التي قدمها له الكرونوبل لورنس قد أُلقيت جانبًا، بما إلى عقد اتفاقية منفصلة مع كلينصو احتفظ بمرجعها بمدينة دمشق وأرض سوريا الداخلية.

في 25/4/1920، قرر المجلس الأعلى للخلافاء منع فرنسا حق الانتداب على سوريا، وفي صيف 1920 مزق ميلان الاتفاقية التي عقدتها فرنسا مع فيصل، فقام الجنرال غورو باحتلال الأرض السورية وأجبر فيصل على الرحيل، وتوجت فرنسا حكمها السيد لورنس بوقف دمشق لمدة ثانية وأربعين ساعة في شهر تشرين الأول/أكتوبر 1920. كان ذلك من أعمال الجنرال ساريل الذي كان قد قاد جيوش الخلافاء في سلانيك خلال الحرب، والتي وصفها لودندورف بأنها أكبر معارك الاعتقال. أما إنكلترا التي كانت تذبذب سياستها في العراق فقد عادت إلى اتباع طريقة حكم تشبه (السياسة الاستعمارية في الهند).

وفي الوقت الذي كان لورنس يذوق طعم الاندحار في مؤتمر الصلح، كان يتحول إلى بطل شعبي في لندن. ففي آب/أغسطس 1919 بدأ لوييل توماس، الذي كان قد التقى بلويرنس في العقبة سنة 1917، بالقاء سلسلة من المحاضرات في كرفنت كاردن بعنوان «مع اللبناني في فلسطين والاستيلاء على الأرض العربية المقدسة»، ثم غير العنوان بعده لتصبح «مع اللبناني في فلسطين ومع لورنس في جزيرة العرب». أصابت هذه المحاضرات نجاحاً منقطع النظير، حضرها مجتمع لندن وأعضاء الوزارة. ثم تحولت إلى ألبرت هول، واستمرت حتى شهر كانون الثاني/يناير التالي، وبلغ عدد من حضرها أكثر من مليون شخص. لقد نجح توماس في وضع لورنس في مكانه المناسب على خريطة المجتمع. ثم ذهب في جولة في أستراليا ونيوزيلندا، حيث كتب من هناك إلى لورنس في تشرين الأول/أكتوبر 1920 ليقول له «أظنك ما تزال مختفيًا في معترك في أكسفورد مبتعدًا عن أنظار الكوتنيات الإيطاليات».

كان لورنس قد عاد فعلاً إلى أكسفورد بعد خيته، وسكن جنباً في شارع بولستيد، وحياناً في كلية أول سولز (All Souls). وقد وصفت لي أمه كيف أنه أثناء تلك الفترة من الكتابة العميقه والانبهار المصبي، كان يجلس أحياناً طيلة الصباح ما بين النظور والغداء جلسة واحدة بدون حراك وعلى وجهه انطباط واحد لا يتغير].



## إلى اللورد ونترتن

1920 / 4 / 22

كلية أول سولز - أكسفورد

عزيزي ونترتن

أسرعت بالمجيء إلى هنا لقضاء شهر وأنا أكاد أكون مفلساً. نعم، لقد التقيت ترنجارد ليلة أمس. لقد كبر كثيراً حسب قوله، بينما كان قبل سنة 1914 إنكليزياً بحجمه الصغير. أعتقد أنه مصيبة في جميع الجوانب. وبعد حديث طويل معه أراني أميل إلى تأييد خطته. وهي تتضمن تعيين سالموند بوظيفة المندوب السامي في بغداد (وفي ذلك خلاص مفرح من تقاليد الإدارة المدنية في الهند)، واعتبار وزير المستعمرات مسؤولاً، ربما اسمياً، عن المرفق وإنشاء جيش عربي تحت إدارة عربية - بريطانية للدفاع عن البلاد.

لقد وجدت ترنجارد أميناً وملحضاً (بحق الله لا تكرر هذه العبارة!) وعازماً على أن يعامل الناس هناك بالإنصاف. وهو يعتقد مثلنا، أن لا فائدة هناك من قصف السكان بالطائرات.

أخبرته أن جويس سيعاونه على إنشاء الجيش العربي (وقام بذلك فعلاً بالتعاون مع جعفر العسكري)، ومن دواعي السرور أن نرى نوري وجعفر والبقية يمارسون أعمالهم مرة أخرى.

وعلى كل حال، سأزودك بالمزيد من هذه المعلومات عندما نلتقي، وما لم يحدث ما يؤدي إلى إثارتك، أرى أن تمتنع عن مهاجته في مجلس العموم، لأنني أعتقد بأنه حق فيها يقصده. ما أغرب أن يوجد شخص بدون مشاكل في المدينة.

سيكون حديثنا ممتعًا وأنا متشوق لذلك، غير أنني لست على ثقة من أن أوبيري هربرت سيأتي مبكرًا كما نتصور. يبدو أن ألبانيا تثور بأشكال شتى في آن واحد، ويُحتمل أن ينصب نفسه على عرشهما لبضعة أسابيع.

المخلص أبدًا / لورنس

أبعث بهذه الرسالة إلى عنوانك في مجلس العموم. وهو ليس العنوان الذي أفضله، غير أنني دائمًا أنسى العنوان الآخر.

لورنس

\* \* \*

### إلى رئيس تحرير جريدة التايمز

1920/7/22

كلية أول سولز

سيدي

أثناء جلسة مجلس العموم هذا الأسبوع التي نوقشت فيها قضايا الشرق الأوسط، أبدى أحد المخضرمين في المجلس استغرابه من أن العرب في بلاد الرافدين يشهرون السلاح في وجهنا، رغم حُسن نيتها في نظام الانتداب هناك. وقد ردّ الكثيرون هذا الاستغراب هنا وهناك في الصحافة. يلوح لي أن هذا الموقف يستند إلى سوء فهم لآسيا الجديدة، ولتاريخ السنوات الخمس الماضية، مما شجعني على أن أقحم نفسي على صفحات جريدتكم وأعرض تفسيري للموقف.

لقد ثار العرب على الأتراك خلال الحرب، ليس لأن الحكومة التركية كانت سيئة للغاية، بل لأنهم أرادوا الاستقلال.

إنهم لم يخاطروا بحياتهم ليستبدلوا سيداً بسيد، أو ليصبحوا رعايا بريطانيين أو مواطنين فرنسيين، بل ليكسسوا قضيتهم الخاصة.

أما التساؤل عنها إذا كانوا يستحقون الاستقلال أم لا، فذلك أمر ينبغي أن يجتبر. إن الحق بالحرية لا يستدعي أن يكون الإنسان جديراً بها، فلقد أخذها الأفغان والبلغار والتهاتيون. إنك تتمتع بالحرية عندما تكون جيد التسلح، أو متربداً عنيفاً، أو تسكن بلاد وعرا المسالك، إلى درجة يصبح فيها ثمن احتلال جيرانك لأرضك أغلى مما يكسبه. لقد ظلت حكومة فيصل تتمتع باستقلال تام لمدة ستين في سوريا واستطاعت أن تحافظ على الأمن العام وتقدم الخدمات العامة في منطقتها.

لم تحصل بلاد الرافدين على الفرصة نفسها لحمل السلاح، فهي لم تخذل الأتراك مطلقاً وعندما (قاتلتنا) فعلت ذلك بدون حاس. وبناءً على ذلك، فقد أقمنا هناك إدارة حربية. لم يكن لنا الخيار في ذلك، إلا أن ذلك كان قبل ستين. ولم نحاول بعد الآن أن نتحول إلى حالة السلم، وليس هنالك في الحقيقة ما يدل على أننا سنتحول قريباً. وحسبما تعبّر عنه البيانات الرسمية فإن «تعزيزات كبيرة» في طريقها إلى هناك، وسرعان ما سيزيد عدد أفراد حاميتها على المائة ألف في الشهر القادم، وسيرتفع مبلغ مصاريفنا إلى خمسين مليون باوند لهذه السنة المالية، ومع ذلك ستزداد الجهد التي علينا أن نبذلها كلما ازداد إصرار العراقيين على الاستقلال.

لا عجب في أن ينفد صبر العراقيين بعد ستين من الاحتلال، فإن الحكومة التي أقمناها هناك إنكليزية الطابع، وتدير أمورها باللغة الإنكليزية. لذا، فهنالك 450 موظف تنفيذي يديرونها، وليس فيها أي فرد من أبناء البلاد. أما في أيام الحكم التركي، فإن 70٪ من موظفي الإدارة المدنية كانوا من السكان المحليين.

إن جيشنا الذي يبلغ تعداده 80,000 رجل ينشغل بواجبات بوليسية وليس بواجب حماية الحدود. إنهم يمسكون برقب الناس. بينما كان الجيش التركي في العراق، والمكون من فيلقين، يضم من الضباط العرب ما نسبته 60% من مجموع ضباطه و95% من أفراده كانوا عرباً كذلك. إن المثقفين العراقيين يشعرون بالمرارة لأنهم محرومون من المشاركة في إدارة البلاد ومن مهمة الدفاع عنها. حقيقة إننا جعلنا مستوى الرفاه العام في الكفة الراجحة من الميزان، ولكن من الذين يلتفت إلى ذلك عندما تكون الحرية بالكفة الخاسرة منه؟ لقد انتظروا طويلاً ورحبوا بأخبار اندابنا عليهم، لأنهم حسروا ذلك نظام حكم ذاتي لأنفسهم، أما الآن فقد فقدوا الأمل في حُسن نيتنا.

العلاج؟ إنني لا أرى أي علاج إلا في تغيير فوري في سياستنا. هنالك خطأ في المنطق الذي يقف وراء جمل الوضع الراهن. لماذا يقتل الفرد الإنكليزي (أو الهندسي)، لأنه يعمل على إقامة حكومة عربية في بلاد الرافدين، وهو ما يتافق على أن حكومة صاحب الجلالة تريد أن تفعله؟ إنني أوفق على نية الحكومة بهذا الشأن، غير أنني أفضل أن أترك ذلك للعرب ليفعلوه، وباستطاعتهم ذلك. إن تجربتي المحدودة في مساعدة فيصل في إقامة الحكومة قد علمتني أن فن الحكم يحتاج إلى قوة شخصية، أكثر مما يحتاج إلى أدمعة.

ينبغي أن تكون العربية هي لغة الحكومة. سيؤدي ذلك إلى تقليل عدد الموظفين البريطانيين والعودة إلى استخدام المؤهلين من السكان العرب. وأن يشكل جيش ذو فرقتين من المتطوعين من السكان المحليين كلهم من العرب، ابتداءً من قادة الفرق حتى أصغر الجنود (ويتيسر الآلاف من الضباط وضباط الصف المدربين). وتتكلف هذه الوحدات الجديدة بواجب المحافظة على النظام ويعمل على إخلاء البلاد من جميع الجنود البريطانيين وكل الجنود الممنوع. قد تستغرق هذه

التغييرات اثنى عشر شهراً، وبعدها سنكون متمكنين من إدارة بلاد الراذدين بالقدر نفسه الذي ندير به كندا أو جنوب إفريقيا، قليلاً كان ذلك أم كثيراً. أعتقد أن العرب في هذه الحالة سيكونون مخلصين لنا كأي شعب آخر في الإمبراطورية، بدون أن يكلفنا ذلك فلساً واحداً.

سيقال لي إن فكرة بلدان (دومينيون) سمراء في الإمبراطورية البريطانية إنها هي فكرة غريبة، ولكن مشروع مونتيكيو ومشروع ملنر ما هما إلا الطريق الذي يؤدي إلى ذلك الوضع، والبديل الوحيد لذلك كما يبدو، هو الغزو المباشر وهو ما لا يريده الفرد الإنكليزي العادي ولا قدرة له على تحمل كلفته.

بطبيعة الحال، إن هناك نفط في بلاد الراذدين، ولكن ذلك سيقى بعيداً عن متناول يدنا طالما بقي الشرق الأوسط في حالة حرب، وإذا كان النفط ضرورياً لنا إلى تلك الدرجة، فأظن أن بالإمكان جعله مادة للمساوم. إن العرب ليبدون على استعداد لدفع دماءهم ثمناً للحرية، فكم من النفط سيدفعون ثمناً لها؟

قي. فني. لورنس

[بعد النصوح الاقتصادي الذي أعقب الحرب حدث هبوط معاكس وشعر الجميع بضرورة الاقتصاد في النفقات. كانت بريطانيا تسيطر على بلاد الراذدين بواسطة جيش كان يكلفهم ستين مليوناً باون في السنتين 1920 و 1921. قد علق ليلى هارت على ذلك بأن تكاليف السيطرة على العراقيين تعادل مئة مرات ما تطلبه عملية تمويل كل الثورة العربية ضد تركيا للمدة نفسها تقريباً. ومع ذلك، فقد كان هناك بعض الذين ورطوا بريطانيا في هذه الخسائر المذهلة في المال والبشر، إلا أنهم كانوا يهاجرون لورنس باستمرار على أساس أنه لم يتوصل إلى ما حققه من نجاح بدون أن يدفع المuronات المالية للعرب<sup>(١)</sup>. أتبع لورنس رسالته التي بعثتها إلى جريدة التايمز يوم 22/7 بمقابلتين بين فيها رأيه بقوة

(١) إن هؤلاء أنفسهم كانوا يدفعون الرشاوى للبعض. فلقد استطاع الكولونيل ليجهان من منع بعض العرب في منطقة من الاشتراك بالثورة (العراقية) بعد أن وزّع عليهم مبلغ 21,000 باون سنة 1920. المترجم.

أشد، نشرت الأولى في جريدة الأوزير يوم 8/8/1920 بدون تعليق عليها، إلا أن الثانية نشرت في جريدة الصاندي تايمز يوم 22/8/1920 ونشر معها مقال افتتاحي قوي العبارة للثانية جاء فيه:

«لماذا نحن في بلاد الراغبين؟ إن التصرعات المبهجة التي أخذت تصدر من الحكومة تحمل الانطباع بأن الدوائر الرسمية قد أصابها الارتباك وتسعى إلى إخفاء تخطيباتها أكثر مما تسعى إلى تقويمها. غير أنه ليس من الممكن إخفاء هذه التخطيبات أكثر من ذلك. فإن الرجال الذين بعشانهم لتعمير البلاد تركناهم دون أن نشرف على أعمالهم أو نحد من تصرفاتهم قد أسرفوا في تبذير الأموال وفي تسلطهم العسكري مثلهم كمثل أي باشا من الأتراك» [١].

\* \* \*

[نشرت المقالة التالية في الأوزير يوم 8/8/1920]

### فرنسا وبريطانيا والعرب

بقلم: الكولونيل تي. في. لورنس

ظهر في إنكلترا شعور بأن احتلال الفرنسيين للدمشق والإطاحة بفيصل عن العرش الذي ارتقاء نتيجة انتخابه من قبل السوريين الأوبياء، إنها هو شر جزء لما قدمه لنا فيصل أثناء الحرب. إن فشلنا في رد الجميل لكرم أحد أصدقائنا الشرقيين ليترك فيما شعوراً بالمرارة. إن شجاعة فيصل وحسن سياسته قد جعلتا ثورة مكة تنتشر إلى ما وراء حدود المدن المقدسة، حتى أصبحت خير مساعدة تقدم للحلفاء في فلسطين. أما الجيش العربي الذي ظهر إلى الوجود في ميدان المعارك، فقد تطور من مجرد عصبة من البدو حتى صار مجموعة من الطبقات المنظمة حسنة التسلیح. لقد أسر هذا الجيش خمساً وثلاثين ألفاً من الأتراك وأوقع إصابات في مثل هذا العدد واستولى على مائة وخمسين مدفع وسيطر على مائة ألف ميل مربع من الأراضي العثمانية. لقد كانت تلك أعظم خدمة في وقت تحتاج فيه إلى مثلها وشعرنا أننا مدينون للعرب بما يحيط بهم، ولنفيصل ضعف ذلك على ما أظهره لنا من ولاء في تنظيم عمليات العرب الرئيسة حسب توجيه النبي.

ولكتنا لسنا في موقف يسمح لنا بتوجيه اللوم إلى الفرنسيين في هذا الشأن. لقد جاءت تصرفاتهم داخل منطقة نفوذهم في سوريا مطابقة بكل تواضع للمثل الذي ضربناه لهم في تصرفاتنا في العراق. إن إنكلترا تسيطر على تسعة أعشاش العالم العربي، وبذلك تكون هي التي تعزف النغمة التي يرقص عليها الفرنسيون. فإذا اتبعنا سياسة تناصر العرب فعلتهم أن يفعلوا مثلنا، إذا قاتلنا العرب فعلتهم كذلك أن يقاتلوا العرب. سنكون على قدر من السماحة إذا ما أنكرنا على الفرنسيين ما عملوه من قتال قرب دمشق وتصفيية التجربة السورية في الحكم الذاتي، وفي الوقت نفسه الذي نشن فيه المعارك قرب بغداد ونحاول أن نجعل العراقيين عاجزين عن حكم أنفسهم بنفسهم بالقضاء على أي شخص يرفع رأسه بينهم.

قبل بضعة أسابيع طلب عدد من الشخصيات العربية المعروفة في العراق مواجهة مع رئيس الجهاز الإداري البريطاني في بغداد، ليعرضوا عليه مطالبيهم في الحكم الذاتي المحدود. كان جواب الحاكم البريطاني أن حشر مع هذا الوفد الشعبي عدداً من الأشخاص الذين عيّنهم بنفسه، وردة على المجتمعين قائلاً لهم إن وقتاً طويلاً سيمضي قبل أن يكون العراقيين مؤهلين لتحمل مسؤوليات الحكم<sup>(1)</sup>. إنها كلامات جريئة دون شك، إلا أن نتيجتها كانت وخيمة على الجنود البريطانيين من كتيبة مانشستر قرب مدينة الحلة هذا الأسبوع. إن مثل هذه الثورات مسار مطرد،

(1) كان ذلك هو الكولونيل أي. ت. ولسن، وكيل المحاكم العام. وفيها يلي معلومات عن هذه المقابلة، اقتبست من كتاب فيليب آيرلاند «العراق دراسة في تطوره السياسي»: «... تقدم خمسة عشر من الشخصيات الوطنية البغدادية، المتذوبون، كما يسمى بهم السكان، بطلب إلى وكيل المحاكم العام لمواجهته بشأن عرض مطالبيهم لكي يقدمها إلى الحكومة البريطانية. حاول المحاكم أول الأمر تفادى هذه المقابلة. إلا أنه حدد لهم أخيراً موعداً في 2/6. إلا أنه اتخذ إجراءات احتياطية بأن دعا حوالي أربعين من وجوه البلد الآخرين.. واتخذ إجراءات بوليسية معينة ووضع قطعات الجيش في حالة تأهب في ثكناتهم، وجاء بالسفينة الحربية «كومت» إلى شاطئ دجلة قبلة السراي وصوّرت مداقعها نحو مقر الاجتماع». المترجم.

فهي تبدأ بانتصارات أولية للعرب وبعدها ترسل التعزيزات البريطانية كقوة تأديبية. تشق هذه القوات طريقها نحو أهدافها عبر سلسلة من المعارك، تقصف أثناء هذه الأهداف بالمدافع والطائرات والسفن الحربية (وتتكبد فيها خسائر طفيفة، بينما يتکبد العرب خسائر جسمية). ويتهي الأمر بإحراق إحدى القرى ويعم المدّوء في المنطقة. إن من الغريب أننا لا نستعمل الغازات السامة في هذه الأحداث. إن قصف مساكن الناس، إنها هي طريقة رقيعة مثل القضاء على النساء والأطفال، بينما يحقق جنودنا نجاحاتهم في قتل الرجال من العرب. أما استعمال الغاز السام في الهجوم على الناس فإنها طريقة بارعة في إبادة كل السكان في المناطق المتمردة. وهي ليست أقل أخلاقية كوسيلة للحكم مما تفعله الآن هناك.

إننا ندرك مدى العبء الاقتصادي الذي يلقيه جيشنا في العراق على الميزانية الإمبراطورية، إلا أننا لا نرى بالوضوح نفسه مدى العبء الذي يكتونه هذا الجيش على الوضع في العراق. فأفراد الجيش يحتاجون إلى الطعام، وحيواناته كذلك تحتاج إلى الطعام. يبلغ تعداد القوة المحاربة الآن أربع وثمانون ألف رجل، إلا أن عدد الأفواه التي يجب إطعامها يبلغ ثلاثة آلاف. إن كل جندي يحتاج إلى ثلاثة عمال لخدمته وتموينه، وبذلك يعمل مع جيشنا عشر السكان في العراق في هذا الوقت. لقد استهلك جيشنا كل خضراء في البلاد وما يبلغ الطوفان مداه. ولأجل المحافظة على سلامه موقفنا هناك، علينا الآن أن نضاعف عدد حاميتنا الحالية. وكلما تستندن الموارد المحلية، كلما أدى زيادة عدد أفراد الجيش إلى ارتفاع التكاليف فوق ما تخسيبه المتواترة العددية.

إن وجود هذه القوات إنها هو لمجرد القيام بالأعمال البوليسية للسيطرة على المواطنين، هؤلاء الذين قيل عنهم في مجلس اللورادات قبل أسبوعين، بأنهم متلهفون لاستمرار بقاءنا في بلادهم. ليس بإمكان أحد أن يتصور ماذا سيكون موقفنا لو أن

إحدى الدول المجاورة للعراق، والتي تشعر بالحسد تجاهنا (وكلها تحظى للعمل ضدنا)، تبدأ بالهجوم علينا من الخارج، في الوقت الذي نواجه فيه ترد السكان علينا في الداخل. إن خطوط مواصلاتنا طويلة وردية، وإن مواضعنا الدفاعية مكشوفة من جميع جوانبها، وفي الفترة الأخيرة يبدو أن حادثان من هذا النوع قد وقعتا. يظهر أننا أصبحنا لا نثق بقطعاًتنا كما كنا نفعل أثناء الحرب.

وللجانب ذلك فهناك مشكلة الأشغال العسكرية. فالحاجة تدعو لبناء معسكرات وثكنات كبيرة وإنشاء مئات الأميال من الطرق العسكرية. والجسور الكبيرة التي تستطيع تحمل سيارات الشحن لا تيسر إلا في مناطق متباينة، حيث تكون الوسيلة الوحيدة لنقل الحمولات هي على ظهور الحيوانات. وشيدت هذه الجسور من مواد مؤقتة وتحتاج إلى مبالغ طائلة لصيانتها. كما أن ليس فيها أيةفائدة للحكومة المدنية التي فرض عليها أن تأخذها بكلفة عالية. وهذا يعني أن الدولة الجديدة هناك ستبدأ حياتها وهي مثقلة بديون فُرضت عليها فرضاً.

إن الساسة البريطانيين، من رئيس الوزراء فما دونه، يولدون ويتحبون بسبب العبء الكبير الذي ألقى على عاتقهم في بلاد الرافدين. فاللورد كيرزن يصرح قائلاً: «أتفنى لو أن بإمكاننا أن تكون جيشاً محلياً، إلا أن الناس يرفضون الخدمة العسكرية» (وربما يضيف قائلاً في سره «اللهم إلا إذا كان ذلك للقتال ضدنا»)، ليتنا نجد عدداً من العرب المؤهلين للملء الوظائف الإدارية...

إن ما حدث في سوريا يمكن أن ينير أمامنا الطريق لمعالجة هذه الشحة في ذوي المواهب من السكان. لم يواجه فيصل صعوبة في تجنيد الأفراد لجيشه، ولو أنه وجد صعوبات في دفع أجورهم، إلا أن الظروف كانت مختلفة، لأنه قد حرم من واردات الجمارك بصورة اعتباطية. كما لم يواجه أية صعوبة كذلك في تكوين الجهاز الإداري في سوريا، والذي كان يتتصدر فيه خمسة كلهم من أهل بغداد. لم يكن ذلك الجهاز

الإداري ممتازاً على كل حال، إلا أن الناس في الشرق أقل منا مطالبة بحقوقهم. وحتى المصلح الإغريقي صولون (560-630 ق.م) لم يمنع أهل أثينا أفضل القوانين، إلا أنه منحهم أفضل ما يستطيعون قوله.

إن البريطانيين في العراق عاجزون عن العثور على شخص قادر واحد. إلا أنني أؤكد أن ما جرى خلال الأشهر القليلة الماضية قد أظهر فشل سياستهم، لذلك علينا أن لا نقيم وزناً كبيراً لأرائهم. إنني أعرف عشرة موظفين إداريين بريطانيين ذوي سمعة عالية ومشبوبة في السودان وسيناء وجزيرة العرب وفلسطين يستطيع أي واحد منهم أن يقيم غداً في بغداد حكومة عربية شبيهة بما فعله فيصل في سوريا. لن تكون هذه الحكومة مثالية بطبيعة الحال، إلا أنها قد تكون خيراً من حكومة فيصل لأن المسكين لم يمنع فرصة الاستعانت بالخبراء الأجانب لأن أريد له أن يفشل ويسقط. إن محاولة إقامة حكومة عربية في العراق ستتم بساند بريطانيا لها، وستكون إدارتها أمراً سهلاً للغاية، إذا ما تو لاما شخص لائق، طالما حاول أن يديرها كما أديرت مصر على عهد كرومر لا كما أدرىت مصر تحت الحماية. لقد همّن كرومر على مصر، ليس لأن الحكومة البريطانية ساندته، ولا لأن المصريين قد أحبونا، ولا لأي سبب خارجي، بل لأنه كان إنساناً قوياً. إن لدى إنكلترا العدد الكافي من الرجال من الطراز الأول. إن العبرية آخر شيء نحتاجه هناك.

إن المطلوب هو أن نبطل ما صنعناه هناك ونبداً من جديد كمستشارين فلا فائدة ترجى من ترقيع الوضع الراهن. إن عبارات مثل «مراقبة مشاعر السكان» وغيرها من الكلمات العقيمة ليست سوى تنازلات تتبّع من ضعفنا ولن تولد إلا المزيد من حوادث العنف. لقد كبرنا للدرجة تسمح لنا بأن نعترف بأخطأتنا ونقلب صفحة جديدة، وعلينا أن نفعل ذلك ونحن نصرخ ابتهاجاً، لأنه سيوفر علينا ملايين الباونات كل أسبوع.

\* \* \*

## بلاد الراذدين

بقلم: الكولونيل السابق تي. في. لورنس

[نشرت في جريدة الصنداي نايمز، عدد 22/8/1920، تحت التعليق الآتي: إن السيد لورنس، الذي أصبحت عملية إدارته وتنظيمه ثورة الحجاز ضد الأتراك من أشهر قصص الحرب، قد كتب هذا المقال بناءً على طلبنا من أجل أن يكون الجمهور على علم تام بالتزاماتنا في العراق].

إن الناس في إنكلترا قد أوقعوا في مصيبة في العراق سيكون من الصعب عليهم أن يتخلصوا منها بشرف وكراهة. إن حجب المعلومات عنهم بصورة مستمرة قد أدى بهم إلى الواقع مخدوعين في هذه المصيبة، فإن بيانات الحكومة في بغداد تأتي متأخرة وناقصة ومنافية. إن الأمور أسوأ بكثير مما قيل لنا عنها، وإن إدارتنا في العراق أكثر دموية وعجزاً مما يقال للناس هنا. إن هذا الأمر عار على تاريخنا الإمبراطوري؟ وسرعان ما ستصل الحال إلى وضع ملتهب لا يرجى له شفاء. فالليوم نحن أقرب ما نكون من الكارثة. إن الإثم الأكبر يقع على عاتق المسؤولين عن الإدارة المدنية البريطانية في العراق (و خاصة أولئك الضباط الثلاثة برتبة كولونيل) الذين أطلقت لندن أيديهم في إدارة البلاد. إن هذه الإدارة لا تخضع للتوجيهات دوائر وزارة الخارجية، بل تعمل من خلال الفجوة التي تفصل ما بين وزارة الخارجية ووزارة الهند. لقد استفاد رجال هذه الإدارة من حرية العمل التي سمح لهم بها أثناء الحرب لكي يستغلوا بتصرفهم الخطيرة أثناء السلم. إنهم يقاومون أي اقتراح يأتيهم من الحكومة في لندن بشأن إنشاء حكم ذاتي حقيقي. وقد نشروا هناك مؤخراً تصريحاً منمقاً حول الحكم الذاتي، كتبوه وزرعوه على عجل استباقاً لتصريح أكثر تسامعاً كان موضع الإعداد في لندن. وكانوا في سنة 1919 ينتزعون من السكان في العراق، بيانات عن «تقرير المصير» ترجع كفة بريطانيا، عن طريق الضغط السياسي، وإظهار العضلات بواسطة الطائرات، وعن طريق نفي الشخصيات إلى الهند.

ليس بوس الحكمة البريطانية أن تتنصل من مسؤولياتها جيماً. فإن ما يصلها من معلومات أكثر بقليل مما يصل الجمهور، وكان عليها أن تطالب بمعلومات أكثر وأفضل. فلقد بعثت إلى تلك البلاد دفعة وراء أخرى من التعزيزات العسكرية دون أن تتحقق في الأمر. ولما أصبح الحال شيئاً لدرجة لا تتحمل قررت الحكومة أن تبعث بمندوب سام هو الشخص نفسه الذي كون النظام القائم هناك، وحلته رسالة ترضية إلى العرب بأن شعوره وسياساته قد تغيراً كلية<sup>(١)</sup>.

ومع ذلك فإن سياستنا لم تتغير ولا حاجة هناك لتغييرها. فالمشكلة أن هناك تناقضًا يبعث على الأسى بين ما نقوله وما نفعله. لقد قلنا إننا ذهبنا إلى العراق لأجل أن نحرر تركيا. ثم قلنا إننا باقون في العراق من أجل أن نحرر العرب من اضطهاد الحكومة التركية، ومن أجل أن نفتح أمام العالم طريقاً إلى ثروة البلاد من نفط وقمح. وبذلنا في سبيل هذه الغايات مليوناً من الرجال وألف مليون من المال. ونحن نبذل هذه السنة اثنين وتسعين ألفاً من الرجال وخمسين مليوناً من المال للغايات نفسها.

لكن حكومتنا أسوأ من النظام التركي القديم. فهي قد جندت أربعة عشر ألفاً من السكان في قواتها المسلحة، وصارت تقتل مائتين من العرب سنوياً للمحافظة على الأمن. والآن لدينا هناك تسعون ألفاً من الرجال مع الكثير من الطائرات والمعجلات المدرعة والسفن الحربية والقطارات المدرعة. وقتلت ما يقرب من عشرة آلاف من العرب في ثورة هذا الصيف فقط. إننا لا نستطيع الاستمرار على هذه الشاكلة، فالعراق بلد فقير قليل السكان؛ ولو شاهد عبدالحميد ما نصنعه لصفق إعجاباً بصنعيه سادته. يقولون لنا إن هذه الثورة أسباب سياسية ولكنهم لا

(١) كان قد تقرر إعادة السيد بيسمى كوكس كمندوب سام في شهر تشرين الأول / أكتوبر التالي ليشكل حكومة.

يقولون لنا ما هي مطالب السكان، فلربما كان ما يطلبونه هو نفس ما وعدتهم الحكومة به. قال أحد الوزراء مؤخراً في مجلس اللوردات إننا ملزمون باستبعاد ذلك العدد الكبير من جنودنا في العراق، لأن السكان المحليين يرفضون الدخول في القوات المسلحة. ونرى الحكومة تعلن يوم الجمعة عن موت بعض المجندين المحليين وهو يدافعون عن ضباطهم البريطانيين. وتضيف أنه لم يتم الاعتراف الكامل بعد بخدمات هؤلاء الناس لقلة عددهم (مضيفة التعبير التقليدي لحكومة بغداد بأن هؤلاء الأشخاص من ذوي السمعة السيئة). إن هناك سبعة آلاف من هؤلاء المجندين، وهو نصف عدد القوات التركية التي كانت تحتل العراق. فإذا ما أحسنا توزيع هؤلاء المجندين، واختبر لهم ضباط جيدون، لاستطاعوا أن يحملوا محل نصف جيشنا هناك. لقد سيطر كروم على ستة ملايين مصرى بخمسة آلاف جندي بريطانى. بينما فشل الكولونيل ولسن في أن يسيطر على ثلات ملايين من العراقيين بستعين ألف من الجنود.

ثم إننا لم نصل بعد إلى الحد الأقصى للتزاماتنا العسكرية. فقبل أربعة أسابيع رفعت إدارتنا في العراق مذكرة تطالب فيها بأربعة فرق أخرى، وأن أن هذه المذكرة قد رُفعت إلى وزارة الحرب التي بادرت إلى إرسال ثلاثة ألوية من الهند، فمن أين سيرسل الباقى إذا أريد عدم الإخلال بقوات الحدود الشهالية الغربية؟ وفي ذات الوقت فإن قواتنا التعيسة الحظ، هندية كانت أم إنكليزية، تعيش ظروفاً صعبة من الطقس وأمور التموين وهي تخسر مساحات شاسعة، وتتدفع ثمن ذلك غالياً في الأرواح، كل ذلك لأجل السياسة الخاطئة المتعنتة للإدارة المدنية في بغداد. لقد أغفى الجنرال دائير من منصبه في الهند بسبب خطأ أصغر من ذلك بكثير، غير أن المسؤولية في هذه الحالة لا تقع على عاتق الجيش، الذي لم يتصرف إلا بموجب ما طلبته منه السلطات المدنية. لقد بذلت وزارة الحرب كل جهودها من أجل تقليل عدد قواتنا هناك، إلا أن قرارات مجلس الوزراء كانت تعارض ذلك. تقوم حكومة

بغداد بشنق العرب في تلك المدينة لأسباب سياسية تسمى بها الحكومة تمرداً. إن العرب ليسوا متربدين علينا، إنهم ما يزالون رعايا أتراك من الناحية الاسمية، وفي حالة حرب معنا من الناحية الإسلامية كذلك. أتريد بهذه الإعدامات اللاقانونية أن تثير العرب لينتقموا من الثلاثمائة أسير بريطاني لديهم؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل نريد أن يكون مصير أسرانا أشد قسوة، أم أن ذلك لأجل إقناع بقية قطعاتنا لكي يقاتلوا حتى الموت؟

نحن ندعى أن وجودنا في أرض الرافدين هو من أجل تطويرها لمصلحة العالم. ويتفق جميع الخبراء بأن الأيدي العاملة هي العامل الحاسم في عملية تطور هذه البلاد. فإذا أي حد سيكون قتل عشرة آلاف فلاح ومدني خلال هذا الصيف أمراً معرقاً لعملية إنتاج القمح والقطن والنفط، وإلى متى ستنسخ بالشخصية بالملائين من الباونات والآلاف من جنود الإمبراطورية وعشرات الآلاف من العرب في سبيل شكل من الإدارة الاستعمارية التي ليس فيها نفع لأي أحد سوى موظفيها؟

لورنس

\* \* \*

إلى اج. آر. هاردي

أكسفورد - 9/25/1920

عزيزي هاردي

هذه واحدة (صورة فوتوغرافية) وهي ليست بالشيء الكثير، لكنها خير ما استطعت العثور عليه. أظن أن كوزلت هو الذي التقاطها خارج خيمته في العقبة عندما لم أكن أرتدي عباتي. أما عن مكة، فأرسل لك ثلاثة صور لها التقاطها طبيب

عربي. إنها مكان غريب وملفت للنظر فليس فيها أشجار أو ماء جاري، وهي مدينة شديدة الحر تقع في وديان ضيقة تحيطها تلال كلسية ويسكنها حوالي مائة وعشرين ألف شخص. ليس من الصعب جداً في الحقيقة أن تصل إلى هناك إذا ما كنت معروفاً من قبل الناس، لأنهم غير متخصصين. إنهم لا يسمحون بدخول النصارى، لأن ذلك قد يُغضب بقية المسلمين في العالم (في الهند وبقية البلدان)، وإذا ما حدث ذلك فقد يتمتعون عن المجيء إلى الحج. وفي الحج كل واردات ذلك المكان، لذلك إذا ما سألني أحد إن كنت قد زرت المكان فعلّي أن أجيب بالتفويظية ظاهرياً، وياماً كانك أن تخمن الجواب الصحيح يعني وبينك. يجب أن لا تصل هذه الأخبار إلى الصحافة.

ستتعشى معاً يوماً ما، غير أنني يجب أن أكسب بعض المال أول الأمر، ربما سأضع كتاباً للكتابة المال عن طريقه. أما الآن، فإنني أعاني من الإفلاس التام، ولأنني أعيش أوقاع الفراغ كثيراً، فإنني لا أرغب في الانصراف إلى العمل ثانية. إن الحكومة تريديني أن أعود للعمل في الشرق.

المخلص لورنس

\* \* \*

### برقية إلى الحكومة

[لقد اضطر رئيس الوزراء لويد جورج باعتباره مسؤولاً عن سياستنا في العراق إلى إحداث تحول رئيسي في هذه السياسة. لم يفعل لويد جورج ذلك بسبب الرغبة في أن يحقق للعرب ما لم يتحقق لهم من وعد، أو ينصفهم في حقوقهم، بل نتيجة للحملة الصحفية على فضيحة جهازنا الإداري في العراق، ورفعها شعار «الجلاء عن بلاد الرافدين»، كتيبة للركود الاقتصادي والدعوة إلى الاقتصاد بالتفاقات.

كان الكولونييل ولسن قد بعث في 9/6/1920 برقية من بغداد إلى الحكومة يقول فيها:

«يجب أن تكون مستعدين لتجهيز الرجال والأموال ونحافظ على استمرار سيطرتنا العدة سنوات قادمة. يجب أن تنهي، بغض النظر عن عصبة الأمم، لأن نمضي ببطء شديد في بناء المؤسسات الدستورية

والديمقراطية ... وإذا ارتأت حكومة صاحب الجلالة أن هذه السياسة غير قابلة للتطبيق، أو أنها تفوق قدراتنا، فمن الأفضل لها أن تواجه البديل الآخر وهو الجلاء عن بلاد الرافدين ...».

لم تكن هذه البدائل مقبولة عند الحكومة، وأجابت الوزارة أنها عهدت إلى السير برسى كوكس مهمة تشكيل حكومة عربية مؤقتة. غير أن هذه المخاطرة الأولى لم تكن كافية لإرضاء سكان العراق، ولا لاسكات انتقادات الصحافة في الداخل. كان الأمر يتطلب تغييرات كاسحة ليؤدي إلى توفير مبالغ كبيرة للاقتصاد. وعزم لويد جورج على إخراج الشرق الأوسط من مسؤولية اللورد كبرن في وزارة المخارجية، وإيداع أمره إلى وستون تشرشل، الذي تولى وزارة المستعمرات. تم تعيين لورنس، الذي كان قد بحث الموقف مع لويد جورج بمنصب المستشار السياسي لوزير المستعمرات تشيرشل، وتسلم وظيفته في الغرفة نفسها مع كل من السير جون شاكربور والميجير هيوبرت يونغ. اشترط لورنس أن يتم الوفاء بالعهود التي مُنحت للعرب، على قدر ما ينسجم ذلك مع وجود الفرنسيين في سوريا، وأن يتم تطبيق الخطة التي بعثها مع مارشال الجرو ترنجارد والتي تقضي بإجلاء الجيش عن العراق وإبقاء مسؤولية المحافظة على النظام الداخلي في العراق على عاتق القوة الجوية الملكية. في سنة 1933 دون لورنس العمل التالية على مسودة الكتاب المعروف «لورنس، في بلاد العرب وما بعد ذلك»، المؤلف ليدل هارت:

«أما عن تأثير القصف الجوي فقد ظهر في أثناء الحرب، أن قوة مختلطة من العجلات المدرعة والطازرات كفيلة بالسيطرة على الصحراء، بشرط أن لا تكون تحت سيطرة الجيش البري، ويبدون إسناد من المشاة. ويمكن أن تعزى سيطرة القوة الجوية في العراق وعدد وفلسطينين إلى هذه الخبرة. وحالما تكتمل من تثبيت موقفنا الخاص في الشرق الأوسط فتحت ترنجارد حول هذا الموضوع، وكسبت موافقة وستون بيهوله، وأفانت مجلس الوزراء بالموافقة على الفكرة (رغم خادعات ألفيلد مارشال هنري ولسن) - ونجحت العملية تماماً. غير أن هذا النظام لا يمكن تطبيقه في كل الظروف والواقع».

أخذ القرار في لندن على الخطوط التي يجب بموجتها تشكيل الدولة العربية الجديدة في العراق، وذلك قبل أن يعقد مؤتمر القاهرة الذي حضره تشرشل ولورنس والميجير هيوبرت يونغ في آذار/مارس 1921، وحضر فيه كذلك جميع الذين يحملون مسوّليّات المنظمات البريطانية الحكومية والعسكرية منها في الشرق الأوسط. كان من بين الحاضرين السير هيربرت صموئيل والسير برسى كوكس والأنسة جرتروود بيل وجعفر باشا (ال العسكري) والسير هيو ترنجارد والجنرال جفري سالواند.

قدم فيصل كمرشح للعرش وهو من الشخصيات المرغوب فيها عند الحكومة البريطانية، ولله حد كبير، بفضل نفوذ جرتروود بيل، وتم انتخابه من قبل أغلبية كبيرة من العراقيين في شهر حزيران/يونيو التالي. وبإسناد من لورنس عرض ترنجارد على المؤتمر فكرة خطة السيطرة الجوية في العراق بكلفة تجريبية تقل بعشرات عديدة عن أقل كلفة يمكن تصورها لإدامة جيش الاحتلال هناك.

وبالمناسبة، فإن هذه الخطة فوائد متعددة بالنسبة لدافع الضرائب البريطاني، لأن أجواء العراق تهوى مناخها مثاليًّا للتدريب لوحدات القوة الجوية الملكية، فهو بذلك فرصتها الكبرى. إن هذه التسورية لشكلة العراق خلقت بطبيعة الحال آمال الكثير من القادة الطموحين، وقد بين الكثير من الضباط البريطانيين الذين تركوا الخدمة على أثر ذلك، أنهم لا يجدون في هذا النظام أية فائدة، واستمرروا بالمجوهر على سمعة لورنس، ليس فقط كمستشار سياسي، بل وكذلك كمسكري وكاتب ورجل، ولم يتركوا فرصة تفوتهم في ذلك].

\* \* \*

إلى سي. أم. داوتي

وزارة المستعمرات - 13/6/1921

عزيزي المستر داوتي

كان علىي أن أجيبك قبل هذا الوقت، إلا أنني كنت أمل أن آتي لزيارةتك، ولكنني الآنأشعر بأنني لن أستطيع ذلك، إن لدى الكثير مما أعمله هنا، فإن ترشيش سيلقي خطابه في المجلس غداً، وعندما تنتهي مشاكل ذلك الأمر، سيعثوني ربما إلى جدة لمقابلة الملك حسين. وفي تلك الحالة، سأحاول أن أختلس وقتاً لزيارة الطائف وأشاهد المنطقة المحيطة بها.

إن عبدالله الآن في شرق الأردن يدير حكومة هناك بدون مساعدة منا، ولكن بدون أي تفويض رسمي. لقد رفض بالحقيقة هذا التفويض إلى أن يستشير والده ويوافق على ذلك. كان ذلك أسلوباً مؤدياً للتعبير عن رفضه المطلق.

أخشى أن ليس هناك كتاب أزرق سيصدر عن حرب الحجاز، وربما لن يصدر مطلقاً. لقد بعثنا ببعض التقارير إلى مصر، ولكنها بقيت طي الكتمان وتقبع الآن مدفونة في مكان ما بين السجلات.

لقد طلب مني صديقي أوبرى هربرت، وهو إنسان رائع، أن آخذ توقيعك على نسخة من الكتاب «المجذرة العربية»، ولدي واحد عليه توقيع فيصل أقدمه

هدية زواج لأخيه. أرسل لك هذه النسخ بالبريد وسأكون شاكراً جداً لو وضع  
توقيعك على الأجزاء الأربع.  
هذا وأعتذر عن إزعاجكم.

المخلص /لورنس

\* \* \*

إلى سي. أم. دارتنى

وزارة المستعمرات - 18/6/1921

عزيزي المستر داوني

أشكرك كثيراً على التوقيع على تلك الكتب، وطلب مني أوبرى هربرت أن  
أقدم لك شكره كذلك. إن التوقيع على نسخ من كتابك «الجزيرة العربية» يمنع  
الناس شعوراً بالإثارة.

لقد اضطربت أوضاع الشرق الأوسط، وأضحت الحسين غير مسيطر على  
الوضع في مكة، كما كنت تظن ! ولكنه مع ذلك ما يزال قوياً، وإذا ما ذهبت إلى  
الطائف فربما سيكون ذلك بوساطة إحدى سياراته، ستقوم بتزويده ببعض  
العجلات المدرعة، الأمر الذي سيجعل طريق الحجاج على قدر كبير من الأمان.  
وهذه العجلات أفضل بكثير من الشرطة الهجاء.

أما بشأن الطبعة الثالثة من الكتاب، فإني قد سحبت ملاحظتي عنه لأن فيها  
شيء من السماحة. لقد أقدم (لي ورنر) على المقامرة بإعادة طبع الكتاب لأن اسمي  
قد ظهر على صفحة عنوان الكتاب إلى جانب اسمك... وقد تزداد مبيعات الكتاب  
بذلك... قد تظهر طبعة رخيصة من الكتاب في المستقبل، إلا أن ذلك سيتأخر بعض

الوقت، حماية لحقوق الذين دفعوا كلفة طبع النسخ الغالية ... ربما سيحدث ذلك سنة 1925.

المخلص / ت. في. لورنس

[في 30/6/1921 صدر الأمر بتعيين «حييناً وموضع ثقتنا المطلقة السيد توماس إدوارد لورنس، اللفتنانت كولونيل في جيشنا، حامل الأوسمة DSO و MHOB»، منصب مندوب فرق العادة تحت خاتم إنكلترا العظيم مكلفاً بالتعامل مع ملك الحجاز. حافظ لورنس على هذه الوثيقة، والغريب في الأمر، أنه أخذها معه إلى القاعدة الجوية في أكسبرج في السنة التالية عندما انخرط في سلك القوة الجوية الملكية متخفياً باسم جي. آج. روس حيث كان حريصاً على إخفاء هويته الحقيقية].

[سمحت لي وزارة المستعمرات بنشر الفقرتين الأوليين من التقرير السري الآتي، أما بقية الوثيقة، والتي تتعلق بصورة رئيسة بالشؤون المالية لشرق الأردن، فقد أفسحت مجالاً أقل لروح الدعاية في أسلوب لورنس الذي يُظهر السخرية من الإنكليز كلّياً، وليس على حساب العرب الذين كان يصفهم بأنهم يصنعون أفضل ما يمكن بها يتسرّ لديهم من الوسائل].

\* \* \*

## مقتبس من تقرير لورنس عن شرق الأردن

1921/10/24

ذهبت إلى عمان في 24/10 للاطلاع على الموقف الراهن هناك.

### 1 - الوحدات البريطانية

كانت العجلتان المدرعتان غير صالحتين للاستعمال. لقد حصلنا عليهما بصعوبة من وزارة الحرب على أمل أنهاستساعدان في المحافظة على الأمن والنظام في شرق الأردن. لم تستطع هاتان العجلتان الخروج من معسکرها لعدة أسابيع قبل وصولي، لقد كانت العجلتان في حالة ميكانيكية لا يأس بها، إلا أنها كانتا بدون إطارات وبدون قطع غيار، ولم يكن فيها مصابيح ولا نصائر، وتتقصفها الرافعات والمنافيخ الهوائية والوقود. كان لكلتني العجلتين سائقان وراميان، وهو عدد لا

يكفي لاستعمالها أو لاستعمال مدعيتها، غير أن الأمر لم يكن بتلك الدرجة من الأهمية، حيث لم يكن هناك أحزمة لعتاد المدافع، ولا عتاد ولا قطع غيار لها. ومن بين السائقين الموجودين كان واحد «مساعد سائق» يُراد منه أن يتولى القيادة من السائق الأول عند الطوارئ، أما عن قدرته فلا علم لي بذلك. أما السائق الأول، والذي يفترض فيه أن يكون مؤهلاً لقيادة العجلة فيإمكانه أن يقودها إلى الأمام، إلا أنه عاجز عن قيادتها رجوعاً إلى الخلف. لذا فهو قائم على التدريب على ذلك في الفسحة التي بين خيام المعسكر.. أظن أن من اللازم إخبار وزارة الطيران عن حالة هذه الخطيرة من العجلات قبل أن يطلب منها أن تدفع إلى وزارة الحرب تكاليف إدامتها.

بعد وصولي ببضعة أيام وصل العقيد الطيار كردن ليتولى قيادة القوة الجوية الملكية والعربات المدرعة الملحقة بها. أعتقد أنه سينجح في الوصول بالوحدات التي يأمرته إلى مستوى الكفاءة خلال أيام قلائل. آنذاك ستقوم بتنفيذ برنامج للعمليات.

## 2 - الوحدات العربية

يلعب تعداد قوة الاحتياط التي بقيادة الزعيم بيكيه بيك أكثر من خمسة رجال. إن أفراد هذه القوة جيدون، والبعض من ضباطهم جيدون جداً. كما أن الطابع العام لهذه الوحدة يوحي بالتفاؤل. وأعتقد أن أحواها الداخلية على ما يرام. ويعزى الفضل في ذلك إلى الزعيم بيكيه. أما في الظاهر، فإن الأمور ليست على ما ينبغي. أولاًً هناك شعور بين سكان الأردن بأننا قاتلون على إنشاء جيش لغرض تحطيمهم خدمة لمصالحتنا. وبعد أن مر بعض الوقت، صاروا يقولون إننا نعتمد تكوين جيش ضعيف لكي يكون لنا عذر في إرسال جيش بريطاني إلى بلادهم. إن سبب ذلك هو التأخير الذي حصل في تجهيز القوة بالمواد والتجهيزات، فلقد

حرمت من الملابس الرسمية وسرور الخيل والرشاشات والبنادق. ليس بمقدور يكبه أن يدع جنوده يظهرون بين الناس ما لم يكونوا حسني المظهر ومجهزين بالبنادق، فكل رجل بلغ سن العسكرية في الأردن يسير وهو يحمل بندقية، لأن ذلك من مظاهر الاحترام والهيبة، بينما نرى واحدة ييكه، والتي تدعى القوة العسكرية، هي العنصر الوحيد الذي لا يحمل السلاح في البلاد. ومني ما أصلح هذا الوضع، فستخدم شكوك الناس فينا.

\* \* \*

### إلى الكولونييل اس. اف. نيوكومب

عمان - 8/11/1921

عزيزي اس. اف. ان

هناك شيء واحد فقط يجب أن يقال للفرنسيين، إن القبض على القتلة أمر مرغوب بلا شك، وهو أحد وظائف الحكومة. غير أننا في عمان علينا أولاً أن تكون الحكومة ومن بعد ذلك، نجعل الرأي العام يقف معارضًا للاغتيال السياسي. وبعد ذلك، سيأتي القبض على القتلة في الوقت المناسب. أما في الوقت الحاضر، فمن السخف أن يتم ذلك ولن يكون لي دور فيه. نحن لا نستطيع أن نقوص آمالنا في بناء كيان ما لمجرد إرضاء مشاعر جيراننا في الوقت الذي جعل الفرنسيون مهمتنا هنا من أصعب ما يكون - إن كانت حقاً من الممكنات - بتجاهلهم الأرعن للتصرفات الرزينة التي تراعيها الأمم فيها بينها.

أرجو أن تذكر الفرنسيين بأنهم قتلوا الأسرى من العرب بعد معركة ميسلون ونهبوا مساكن وحواجز فيصل وأصدقائه. إن الجميع قد ساهموا بنصيبيهم في ارتکاب الأعمال القذرة، وإننيأشكر ما لدى من آلة على أنني لست عربياً ولا فرنسياً، بل مجرد ذلك البوهيمي المسكون الذي توجب عليه أن يمسح ما يختلفوه.

ذهبنا في الأسبوع الماضي إلى معان بواسطة القطار. وحالما سيكون لدينا مستودع للوقود في معان سنذهب إلى تبوك. لقد أصبح لدينا مقطورة جيدة بفضل هولمز الذي كان كريماً علينا.

تعال هنا في وقت ما إن استطعت، وسوف أريك الصورة الحقيقة الفرنسية من الداخل. إنها قيبة.

المخلص لك / ق. فـ. آل

[أثناء ما كان لورنس يعمل في وزارة المستعمرات أبدى الأسقف الإنجليكي في القدس الدكتور ماكس قلقه من العبارة التالية التي وردت في كتاب «الصهيونية والسياسة الدولية» لمؤلفه هوريس أ. م كالون:

«إن تصور الإدارة العسكرية في فلسطين لإمكانية استمرار الحياة البريطانية على المنطقة المحتلة من البحر المتوسط إلى الهند، وباستاد من مصالح البعثات التبشيرية هناك هذا التصور، قد دفعها إلى استغلال الشروط التي فرضت في معاهدة لاهاي بخصوص طريقة حكم ما يقع من أرض العدو تحت الاحتلال، من أجل تخريب وعد بلفور وثبت نظامهم الخاص على أساس الأمر الواقع. إن الشعور عبادة السامية بين كبار المرؤظفين دور غير قليل في هذا الأمر. يضاف إلى ذلك، وبالقدر نفسه، جهل مرؤوسيهم وغبائهم وعدم كفافتهم. إن عدم اطلاعهم رسميًا على وعد بلفور قد ساعدهم كذلك في هذا الشأن. كما ساعدهم أيضًا تلك الدعاية المعادية للمهود التي تقف وراءها الصالح التبشيرية للكنيسة البروتستانتية، كما بيته الكولونييل لورنس للدكتور وايزمان ...».

في 15/12/1921 كتب الأسقف إلى لورنس يطلب منه أن يكذب التصريح الذي تُسبّب إليه ويقترح عليه أنه قد يجد من الضروري أن ينشر مراسلاته هذه في الصحف. ويبدو أن لورنس قد أجاب الأسقف مشيرًا له إلى المندوب السامي في فلسطين السير هربرت صموئيل. وفي العاشر من أيار/مايو التالي أشار ونستون تشرشل مبيناً بأن «الكتاب المذكور قد نُشر قبل أن يصبح لورنس موظفًا في وزارة المستعمرات ونتيجة لذلك، فإن الرأي الذي تُسبّب إليه من قبل مؤلف الكتاب لا يخص الوزارة في شيء». غير أن الأسقف غمس بموقفه وكتب مرة أخرى في 23/6 يطلب جواباً من لورنس. مضيقاً بأنه سيصل عما قريب إلى لندن.

هناك مسودتان بخطاب لورنس على السقف مما كيما يأتي:[١]

\* \* \*

## **المسودة الأولى لرسالة موجهة إلى الأسقف الإنجليكاني في القدس**

### **عزيزي الأسقف: سأجيب الآن على رسالتك**

إنك تريدين أن أكذب كلاماً يصرح شخص ثالث بأنني قلته للدكتور وايزمان. إنني لن أفعل شيئاً من ذلك. فلم يحدث في حياتي أنني قد أنكرت أي تصريح تُسبِّبُ إلَيْهِ، وليس هناك ما يغريني بأن أبدأ مثلاً هذه العادة ابتداءً من حالي تلك، وخاصة لأنني أظنك تريدين مني إنكار الأمر، لأنك تريدين أن تشعر بالثقة في نفسك وتنتصر على الدكتور وايزمان، ذلك الرجل العظيم الذي لا نلبي، لا أنا ولا أنت عزيزي الأسقف أن نسمح له حذاءه. أستجديك أن لا تعتبر رسالتي هذه وقحة بأي حال. وعندما ستحصل لنا السعادة بالالتقاء (وسيكون ذلك هنا في إنكلترا) فسوف يسرني أن أبين لك أن وقاحة هذه الرسالة أمر نسبي.

\* \* \*

[قرر لورنس أن يجرِّب مسودة أخرى لرسالة الجواب على الأسقف. ومع أن المسودة الثانية أقل خشونة من الأولى، إلا أنها قد سببت سخط الأسقف لأنها لم تُهيئ له مسكناً].

## **المسودة الثانية لرسالة موجهة إلى الأسقف الإنجليكاني في القدس**

وزارة المستعمرات - 1922

### **عزيزي الأسقف، أحصاً!**

كنت أرجو أنك لا بد قد أدركت ما أنت سائله عندما مرت فترة على أول خطاب كتبته. إنك في الحقيقة تقول بأن الدكتور كاللون يقول بأن الدكتور وايزمان يقول بأنني قد قلت كلاماً قبل ثلاث سنوات في باريس، وبأن هذا الذي قلته قد يؤخذ بأنه يسيء إليك، وأن عليّ أن أنكره.

لقد نسبوا إلى في السنوات الأربع الماضية الكثير من الأقوال الغربية، غير أنني لم أنكر أي واحد منها، لأنني لم أجده فيها من يستحق التكذيب. وكذلك هذا القول الأخير أجده لا يساوي شيئاً ذي بال. إنني بصرامة غير قادر على أن أفهم مثل هذه الحساسية من جانبك.

ثم إنك تريد أن تبعث بمراسلاتنا لنُنشر في الصحف. إن ذلك يدل على رغبتك، لا على رغبتي. أود أن أشير عليك أن لا تقوم بإصدار تكذيب أجوف فذلك شيء عقيم ولا جدوى منه. كما لن يكون خطوة موفقة منك أن تمنع الدكتور كاللون فرصة الدعاية له. لو كنت مكانك لفعلت أحد أمرين: إما أن أصرح بأنني رسمياً وشخصياً قد أيدت سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين، أو أن أشير إلى أن موقفي كأسقف يمنعني من التصريح العلني بأراء في الأمور السياسية. إنني أعترف بأنني أجهل موقفك من الصهيونية، غير أنني على يقين من أنه موقف صائب.

إذا ما جئت إلى إنكلترا. كما يوحي لي العنوان الذي أعطيته لي. فأرجو أن تمر فتزورني يوماً من الأيام، بعد أن تبعث لي بخبر عن قدموك إن أمكن، لأن لي عادات غريبة مثل خط يدي مع هذا القلم الرديء.

المخلص / تي. ثي. لورنس

\* \* \*

[نشرت الرسالة التالية عن استقالة لورنس من منصبه في وزارة المستعمرات على صفحات جريدة المورثك بوست في 20/7/1922 تحت عنوان «السياسة العربية: استقالة المستشار الكولونيلى لورنس»].

## إلى السير جون شكيره

1922/7/4

عزيزي شكريه

يبدو لي أن الوقت قد حان لأن أقدم استقالتي من دائرة الشرق الأوسط في الوزارة. لا بد أن تذكر بأن تعيني هناك كان بشكل طارئ اخذ لأن المستر تشرشل كان يقصد إدخال تعديلات على سياستنا، وأنه اعتقاده بأنني قد أكون عوناً للدائرة خلال الفترة العصبية التي كان يتوقع حدوثها.

حسناً، كان ذلك منذ ثانية عشر شهراً، والآن وبعد أن «غيرنا اتجاهنا» لم تقع بين صفوفنا، على ما أعتقد، أية إصابات في الجنود البريطانيين، إن كان في فلسطين أو في جزيرة العرب أو في الولايات العربية في العراق.

ما زالت القضايا السياسية هناك لم تجد حلّاً بطبيعة الحال، وستبقى كذلك مدة طويلة، غير أن المناقشة حول هذه القضايا والطريق الذي يتبع في معالجتها قد أصبحت تخذان مسلكاً دستورياً بصورة مطردة. فلم يحدث أي انفجار سياسي من أي شكل منذ فترة طويلة. قد يكون من الحماقة إظهار التفاؤل المفرط، إلا أنني في الوقت نفسه أعتقد بأن الوضع الراهن لا يشير إلى احتمال وقوع الأضطرابات.

وكما ذكرت أعلاه، أعتقد أنني توقيت وظيفتي هذه لأمر طارئ، إن لدى أموراً كثيرة أخرى أريد أن أفعلها، علاوة على أنني لم آت هنا بمحض رغبتي. وطالما أن الأمور أخذت تسير حالياً بشكل مستقر وعلى وثيرة واحدة، فإني لا أجد أي مبرر لأن تستمر الوزارة باستدامي في وظيفتي بعد أن لم يبق هناك الكثير الذي أعمله لو بقى في الخدمة.

لذلك سيسعدني أن أترك مثل هذه السفينة المزدهرة، إن سمح لي المستر تشرشل بذلك. لست بحاجة لأن أقول أنني سأكون دائمًا تحت أمره إذا ما حدثت

أية أزمة، أو ظهر هناك عمل على أن أقوم به. كبيراً كان أم صغيراً، إن استطاع أن يقنعني بأن وجودي ضروري له.

ينبغي علي أنأشكركم شخصياً على توفيركم ذلك الجو المناسب للعمل في الوزارة نفسها.

المخلص / ق. ن. لورنس

\* \* \*

[ترك لورنس عمله في وزارة المستعمرات في أوائل صيف 1922، وربما يكون من المناسب أن ننشر هنا وجهة نظره الخاصة عن العمل الذي أتجهزه عندما كان مستشاراً لترشيش في الشؤون العربية. اقتبس الفقرات التالية من مسودة كتبت في 18/11/1922 لمقيدة طبعة موجزة من كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» عن نسخة أكسفورد أعدتها إدوارد غارنت إلا أنها لم تنشر. وفي هذه المقدمة يتضمن أن لورنس يرى أن مهمته قد انتهت].

### مسودة مقدمة كتاب (أعمدة الحكم السبعة)

1922/11/18

يعود تاريخ الكتاب إلى سنة 1919 عندما كانت بعض العناصر المتنفذة في الحكومة البريطانية تبحث عن سبيل تملص فيه من التزاماتها التي تعهدت بها للعرب خلال الحرب. كان ختام ذلك الفصل في آذار / مارس 1921 عندما استلم المستر ونستون تشرشل مسؤوليات الشرق الأوسط. لقد فضل تشرشل الصدق والأمانة على المصلحة النفعية لأجل الوفاء بوعده نصاً وروحاً. لقد حقق للعرب كل تعهدات مكمالون (ويسميها البعض من لم يطلع عليها «معاهدة»)، في فلسطين، في شرق الأردن وفي جزيرة العرب. أما في بلاد الرافدين فقد سار إلى أبعد مما خطط لها مانحـاـ العرب أكثر ومحفظاً لنا بأقل مما كان مكمـالـون يعتقدـه مناسـباً.

إلا أنه لم يستطع التدخل في الشؤون الداخلية لسوريا الفرنسية، وليس بوسع شريف مكة أن يشكوا بأن تسوية الوضع في تلك المنطقة غير متوافق بعد مع الاتفاقية الإنكلو - فرنسية لسنة 1916 أو مع تعهداتنا له. إني أقول «بعد» عن هذا الأمر، لأن مقترحات مكمالون (والتي وضعت على أساس عرقية واقتصادية) كانت ستفرض نفسها حتى بمرور الوقت، حتى لو لم يتعرض للخطر مستقبل كل المنطقة العربية نتيجة لقرار ترشيل التقدمي بالانسحاب العسكري من بلاد الرافدين.

لست راغباً أن أنشر وثائق سرية، ولا أن آتي بتفسيرات مطولة: غير أن من اللازم أن أسجل إيماني، بأن إنكلترا قد خرجت من القضية العربية طاهرة الذيل.

لقد رفض بعض دعاة القضية العربية هذا الاجتهاد مني عن الموضوع (وقد التحق بصفوفنا بعد المذنة أكثرهم صخيحاً). وكما يفعل كل محارب قديم ممل، جعلتهم يحسبون جروحي (الذي منها ستون، يشهد كل واحد على الآلام التي تحملتها في خدمة العرب)، لتشهد على أنني عملت إلى جانبهم بكل إخلاص. لقد اعتبروني متخلفاً، ويسعدني أن أنسحب من وسط سياسي لم يكن في يوم من الأيام متجانساً مع روحي وطبعي.

\* \* \*

إلى دي. جي. بيرمان

كراجي - شباط / فبراير 1928

عزيزي بيرمان

الكلام الذي سترأه ليس بتصريحات. فليس هنالك شيء أريد أن أقوله. إن نتائج ما عملنا أخذت تمضي قدماً ولم يبق لدينا سوى دور المتفرج. إن ما يقال من الكلام أكثر مما يجب.

ولكن إذا وجدت أن عليك أن تقول المزيد، فأرجو أن تعمل على التأكيد على الطابع المحلي للثورة العربية. إن الناطقين بالعربية مختلفون فيما بينهم، كاختلاف الناطقين بالإإنكليزية وبالدرجة نفسها من التمايز. إن الْبُعد الروحي بين المغرب وببلاد الرافدين كبير كالْبُعد الروحي بين سان فرانسيسكو وأبردين. كما أن بين البدو في الأزرق والفالحين في عمان عالم كامل - مع أن المسافة بينهما خسون ميلًا. إن المجرم فقط هو الذي يتمنى أن يجعلهم كلهم متشابهين.

كان هدفاً لا أن نحرر البدو من ربقة الأتراك ونمنحهم فرصة أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، وهم الذين يتمتعون بنمط من الحياة الآمنة الحررة التي يُحسدون عليها، بل أن نحرر السكان المتوطنين في سوريا والعراق. كان من الضروري أن نتجنب إلقاء الوضع المستقر في كل من مصر والجزائر، لذلك أبقينا الحركة العربية محصورة ضمن تلك الحدود. إن ما حدث في الشرق الأوسط هو أن الدين لم يعد الدافع السياسي، بل تخلى عن مكانته هذه للدافع القومي. لذلك كانت مهمتنا سهلة نسبياً.

عندما يتحدث الناس عن الاتحادات بين العرب وعن الإمبراطورية العربية، فإنهم يفعلون ذلك بخيال واسع. أتوقع أن أجياً عديدة ستمر قبل أن يقدم أي بلدان عربين على الاتحاد بصورة طوعية - إلا إذا حدث تسارع كبير في مجرى الأحداث في الشرق. إنني أتفق معهم على أن أملهم الوحيد في المستقبل هو في اتحادهم، غير أن ذلك يجب أن يكون عملية طبيعية في تطورهم المشترك. إن فرض الوحدة بالقوة عملية تؤدي إلى الملاك. وفي مثل هذه الأمور، يجب أن تخضع السياسة لاعتبارات الجغرافية والاقتصادية. يجب أن تتحسن مستويات المواصلات والتجارة قبل أن تندمج البلدان مع بعضها.

إن ابن سعود هو أقرب محاولة نحو إمبراطورية عربية في الوقت الحاضر. إنها ظاهرة مختلفة أُسست فوق الرمال. لن يبرز شيء مستقر في الصحراء التي شاهدت

المنات من مثل هذه الحكومات الاستبدادية قُوّمت جميعها بالدم (وبقدر أقل ربما) أن هذه الأنظمة ستذهب.

إن الواقع الوحيدة التي تجري فيها اليوم محاولات لإنشاء حكومات عربية هي الحجاز والعراق واليمن ومصر. والنجاز كواحد من هذه الواقع، يعيش تحت حكم ابن سعود وضعاً أفضل مما كان تحت حكم الحسين. لقد كنا مدینين له لمساعدتنا عسكرياً، وقد كان ابنته علي شخصاً لائقاً لم يكن يستحق ما ورثه عن والده من موقف عداء مع ابن سعود، ولكنه رحل هو الآخر بطبيعة الحال. إنني أظن أن النجاش سيكون في يوم من الأيام مكاناً عظيماً، ولكنه مكان مثير مع ذلك.

وأكثر بقعة تبشر بالخير في المنطقة هي العراق. لقد عمل ذلك البلد العجائب سنة 1921، عندما أوجده تشرشل، أو أعاد تكوينه بالأحرى. لم تكن الإداره الحرية هناك ذات نفع لنا ولا للعراقيين.

في بداية الأمر، كان من المتظر أن تكون سوريا في وضع أفضل من العراق، لأن الناس هناك كانوا أكثر خبرة وتقدماً. إلا أن الفرنسيين، بعد أن أخرجوا فيصلأ، رفضوا أن يسمحوا بأية حكومة مركزية واحدة إلا في لبنان، وقسموا سوريا إلى أربع مقاطعات. إن مكاناً صغيراً مثل ذلك لا يتحمل أن يقسم إلى خمس إدارات. لا بد أنهم سيجدون حلآ آخر شبيهاً بما حدث في العراق، إلا أنك تستطيع أن تقدر مدى حُسن الحظ الذي أصاب بريطانيا نتيجة لوجود ونسرون تشرشل وزيراً للمستعمرات سنة 1921 إذا ما قارنت ما تكلفناه في العراق منذ ذلك الوقت مع ما كلفته سوريا، ومقدار سعادة العراق مع التعاشرة في سوريا. إن الكبارياء الفرنسي يلعب دوره وهم يرفضون أن يتعلموا من أخطائهم. أما نحن فقد قلبنا صفحة جديدة بعد أن رحل لورڈ كيرزن.

قل جماعتك بالله عليك، كاتناً من كانوا، إن كل غايتى كانت أن أنقذ بريطانيا، وكذلك فرنسا، من حماقات دعاه الاستعمار الذين كانوا يربونا في سنة 1920 أن نكرر مغامرات كلايف ورودس. لقد تجاوز العالم تلك المرحلة. ولكنني أظن مع ذلك، أن هناك مستقبل عظيم أمام الإمبراطورية البريطانية كتاليف اختياري، وأننى لها أن ترتبط مع الدول الأخرى بمعاهدات على نطاق واسع. إننا نرتبط بمعاهدات مع عديد من الدول اعتباراً من النيل فنازا. فلنضيف إذاً كلّاً من مصر والعراق لهذه الدول. إننا أشبه شركة كبيرة تستطيع أن تعرض فوائد كبيرة على الشركات الصغيرة إن هي ارتبطت بنا، إذا ما استطعنا التوصل إلى شروط تغير بالارتباط.

إلا، هل هذا هو الهراء الذي كنت تريده؟ خذه إذاً وافعل به ما تظنه نافعاً. كم هو الفرق بين ما نحن عليه الآن وما كنا عليه في الأزرق. كم أود لو أستحم مرة أخرى في تلكم البرك، بما فيها من ذباب وغيره.

الملخص/ني. ني. شو<sup>(١)</sup>

\* \* \*

### إلى وليم بيل

ويستمنستر-23/10/1929

عزيزي، بيل

أوصل لي روبرت غريفز رسالتك، وأخترت الإجابة عليها ريشاً أحاول أن أستعيير لنفسي نسخة من كتاب أعمدة الحكمة السبعة، لأنظر فيها قلته قبل عشر سنوات. غير أنني لم أثر على آية نسخة منه، كما أن إجازتي ستنتهي يوم الخميس، لذلك عليّ أن أكتب لك من الذاكرة عنها حدث في دمشق. [أحمل سبع وثلاثون سطراً من

(١) إن «شو» هو الاسم المستعار الذي اختاره لورنس لنفسه آنذاك.

الرسالة يسرد فيها لورنس تفاصيل ما صنعه بخصوص المستشفى في دمشق التي تحدث عنها في الفصلين 121 و 122 من كتاب «أعمدة الحكمة السبعة». أظن أنني غادرت يوم 10 / 4 في طريقني إلى إنكلترا.

أما بشأن لبنان وبيروت. فلقد ضمنت تعهداً من فيصل وهيئة ركه بأنهم سيتركون لبنان و شأنه ليقوم الحلفاء باحتلاله. قدم فيصل هذا العهد لي في مدينة وجه كما يبدو من قول غريفز (وليس لدى نسخة من كتاب غريفز أيضاً!). وعلى أثر الاستيلاء على دمشق فقد فقدنا أنا وفيصل السيطرة على الموقف. لقد تولى السوريون الأمر (على رضا والإخوان البكري) واتجهوا سرعان نحو الساحل مباشرة. كانت خططي أن نحتل المنطقة من فتحة طرابلس حتى الإسكندرية شهلاً وأخبرت فيصل أن حالة الاضطراب التي ستعقب النصر ستتيح له فرصة كبيرة في أن يجعل هذه المنطقة تضم في نهاية الأمر إلى المملكة السورية بموجب شروط. ما زلت أعتقد أن تلك العملية كانت ممكنة التحقيق إلا أن الاحتلال المتهور للبنان وبيروت قضى على الفرص المتاحة أمام السكان المحليين.

ذهب شكري إلى بيروت بإيعاز من علي رضا. لقد كنت منشغلاً للغاية بالمشاكل المتعلقة بدمشق، فلم أجده الفرصة لتدبير أمر علي رضا. وعلى كل حال، فقد كانت كل آمالي منحصرة بالعودة إلى الوطن حيث كنت أحاول الانتقال إلى الجبهة الفرنسية. لقد كانت مشاكل الشرق ترهق أعصابي.

لم يكن هناك إذاً دخل للشريف ولا لي شخصياً في عملية الاحتلال بيروت. لقد كنت معارضًا لهذه الخطوة على ضوء مصالحنا، وقد أمر فيصل أتباعه كذلك بعدم التعرض للمنطقة السورية الساحلية إلى الجنوب من فتحة طرابلس. ربما بامكانك أن تويد هذا القول إذا ما علمت أن أحداً من لم يذهب هناك، لا من الجيش العربي ولا من جماعتنا. كانت خطوة دمشقية خالصة. إن هذه الأمور تتعارض مع مصلحة

فيصل كأي أمر آخر. لقد كان الدمشقيون يأملون بأن يتخلصوا من العمليات المتوقعة من فيصل بأن ينادوا أباه الملك حسين القابع بعيداً. لم يكن في نيتها أن أطلق أو أعلن عن قيام أي ملك في دمشق. كان فيصل يحكم دمشق باعتباره قائداً عسكرياً ضمن قيادة النبي. وهي مكانة لا يسهل الهجوم عليها. فإذا قال لك شكري بأنني شجعته على الذهاب إلى بيروت فلربما كان يدعى ذلك، نتيجة شعوره بالخوف بسبب الخطأ الكبير الذي ارتكبه فاراد أن يدعى بأنه كان خولاً بالقيام بذلك.

إنني لأصاب بالذهول لقولك إن الضباط السياسيين البريطانيين كانوا يعملون على خلق موقف في سوريا يجعل من المستحيل تطبيق معاهدة سايكس - بيكو. لقد شعر الفرنسيون بذلك فعملوا جاهدين على اتخاذ الانتداب كبديل لها.

و عمل البريطانيون على تأييد الفرنسيين عن طريق مساومة شأنة وعملوا الشيء نفسه في العراق. لم يكن الفرنسيون ليحصلوا بموجب معاهدة سايكس بيكو على أكثر من المنطقة الساحلية، وللغرب ستبقى (كإدارة وطنية) حلب وحما وحمص ودمشق وشريقي الأردن. ولكن بريطانيا وفرنسا استولتا على المنطقة عن طريق الخديعة التي سموها انتداباً.

كانت معاهدة سايكس - بيكو شيئاً منافياً للعقل. بما تنص عليه من حدود غير أنها كانت تعترف بحق السوريين في تكوين حكومة وطنية، وكانت أفضل بعشرة آلاف مرة من التسوية التي استقرت عليها الأمور<sup>(١)</sup>.

---

(١) إن هذا الرأي بحاجة إلى سند، لقد أبرمت اتفاقية سرية في باريس بمعاهدة ترتيبات عمل بين كلينتسو وفيصل وكانت تحظى على بذرة من الأمل. إلا أن ميلنارد مزق هذه الاتفاقية، وأطلق العنان لجيش غورو باحتلال دمشق.

ومن باب الإنصاف لبريطانيا، يجب أن أضيف بأنها أقعت في نهاية الأمر بالغاء خطة الانتداب في كل من العراق والأردن من الناحية الواقعية، ولو أنها ظلت تتمسك بها من الناحية الرسمية استبعاداً لتدخل طرف ثالث، وقد حدث هذا التغيير في موقفها بفضل الضغوط المالية وثورة العراق سنة 1920، وربما بسبب ضميرها الذي أيقضته التحرّكات التي قمت بها في لندن. إنني أعتقد جازماً بأن التسوية التي توصل إليها ونستون تشرشل سنة 1921-1922 (والتي شاركت في صنعها) تفي بكل الأمانة بكل الوعود التي أعطيناها للعرب وذلك قدر ما يتعلق الأمر بالمنطقة التي تحت نفوذ بريطانيا. فلو كنا قد فعلنا ذلك سنة 1919 لحق لنا أن نفتخر بأنفسنا. إن الفرنسيين لم يتعهدوا للعرب بشيء، وهم يرفضون أن يتبنوا سياستنا المتحرّرة. إن ذلك مما يؤسف له لكننا لا قدرة لنا على علاجه.

فهل يهتم أحد الآن بها صنته أنا وأنت أو صنته بريطانيا أو فرنسا قبل عشر سنوات؟ لندع خمسين سنة تمر على ذلك. إذا ما استمر العراق على عمل يليق به لفترة ثلاثة أجيال فستعتبر الثورة العربية خطوة موفقة. ليس بإمكاننا أن نجني الحمد أو اللعنة خلال فترة حياتنا، وبعد أن أموت، فلن يضير عظامي ماذا يقال عنّي. لقد أسعدتني التسوية التي قام بها تشرشل إلى درجة أنني انسحبت من ميدان السياسة، نظيف الديين حسبها أظن، وانضممت في خدمة القوة الجوية وما أزال هناك وأنا سعيد لذلك. ليس هذا العمل من الأعمال المجيدة، إلا أنه حالياً من المهموم وصحي ومحظى. لم أعد إلى الشرق الأوسط ولم أقرأ عنه كتاباً أو مقالة، ولم أستلم أو أكتب رسالة من وإلى ذلك المكان منذ سنة 1922 عندما التحقت بخدمة القوة الجوية الملكية.

تقول إنك تريدين أن تقرأ كتابي «الأعمدة السبعة». إنه كتاب رديء، كتاب ممل وجنوني وطويل ومليء بالتبجح. كما أنه (والحمد لله) نادر الوجود. وكما قلت لك

فلم أكن قادرًا على استعارة نسخة منه هنا لاستعين به في الكتابة إليك، أعتقد أن بعض النسخ قد وصلت إلى الولايات المتحدة. لكنهم يقولون إنها بلد كبيرة. لقد كان لدى المسر لامونت نسخة منه، ونسخة لدى دبليو الأكبر، وكذلك لدى كيرتروزفلت. لقد رفع المضاربون ثمنه إلى مئات البوتان فقام كل العقلاه ببيع نسخهم. هذا عن الطبعة الإنكليزية. وهناك كذلك طبعة أمريكية إلا أنها ناقصة. وأتصور أن هناك نسخة من هذه الطبعة في مكتبة الكونغرس في واشنطن فكم من المسافة هناك بين واشنطن ونيوهامبشر؟ لا أدرى بذلك. أرجو أن تصدقني أنك لن تخسر شيئاً إن لم تقرأ الكتاب.

أما عن مفاوضات السلام ! لقد جرت محادثات سلام جادة بين فيصل وجال طيله سنة 1918 . لقد اطلعت على رسائل الطرفين خلسة. وكان من المفترض أن تكون ساخطاً على فيصل بسبب ذلك، إلا أن إنكلترا نفسها كانت تتفاوض سرياً مع طليعت طيله سنة 1918 كذلك، ويدون إعلامي رسميًّا عن الموضوع. إن كل شيء مباح في الحرب وال الحرب وال تحالفات.

المخلص / ق. ثـ. شـ



## أهم أعمال لورنس

كتب لورنس كتابه الأول «براري زين *The Wilderness of Zin*» في عام 1914، في الشاليه الذي أقيم له في حديقة منزله في شارع بولستيد بأكسفورد، وهو كتاب فلسفي قليل القيمة.

وبدأ لورنس كتابة مسودة كتابه الهام «أعمدة الحكمة السبعة *Seven Pillars of Wisdom*» في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1919 خلال انعقاد مؤتمر الصلح في باريس. وقد فقد في محطة ريدنج بإنجلترا بعد ذلك مسودة ثانية من الأبواب العشرة التي كتبها. ثم أعاد في ربيع عام 1920 كتابة «مسودته الثانية» للكتاب. ويقال إنه قد حبس نفسه في غرفة بمنزل أحد أصدقائه في ويستمنستر بلندن حتى انتهى منها «من دون أن يتوقف، أو يرى أحداً، أو يأكل شيئاً». ولكنه أعدم في عام 1922، كما ذكر، كل ما كتبه حتى ذلك الوقت. وأعاد في شباط/فبراير من ذلك العام كتابة مسودة جديدة، ثم تدبر أمر نشرها، وكتب لصديقه جارنيت يقول:

«لقد قررت أمس ألا أنشر شيئاً مما كتبته، ولكنني غيرت رأيي اليوم، ولا أعلم هل أنا أحقر أم مجانون؟».

وقد ذكر لورنس أنه في كتابته، كان يستخدم ذاكرته استخداماً مطلقاً، ثم يصحح بعض ما ورد فيها بمراجعة مراجعة، ثم يعرض ما كتبه بعد ذلك على بعض

خلصاته، ومن بينهم جارنيت. وهناك ما يشبه الإجماع على أن هذه الذاكرة كانت تتجه به دائياً إلى المبالغة.

وكان لورنس قد تعرف على جورج برنارد شو في آذار / مارس عام 1922، ورغم إليه في أن يراجع ما كتبه في كتابه «الأعمدة». وقد ذكرت سكريبتير شو بعد ذلك، أن شو قد أهمل مراجعة مسودة لورنس أياماً، حتى كرر لورنس اتصاله به، فثار عليه شو، وطلب منه أن يتمهل. وحينئذ وقعت شارلوت، زوجة شو، على الكتاب، وأعجبت به إعجاباً شديداً، فأخذها يراجعنه معاً. ويقال إن شو لم يترك جلة في كتاب لورنس من دون أن يجري فيها تعديلاً أو تغييراً.

وقد جمع الكتاب في صيف عام 1922 على آلة الليتوبي، في مطبعة أقامها لورنس وأصدقاءه في بادينجتون بلندن. وجرى جمعه على النظام الذي تناه وليم موريس من جعل الفصول متواالية. وعلى أن تكون بدايتها أسفل الصفحات اليمنى. وقد احتاج لورنس إلى تعديل كتاباته كي تتواءم بداية الفصول مع هذا النظام !

وفي هذه الأثناء كان لورنس قد انضم إلى سلاح الطيران البريطاني، فطلب وقف العمل في الكتاب.

ثم كتب إدوارد جارنيت ملخصاً له، جعل اسمه «الثورة في الصحراء *The Revolt in the Desert*». واتفق لورنس مع دار نشر جوناثان كاب على نشر الملخص. ولكن العقد لم يصله حتى بداية عام 1923، وكانت الصحف الإنجليزية قد اكتشفت أنه قد تطوع في سلاح الطيران، فنقض لورنس اتفاقه مع الناشر. ثم شعر بالأسف على وقف النشر، وفك في نشر الكتاب الكامل، وكتب إلى كاب كي ينشر 2000 نسخة من المسودة الأصلية. ودهش جوناثان كاب لهذا العرض المفاجي، ولكنه وافق عليه، وأرسل له عقداً جديداً بذلك.

ولكن العقد بلغ لورنس وقد طُرد من سلاح الطيران، فرفض توقيعه، ثم أخذ على نفسه في عام 1926، ويشجع من شو، أن يطبع من كتابه نسخاً محدودة على ورق خاص، برسوم مختلفة على كل نسخة، ويتجليد بدوبي مختلف. وقد وزع من هذه النسخ 128 نسخة في إنجلترا و22 في الولايات المتحدة بسعر النسخة الواحدة ثلاثون جنيهاً. وأهدى لورنس النسخ الباقية، وعددتها 36 نسخة كاملة و26 نسخة غير كاملة لأصدقائه. وقد نجحت هذه الطبعة نجاحاً كبيراً. ويبلغ ثمن النسخة منها بعد أيام من ظهورها عدة مئات من الجنيهات. وأجر النسخة الواحدة منها للقراءة خمسة جنيهات أسبوعياً ! ولكنها كلفت لورنس أكثر كثيراً مما دارت عليه من أموال، فكانت ديونه بعد إصدارها سبعة آلاف جنيه !

وقد أدت خسارة لورنس في هذه الطبعة إلى موافقته على أن يطبع جوناثان كاب الملاخلص الذي وضعه جارنيت للكتاب، وراجعه لورنس، ويبلغ حجمه حوالي تُس حجم الكتاب الأصلي. وقد نُشر الملاخلص باسم «ثورة في الصحراء» في عام 1927. وتجاوز ربع المؤلف منه 15000 جنيه. ولكن لورنس جعل على الكتاب أوصياء، وحاول ألا يمس ما يدّره من أرباح، ولم يُنشر الكتاب أو ملخصه بعد ذلك حتى وفاة المؤلف وتعيين أخيه وصيّاً على كتبه.

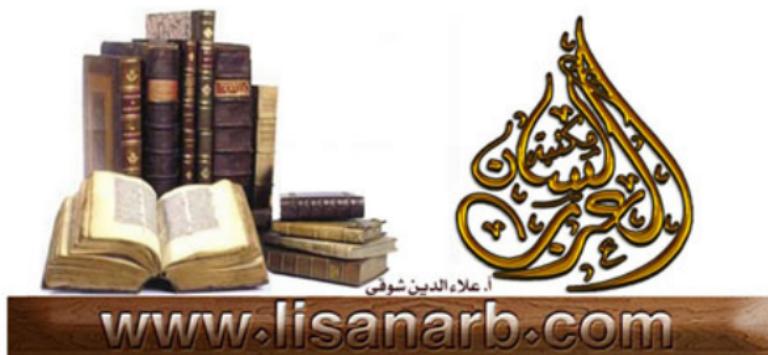
\* \* \*

ويتناول كتاب «الأعمدة» وملخصه «الثورة» دور لورنس في قيام وتوجيه الثورة العربية والقتال ضد الأتراك. وتتضح في الكتاب نظرة لورنس غير المتوازنة إلى «العربي». فهو عنده وسط بين الأوروبي والزنجي. وكان لورنس يحترم الزوج إلى حد «التحجّل من أنهم يحملون نفس تقاطيع ورسوم الأوروبي». وقد احترق بعد ذلك المندوب قدر احترقاره للزوج !

وقد أكد فورستر أن لورنس كان يُعنى أشد العناية بأسلوبه، وكان يتمنى طوال حياته أن يكون كاتباً، ولكن تشرشل، على إعجابه وتقديره بلورنس، قد ذكر أن كتابه «لا يترك أثراً بالغاً في النفس، فكل ما فيه شخصي أو مبالغ فيه. ويترجم عن ظروف لا يستطيع الإنسان فيها يليدو أن يحيها، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقول إن مؤلف الكتاب كان رجلاً».

وقد ترجم لورنس خلال إقامته في بليموث ساوند في عام 1930 «الأوديسا The Odyssey» لهومر، واحتراها منه ناشر أمريكي لقاء 600 جنيه، ونشرت في أميركا بعد ذلك بعامين.

وقد نُشر للورنس بعد وفاته في عام 1955 «دار ضرب التقدّم The Mint» وهي يومياته عن الفترة التي التحق فيها بسلاح الجو البريطاني. وكان نشرها قد تأخر لاحتوائها على فقرات «مسرفة» ترك فيها المؤلف العنوان لخيالاته غير المتوازنة.

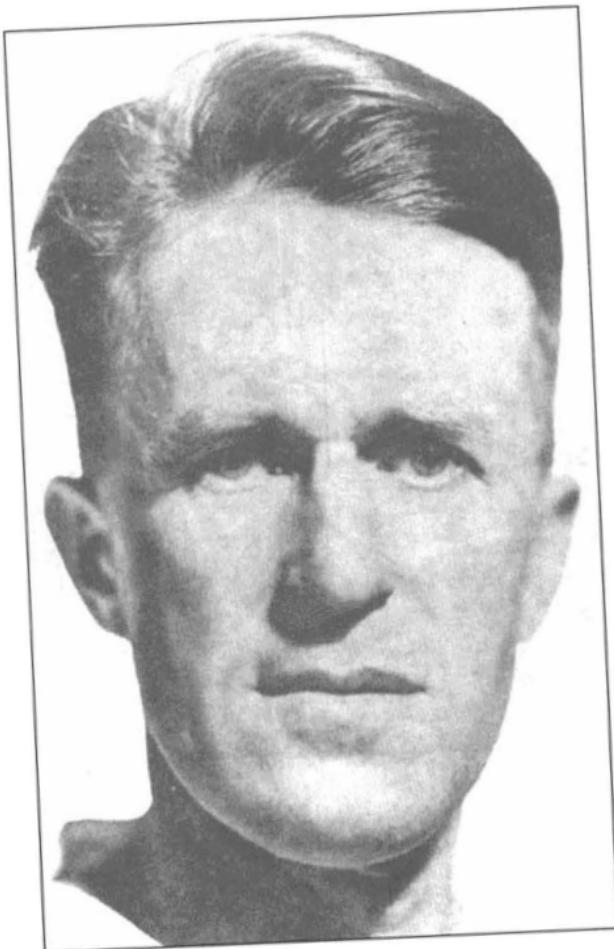


## تواتریخ في حیاة لورنس

- 1888: (16 آب/أغسطس) ولادته.
- 1889: ترك والده منزل أسرته في إيرلندا، وهيامه مع خليلته وولديه في أنحاء إنجلترا وفرنسا.
- 1896: استقرار الأسرة في أكسفورد بإنجلترا.
- 1907/4: مقاطعته لللحوم، واقتصراره على الطعام النباتي.
- 1907/6: تركه الدراسة وتطوعه جندياً في الجيش البريطاني.
- 1907: التحاقه بكلية يسوع بجامعة أكسفورد.
- 1910/9: زيارته الأولى لسوريا، ثم الحصول على بكالوريوس العلوم في التاريخ الحديث من جامعة أكسفورد.
- 1914/10: التنقيب عن آثار الحبيشين في كارشيمش (جرابلس) في سوريا.
- 1914: العمل بمكتب الاستعلامات البريطاني في القاهرة.
- 1916: زيارته الأولى لجدة، ومقابلته للأميرين عبدالله وفيصل، ثم بداية عمله مع قوات الثورة العربية.

- احتلال مينائي وجه والعقبة، ونصف قصبان ومركبات السكك الحديدية والكباري، وفي تشرين الثاني / نوفمبر حادثة درعا.
- القوات العربية تحرر دمشق، ثم استقالة لورنس من الجيش البريطاني.
- لورنس يصاحب فيصل في زيارته الأولى لإنجلترا، ثم في مؤتمر الصلح بباريس.
- مؤتمر القاهرة يختار فيصل ملكاً على العراق، وتعيين لورنس كبيراً للمستشارين الإنجليز في شرق الأردن.
- 1935 / 1935: التطوع جندياً في سلاح الطيران والدبابات البريطانيين.
- 1926 / 1926: العمل بالهند.
- (19 آيار / مايو) 1935: وفاته.

\* \* \*



لورنس العرب



لورنس وأشقائه: من اليمين ويل، بوب، آرنولد، فرانك ثم توماس لورنس



لورنس مستلقياً أمام جمله



منزل لورنس في كلاودز هيل



لورنس متنكرًا في زي البدويات

# فهرس

5 .....	مقدمة
9 .....	السر الذي أخفيته أسرة لورنس
9 .....	صعوبات لورنس مع والدته
13 .....	الزيارة الأولى لسوريا
17 .....	التقىب عن آثار الحبيشين في سوريا
21 .....	العمل بمكتب المخانط بالقاهرة
26 .....	اختلاط مصير لورنس بمصير الثورة العربية
30 .....	الاستيلاء على ميناء وجه
35 .....	دور لورنس في الاستيلاء على العقبة
40 .....	حقيقة ما حدثت في درعا
45 .....	وفاة داود وفراج
49 .....	سباق بين القوات العربية والبريطانية
54 .....	استقالة لورنس من الجيش البريطاني
59 .....	تصحيح الأخطاء والوفاء بالمهود
63 .....	السعى إلى المهدوء والاستقرار
68 .....	ورقة سقطت عن شجرتها في الخريف
71 .....	حقيقة شذوذ لورنس
79 .....	ختارات من رسائل لورنس
80 .....	إلى المسر زيدر
81 .....	إلى المسر فونتانا
82 .....	للي دي. جي. هوغارث (1)
84 .....	للي دي. جي. هوغارث (2)
87 .....	للي دي. جي. هوغارث (3)
88 .....	للي دي. جي. هوغارث (4)
91 .....	للي والدته
98 .....	بلاد ما بين النهرين (مقالة)
100 .....	إلى العقيد سي. في. ولس (1)
102 .....	إلى العقيد سي. في. ولس (2)

104 .....	إلى العقيدسي، في. ولسن (3)
112 .....	إلى العقيدسي، في. ولسن (4)
114 .....	إلى الجنرال كلابتن .....
120 .....	احتلال العقبة .....
126 .....	إلى الكولونيل سي، في. ولسن .....
127 .....	إلى القائد العسكري في أكبر .....
130 .....	معركة سيل الحسا .....
134 .....	إلى الميجر آر. أج. سكوت .....
136 .....	تحطيم الجيش الرابع .....
149 .....	إلى الميجر آر. أج. سكوت .....
151 .....	إعادة تكوين بلاد العرب .....
159 .....	من يوميات مؤتمر الصلح .....
162 .....	إلى رئيس تحرير التايمز .....
170 .....	إلى المستر لويد جورج .....
171 .....	مذكرة إلى وزارة الخارجية .....
174 .....	إلى اللورد كيرزن .....
179 .....	إلى اللورد ونترن .....
180 .....	إلى رئيس تحرير جريدة التايمز .....
184 .....	فرنسا وبريطانيا والعرب .....
189 .....	بلاد الرافدين .....
192 .....	إلى أج. آر. هاردي .....
193 .....	برقة إلى الحكومة .....
195 .....	إلى سي. أم. داوتي (1) .....
196 .....	إلى سي. أم. داوتي (2) .....
197 .....	مقتبس من تقرير لورنس عن شرق الأردن .....
199 .....	إلى الكولونيل آس. آف. نيوكومب .....
201 .....	السودة الأولى لرسالة موجهة إلى الأسقف الإنجليزي في القدس .....
201 .....	السودة الثانية لرسالة موجهة إلى الأسقف الإنجليزي في القدس .....
203 .....	إلى السير جون شكوره .....
204 .....	مسودة مقدمة كتاب (أعمدة الحكمة السبعية) .....
205 .....	إلى دي. جي. بيرمان .....
208 .....	إلى وليم بيل .....
213 .....	أهم أعمال لورنس .....
217 .....	تواترخ في حياة لورنس .....
223 .....	الفهرس .....